

علاء إسماعيل

# عند ما بكى قسطنطين

رواية



عندما بکی قسطنطین

علاء إسماعيل: عندما بكى قسطنطين، رواية  
الطبعة العربية الأولى: أغسطس ٢٠٢٣  
رقم الإيداع: ٢٠٢٢ / ٢٥٩٦٣ - الترقيم الدولي: 9 - 334 - 806 - 977 - 978

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ والنَّشْرِ مُحْفُوظَةٌ للنَّاشِرِ  
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة  
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب  
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة  
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.  
© دار دَوْنُ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

علاء إسماعيل  
عندما بكى قسطنطين  
رواية



استدعت كتابة هذه الرواية البحث في كثير من المراجع التاريخية والفلسفية، (الأجنبية والعربية) والتي قد أرفقتُ بعضها في نهاية الصفحات؛ وذلك لغموض الفترة الزمنية التي تدور حول أحداثها المثيرة، بما تحويه من تشابك تاريخي وديني واجتماعي وفلسفي.

وإنني لأحمد الله على إنجاز هذا العمل الذي استغرق بضع سنوات، وأسأله أن يكون إضافة إلى المكتبة الثقافية.

لا أدري هل ما أكتبه  
الآن يجب عليّ أن أبوح به..  
أم مجرد زخات ونفثات فكرية؟!

الغريب يصل إلى البر

بينما كانت الأشجار مائلة على صفحة البحر لتتلاها صورتها بأشعة الشمس مع تكسّر الأمواج الهادئة، كانت إحدى السفن تُرْخِي أشرعتها على ميناء سلوقية بمقاطعة أنطاكية <sup>(1)</sup> مُؤذنةً بنزول أفواجٍ من المسافرين إلى تلك المدينة.

وطئ البرّ شابُّ غريبٌ قاصدًا مدرسة القديس لوسيان، ممتطيًا بغلةً هادئةً تسير به الهوينى بعدما استأجر أحد الأدلاء ليسير أمامه ببغليين عليهما الجلاجل وغزل من الصوف، والغريب مستغرق في التعبد والأذكار يطوي البلاد على صليل الجلاجل، وهو يستمتع بحذاء الدليل وغنائه، الذي لا ينقطع حداؤه إلا لحتّ البغل على المسير.

جاز الغريب في مسيره غابات النخيل المشتبك في أراضي أنطاكية، وفي كل حُطوةٍ يخطوها تهيج في فؤاده بلابل الأشواق يكاد قلبه ينخلع وبطير فرحًا هيبَةً مما هو مُقَدِّمٌ عليه!

ثمّ لم ينشب أن أبصر سور "جستينيان"، فأخبره الدليل أنّه قد وصل إلى سور المدينة، حينئذٍ تركه الدليل، واستأنف السّير وحده بجوار السور، وهبط الدّرج الذي ينتهي به إلى سوق "سلوقية"، حينها استرعت انتباهه الكتب المعروضة على الحاجز، وأوشك أن يساوم في سعر أحدها، ثمّ ابتسم وأدخل يده في جيب سرواله الفارغ وعاد إلى مشيته الأولى وغفلته، واعترفته رعشة شديدة عندما سمع صوت بعض القطع الماليّة في أعماق جيبه، فأضاءت وجهه ومضة من الأمل، انتقلت من شفّيته إلى قسّمات وجهه وإلى جيبه، لكن عاد إليه الحزن عندما سحب يده من جيبه ولم يجد سوى ثلاث عملات فضّية، ثمّ طرق سمعه صوت يقول: "آه يا سيدي... الصدقة، الصدقة! أعطني لأشتري خبزًا".

كان هذا الصوت صادرًا من مُسَيِّئٍ مسكينٍ خجول، تبدو عليه سيمااء المرض.

ثمّ تابع العجوز:

- "سيدي أيّ شيء.. أعطني أيّ شيءٍ تريد.. تالله سأصلي من أجلك".  
سكت الشاب الغريب وقد قرأ على وجه هذا الوجه الدّاكن آيات من البؤس

تفوق البؤس الذي يتردى هو فيه!

أخرج من جيبه قطعة من النقود وأعطائها له، ثم نزل إلى ساحة المدينة، الحي هادئ تمامًا على غير المعتاد في هذا الوقت من النهار، لكن استرعى انتباهه دهشة الحضارة في أنطاكية مما لم يره قط في بلاده! فمنازل المدينة ذوات المخطط الضيق قد اكتسبت تلك الروح الهلنستية وامتزجت بالرومانية بما أضيف إليها من نماذج الشرق الآرامي من طواويس إلى أوراق الشجر المجذولة، تعلوها فسيفساء، كما يزيد بها بهاءً مناظر الصيد مرسومة في حليّات زخرفية مستديرة، وتتألف المنازل من طابقين مع طابق أرضي يفصل بينهما سلالم حجرية، والعديد منها كان ذا صهاريج تحت الطابق الأرضي تتجمع فيها مياه الأمطار الساقطة على السطح، وتشيع فيها زخرفة الأرضيات بالفسيفساء الملونة، والجدران مغطاة بزينة من الألوان على الجص.

انطلق الشاب إلى الساحة، فوجد جمهورًا كبيرًا من الناس مجتمعين، يخطب فيهم كاهن المعبد الذي يبدو عليه الواجهة ويلبس "التوجا" الرومانية ذات الرداء الصوفي الملفوف حول الجسم، ويمسك صولجانًا طويلًا يدق به على الأرض ويرفعه إلى السماء، ساخرًا من دين المسيحيين، ومن الإله الذي زعم أنه لا يراه أحد ولا يُجسّد بصورة ولا تمثال، وكانت خطبته زعيقًا وصراخًا، ونظراته أشبه بنظرات صقير يروم البحث عن فريسته... يسير بين الناس صائحًا: - "أيُّ إله هذا الذي يُقارَن بأبوللو وميترا؟ أو كيف تقارنونه بجوبيتير العظيم إله الحرب الذي لا يخشى أحدًا؟ أليس منكم رجلٌ رشيد؟".

أخذ يشير بسبابته إلى الوجوه يمنة ويسرةً يُحرِّك ذراعه بشكلٍ نصف دائريٍّ، متفقدًا وجه الناس، ويقول:

- "إذا كنتُ مخطئًا فلماذا لا تَرُدُّوا عليّ!"

والناس لا تُردُّ رهبةً من الرجل، فالرجل عالي الصوت سليط اللسان، لا يتوقّف عن الكلام، فشعر الناس أن لا أحد يمكنه أن يُوقِّفه عند حده، أو حتى يجاربه في الحوار، فتنفّس الصّعداء والتمعت أسنانه في ضوء الشمس عندما تبسّم كبسمة ذئب كاسر يعيش نشوة النصر.

وهنا ترجّل الشاب الغريب مخترقًا جموع الناس ببطء وروية يزجُّ أكتافهم واحدًا تلو الآخر، إلى أن صعد المنصة وخلع قلنسوته، فإذا به شاب طويل

مليح الطَّلعة هادئ العينين كحيلهما، تعلوه حكمة الشيوخ، مع مهابة في النفوس، ومن دون مقدمات قال في ثقة وقد شبك ذراعيه: - "أخبرني أيها الكاهن، ما دمت تؤمن بالآلهة المصنوعة، أجوبيتير أقوى أم زيوس؟".  
ردّ الكاهن:

- "زيوس؟! زيوس قد ولت أيامه فقد كان إلهاً إغريقيًا، أما جوبيتير فهو الإله الرسمي لدولتنا، لكن ما المغزى من كلامك؟".

قال الشاب كأنه قاض يستجوب مُذنبًا بين يديه:

- "وأيّن ذهب زيوس بعد أن ولت أيامه واعتمدت الدولة إلهاً جديدًا؟".

- "أستشعر السخرية من كلامك!".

لم يوليه الشاب اهتمامًا، وأشار بكلتا ذراعيه موجّهًا خطابه للناس، لتسدل أكمامه:

- "أيها السادة! فليخبرنا الكاهن المُبجل أين كان جوبيتير ونبتون وبلوتو وأبوللو، عندما كان الإغريق في أوج عظمتهم ويمجدون زيوس بدلًا منهم؟ هل يمكن للآلهة الحقيقية أن تتغيّر بتغيّر أهواء الناس وأمزجتهم؟".

تململ الرّجل وهدأت نبرته وخفت صوته، شعر الناس أنّ الكاهن بعدما كان جهوريّ الصّوت أصبح صوته مبحوحًا متلجلجًا... فصاح في محاولة يائسة منه:  
- "أترون؟ أترون أيها الناس ما يفعله المسيحيون لخداعكم؟ يجترئون على الآلهة ليصبح إلههم بديلًا لها، هيهات! صدقوني أيها الناس إنّ الإله الذي لا يرى لا وجود له، أجبني أيها الشاب الشجاع! هل إلهكم يرى كآلهتنا المُبجلة؟! إنّ الذي لا يرى لا وجود له".

تهامس الناس وتبسّم الكاهن وقد شعر بالنّصر وشبّك ذراعيه على صدره، مع ابتسامة ساخرة، ونظر إلى الشاب نظرة تحدّ كأنه يقول: - "كيف سترد؟" كان الشاب يساعد سيدهً عجوزًا لتنهض في أثناء ذلك موليًا وجهه عن الكاهن، ثمّ التفت إلى الكاهن المغرور، وقال له في ثقة: - "أنت تُقرر أنّ الذي لا يرى لا وجود له... حسنًا، هل رأيت عقلك من قبل؟!".

أجاب الرّجل ببلاهة:

- "آآ... بالتأكيد لم أراه".

رفع الشاب يديه يمينه ويسره، وأشرق ابتسامه على مُحياه، مؤذّنًا بانتهاء

المناظرة، وقال في فخر:

- "إدًا يحق لنا أن نقول بألا عقل لك...!".

علا التّهامس شيئًا فشيئًا إلى أن ضحك الجمهور بشدّة، وسط نظراتٍ ناربيّة من الكاهن، ازداد الهرج، والزّحام كان قد تضاعف في الشّارع، والنّاس بدت كما لو أنّها أمواج بحرٍ غاصّ، وقد جُنّ جنون الكاهن وأخذ يصيح: - "أتهزأ بي وبآلهتنا أيّها الودغ؟ كيف تجرؤ؟!".

وصاح ينادي الجنود.

ظهر مجموعة من الجنود يرتدون أوقية من الجلود السّميكة ذوات دروع مصنوعة من النّحاس، مع خوذات رأس لامعة مُزينة بوسطها بمشطٍ من الشّعر الأحمر ليقنادوا الشّباب بعدما كبّلوهم بالأغلال، وساروا به وسط تهليل النّاس له وبشجاعته، عندما كان الجنود يُفسحون الطّرقات يمينًا ويسرّةً.

وفي أثناء تحركهم، قطع عليهم الطريق قائد بهيّ الطّلعة جهوريّ الصّوت يُدعى مارسيللوس، كان في حدود الأربعين من عمره، نظر القائد مارسيللوس إلى الغريب نظرةً فاحصةً، ثمّ قال: - "يبدو من هيئتك أنّك غريب، من أيّ بلدٍ أنت؟".

- "من قورينا سيدي" (2).

ظل مارسيللوس يتبختر بفرسه يمينًا ويسرّةً وهو يتأمّل في تقاطيع وجهه، ثمّ قال:

- "دعوا لي هذا الشّباب".

زادت ضربات قلب الغريب خوفًا، وأحسّ أنّه ضائع!، سار به مارسيللوس مبتعدًا عن الجند.

- "لقد سمعتُ الحوار بينك وبين الكاهن، أخبرني بحق الآلهة أيّ جنون هذا الذي يدفعك إلى هذا التّهور؟ ألا تخشى من ويل العاقبة؟ ألا تخشى من بطش الجند؟!".

- "سيدي، هناك من هو أحق بالخشية من هؤلاء الجند ومن الإمبراطور ومن النّاس كافة، إنّه الله وهو يرعاني أينما كنت".

- "لا أعلم ما هو سرّ تلك العقيدة التي تُزهقون أرواحكم من أجلها أيّها الحمقى! لكنني أشعر أنّ ثمة شيئًا ما يمنعني من أذيتك... ومن حظك السّعيد

أَنَّ اليوم سيأتي موكب الإمبراطور دقلديانوس من نيقوميديا، ونحن مشغولون بالتجهيزات الرسمية؛ لذلك سوف أطلق سراحك...!".

انطلق الشاب فرحًا للتوّ، ناداه مارسيللوس من بعيد: "أيها الغريب!... كُفَّ عَنَّا جرأتك هذه! ولا تضطرنني أن أقبض عليك مرةً أخرى!

مرّت لحظات قبل أن تُدقّ الأبواق عاليًا، وقد ظهر في الآفاق موكب عظيم، تتقدّمه عربة فخمة تجرّها الخيول الملكيّة ذوات السلالات الفريدة، وعُلقَت الأعلام وهتف الجند: - "موكب الأرطوبون<sup>(3)</sup> الأعظم: قسطنطين قسطنطيوس كرّلس!...".

فابتعد النَّاس يمنةً ويسرةً؛ ليفسحوا الطّريق، لحظات ووصلت العربة القيصريّة، تحفها الأحصنة وبخلفها صفان طويلان من الفرسان على عقبها، خرج من العربة شاب طويل، قويّ البنية بعيد ما بين المنكبين يلبس الدّرع الحديدية والخوذة العسكريّة وشعره الكستنائيّ يتدلّى من تحتها، وسط هتاف مُدوّ من الشعب.

هُرِع القائد مارسيللوس إلى العربات متقدّمًا الصّفوف، ليؤدي التّحيّة العسكريّة، ثمّ قال:

- "نمجّد الآلهة على وصولك أنطاكية سيدي".

قال قسطنطين وهو ينظر إلى النَّاس في أبهةٍ وفخر:

- "ثمّة تجهيزات كثيرة لاجتماع صاحب الفخامة دقلديانوس، لعلّه من الأفضل أن نبدأ بالتّجهيزات اليوم".

نظر قسطنطين يمنةً ويسرةً، ثمّ قال:

- "ما الخطب؟ وما هذا الرّحام الذي في الطّريق؟!".

كان هناك شابّ مسيحيّ يناظر كاهن المعبد حول الآلهة، وقد أطلقَتْ سراحه؛ لانشغالنا بتجهيزات استقبال الإمبراطور.

تدخّل يوليوس -الذي كان مُصاحبًا للموكب- مغضبًا:

- "كيف تطلق سراحه من دون عرضه على المحاكمة؟".

- "وما شأنك يا يوليوس! لقد أحسن القائد مارسيللوس وتصرّف بحصافة".

صقّ يوليوس متهمكّمًا، وقال:

- "هذا جيدٌ إذًا... مارسيللوس يُطلق سراح المسيحيين، وفخامتك تدافع

عنه!".

اشتدّ غضب قسطنطين قائلاً:

- "الزم رتبتك أيها القائد... لا وقت لدينا لهذه المهاترات".

رضخ الجندي على مضض لأوامر قسطنطين وهو يوجه نظراته النَّارِيَّة المتفحصة صوب مارسيللوس، ولم تمر لحظات حتّى انطلق الرّكب سريعاً إلى قصر أنطاكية.

\*\*\*

انطلق الغريب، وعلى طول الطريق كانت هناك خانات تُغريه على التوقف والاستراحة، بعض هذه الخانات مكون من طابق واحد، له سقيفة على طول واجهته الأمامية، وبعضها الآخر مكون من طابقين، له شرفة تبرز من واجهة الطابق الثاني، وفي ساحات الخانات كانت هناك مُعرّشات من شجرة الكرمة، ومن شجيرات الزهور المسحوبة فوق العوارض الخشبية المتقاطعة، تُستعمل كقاعات طعامٍ خارجيّة.

توقّف عند إحدى الخانات المُعرّشة وجلس على حصيرة مصنوعة من القشّ وممدودة على الأرض، وكانت المرطبات عبارة عن نبيذ مُحلّى ومخلوط بالماء البارد، أو عصير ليمون أو برتقال ممزوج بالماء الذي يُبرد في قبو تحت الأرض، أو يُسحب من عينٍ باردة.

وكان الشّاب يراقب رؤوس أشجار الرّقعة المظلمة الباردة، التي جلس عليها وهي تتمايل مع الرّيح الذي يهب من قلب وادي نهر العاصي، الذي يرى مياهه الهادئة في جوّ يُشعر المرء بالهدوء والبهجة.

وبينما هو كذلك تفاجأ بمن يضع كفه على كتفه، قائلاً له:

- "مرحبًا بالغريب!"

كانت تلك مفاجأةً بالنسبة للشّاب الذي ظنّ أنّ أحد الوثنيين الموتورين قد تتبعوا خطاه، لكن الآخر سرعان ما طمأنه قائلاً:

- "لا تخف، أنا مسيحيّ مثلك! فأنا "يوسايبوس النيقوميدي" أحد تلامذة الأب

لوسيان هنا في أنطاكية".

تهلّل وجه الغريب، وقال:

- "لقد جئتُ خصيصًا للدراسة عند الأب لوسيان، وقد كنت أدعو الله أن أجد

من يدلّني على الطريق، حمدًا للرّب أن استجاب دعائي".

قال يوسايبوس:

- "قد سمعتُ مناظرتك لكاهن المعبد، لقد نصرتنا يا سيدي، ونصرت

عقيدتنا في هذه المدينة ببلاغتك وقوة حُجّتك... كم أنت بليغ يا سيد "..."

معدرةً لم أعرف اسمك إلى هذه اللحظة!"، قال الغريب:

- "آريوس... اسمي آريوس ابن أمونيوس".

قال يوسايبوس:

- "تشرفتُ بلقائك سيد آريوس، تأكّد أنّ الأب لوسيان سوف يَسعدُ بلقائك جدًّا".

انطلق الشّابان بالجواد نحو المدرسة بعدما عبّرا الشّارع المحاط بالأعمدة الّذي يتقاطع مع هذا الميدان، وهما يتجاذبان أطراف الحديث ووعده يوسايبوس أنّ يُعرّفه ببقية التلاميذ.

اتجها نحو الجزيرة الّتي توجد فيها مدرسة القديس لوسيان، في حين كانت المسافة بين الشّارع الرّئيسيّ والنّهر تبلغ نحو ثلث الميل، وعند وصولهما إلى نهر العاصي، كان عليهما أن يمرّا فوق جسرٍ حجريّ يوصل إلى تلك الجزيرة الّتي هي أحد أحياء المدينة القديمة، يحيط بها سورها الخاص، وتربطها خمسة جسور بالجزء اليابس من المدينة، وبالسّهل الممتد على الجهة الأخرى من نهر العاصي.

\*\*\*

وصل الشبان إلى المدرسة، والتي كانت مثل كنيسة صغيرة تحيطها الخضرة والحشائش والأشجار، وتشدو حولها أصوات الطيور في ترنيمه رائعة تبعث على الهدوء والسلام النفسي.

الكنيسة من الخارج تمتلك واجهات جميلة ورشيقة وأبواب تم بناؤها بالحجر المنحوت، الأعمدة القائمة كانت كأصول أدواح غابة متناسقة الغراس، وكانت الهندسة الرومانية قد زاوجت في ذلك المكان فن البناء الكلداني، وزادها هذا الاقتران حلاوة وضخامة تقتضيان بزيادة التأمل، لم يكن سوى مصابيح معدودات تنير زوايا الدهاليز إلا أن المذبح لم يزل لامعًا بأشعة الشموع، وقد تلاً الجو من الداخل بالضوء الخافت الذي يدخل من كوة فينعكس على صور فسيفساء الحوائط فيزيدها إضاءةً ورونقًا، وبالفتائل المنيرة التي يتراقص لهبها المضيء فتماوج الأنوار، وتُحلق الملائكة في سماء الكنيسة.

روحانية المكان غسلت قلب آريوس بالتور، وأزالت عنه تعب هذه الرحلة الشاقة، وألهبت شوقه إلى سماء الروحانية، وزاد شغفه برؤية القديس لوسيان.. ظل ينظر وهو يدور حول نفسه ببطء في سمو وجور متأملًا المدرسة من الداخل..

قال يوساب:

- "لا تُضِع وقتًا يا صاح في المشاهدة والتأمل! هلم بنا الآن أعرفك على بقية الأصحاب! ثم نادى يوساب بأعلى صوته:  
- "ماريوس... ثيوجينس... أنطونيوس".

سرعان ما نزل الرّملاء الثلاثة من السلم الخشبي المؤدي إلى غرفة التلاميذ متجهين إلى يوسابيوس، ثم أومأ يوسابيوس بيديه إلى كل واحد منهم يُعرفه:

- "أما هذا الذي على اليمين فهو ماريوس الخلقيدوني من خلقيدونية ونناده ماريو... وأما الذي في الوسط ثيوجينس النيقاوي من نيقية ونناده ثيو، وأما ذاك فهو أنطونيوس الطرسوسي...".

فقاطعه آريوس قائلاً:

- "هو من طرسوس، وتنادونه بأنطونيو...!".

ضحك الرفاق بشدة...

قال أنطونيوس:

- "لكن ما عرّفتنا بعدُ بالغريب!"

قال يوساب:

- "هذا الشاب هو البليغ المحثك، المناظر المغوار الذي وقف أمام رئيس

الكهنة اليوم ولم يهب الموت".

- "إِنَّه آريوس بن أمونيوس!"

حكى لهم يوسابيوس ما وقع من مناظرة آريوس مع رئيس الكهنة، كانت تتوزع الابتسامات على وجوههم ناظرين باهتمام نحو آريوس متعجبين من شجاعته وبلاغته، ثم اصطحبوه إلى غرف الطلاب بالطابق الأعلى وهم يتجاذبون أطراف الحديث.

وبعد الغروب انشغل أنطونيوس في إعداد خليط البابونج مع أوراق أخرى ذات رائحة عطرية، وأخذ يطحن مسحوقًا بنيًا مائلًا للخضرة، كتلة من عجين ثم وضع قليلًا من الماء، وأخذ يُقلّبها وهو يغليها مع الماء الساخن حتى أصبح الخليط جيدًا، فحمل الكوب وتوجّه إلى آريوس قائلاً:

- "هذا مشروبنا المفضل يا سيد آريوس، ولا نجد أفضل منه نقدمه إلى

ضيفنا الجديد".

ثم دخل عليهم ثيوجينس بطاولة كبيرة، عليها قطع من الجبن، وبيض مشوي، وخبز معجون بالسكر، وإبريق من اللبن، وبعض الفاكهة، ليتبسم آريوس على استحياء بعدما أنزل على ثيوجينس وأنطونيوس وابلًا من كلمات الشكر، ثم تنهد قائلاً:

- كم كنت أتمنى ضحبة كهذه منذ زمن بعيد! حقًا إنكم كالملائكة.

ثم قال في شجون:

- هذه المدرسة كالدرّة المضيئة وسط ظلمات العتمة، والفضيلة بين ركام

الآثام في أنطاكية الوثنية.. إيه يا أنطاكية، منذ أن نزلت إليكم والآلهة منصوبة

في كل مكان!

قال يوسابيوس:

- "عادة ما تكثر الروايات الأسطورية فيما يتعلق بالآلهة، فالتناس دائمًا يا

آريوس بحاجة إلى دعاية دينية، ولذلك يضعون أنفسهم تحت رعاية الآلهة:  
جوبيتير، أبوللو، مريخ، ميتر؛ ليحموهم من الطبيعة... يحموهم من كوارث  
الحرائق والزلازل وانهيار المنازل! ومع كل هذا فمدينة أنطاكية هي المدينة  
الثالثة الأروع جمالاً بعد روما والإسكندرية، يفد إلينا زائرون من شتى البقاع  
المسكونة لحضور الألعاب الأولمبية التي تُعقد في هذه المدينة كل أربع  
سنوات، مباريات رياضية، سباق خيل، موسيقى، خطب، ومناظرات فلسفية...  
صخب كثير دونما إيمان بالإله الواحد... إنَّ مُعزِّينا ومؤنسنا الوحيد في هذه  
المدينة هو السيد المُبجَّل لوسيان الأنطاكي!  
ظلَّ التلاميذ يتسامرون وهم يشربون مشروب التَّنع الجبلي المنقوع، إلى  
أنَّ انكفأ الواحد تلو الآخر على سريريه وغطَّوا في نوم عميق.

\*\*\*

لوسيان الأنطاكي (لوكيانوس) كان كلُّ شيء جاهزًا في الصباح الباكر، وقد كان يوسابيوس قد غلبه النوم بجوار آريوس، إلا أنَّ آريوس استيقظ بسهولة أسرع منه، ونهض لينظر من النافذة ويتلقَّى التَّسليم العليل.

كان الجوُّ باردًا جدًّا في صباحات تلك الأيام من شهر أيلول، يخبو لون السماء الشَّرقية ويتحوَّل من الأسود إلى الكوبالتي ببطء، وبنعكس العشب حول الكنيسة بلون فضيٍّ من التُّدى.

بدأ بنزول السلم الخشبيِّ... إلا أنَّه رأى من الأعلى رجلًا كبيرًا ذا لحية بيضاء جالسًا على الأريكة في البهو السُّفلي، تتوزع بجواره اللفائف الورقيَّة وأمامه القلم والمحبرة، حدَّثته نفسه أنَّه هو الأب لوسيان، فتردَّد في النزول؛ فهو ما زال لا يعرفه، هل ينزل وحده أم ينتظر استيقاظ يوسابيوس! داهمته الأفكار لثوانٍ معدودة، ثمَّ أخيرًا اتخذ قرارًا حاسمًا بالنزول.

تقدَّم إلى الأب لوسيان وقبَّل يديه، وفاضت ملامح وجهه بالزَّهبة والوجل وهو ينظر إلى وجه المعلم لوسيان الأنطاكي، فتجاعيد وجهه الغائرة كأنَّها نُحتت منذ زمنٍ بعيدٍ مخبرةً إياه بطول عمره في العلم الكنسي واللاهوتي؛ لتضفي عليه نوعًا من الرُّوحانيَّة والمهابة والوقار، وقد كان آريوس يتمنَّى رؤيته منذ زمن؛ إذ قد ذاع سيط الأب لوسيان في الأمصار، وعُرف بأنَّه أعلم النَّاس بمخطوطات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد؛ لما له من جهود في هذا المضمار.

انعقد لسان آريوس حينما رأى المعلم، قابله لوسيان بابتسامة دافئة، وقد علم بفراسته أنَّه أحد التلاميذ المهاجرين إلى أنطاكية، فدعاه للجلوس بجواره بعد أن غمره بوابل من عبارات التَّرحيب كأنَّما والد يستقبل ولده بعد سفرٍ قد دام طويلًا، أخبره آريوس أنَّه أتى من بلدة قورينا بليبيا مسافرًا لطلب العلم اللاهوتي والإنجيلي، وأنَّه عزم أيضًا على السُّفر إلى قيساريَّة في فلسطين.

ما كان من لوسيان إلا أخبره بأنَّه أحسن الاختيار، فبلاد الشَّام وفلسطين هما منبع الإيمان القويم الذي لم تشبهُه شائبة الهرطقات الأمميَّة.

كان لوسيان ذا صوت رخيم دافئ من النوع الذي لا تملُّ الأذان من سماعه، كأنَّما صوت حكيمٍ أتى من غابر الأزمان، كان آريوس يشعر بنشوة كلما تكلم، وودَّ لو أنَّه لم يسكت قط، عيناه البراقتان كأنَّهما تقولان لآريوس: أريد أن أصنع منك رجلًا عظيمًا، فلتكن على قدر المسؤوليَّة!

لم تكن هذه طريقة الأب لوسيان مع آريوس فحسب، بل كان يعامل كل طالب لديه بالروحانية نفسها.

سأل آريوس في خجل عن هذه المخطوطات التي ينسخها، فأجاب الأب لوسيان وقد لاحظ عليه ابتسامة خفيفة: - "لقد عهدتُ على نفسي يا بني بمراجعة الكتاب المقدس بعهديه حتى تتطابق ترجماته المختلفة، قمم بمراجعة التوراة إما بمقارنتها بالنسخ القديمة أو عن طريق النسخة العبرية؛ لكونها اللغة التي كُتبت بها الكتاب المقدس، ثم أبدي ملاحظاتي على الترجمة السبعينية".

كان ينصت آريوس إلى كلامه العلمي باهتمام، وهو يشعر أن كل كلمة من كلمات الأب لوسيان يجب أن تُنقش بالذهب، فانتابه الخوف من أن ينسى هذا الكلام الممتلئ بالدرر، فهو حريص على ألا تضع منه معلومة واحدة، فأدخل يده في جيب عباءته ليُخرج رِقًا ورقياً كان يحتفظ به، واستأذن الأب لوسيان أن يكتب كل ما يقوله.

ظل يدق على رأس المحبرة ليخرج القلم ممزوجًا بالحبر بين الفينة والأخرى، حتى انتهى آريوس من ملء الرق، وقد كان يكتب بطريقة الأعمدة والخطوط المائلة ويجوب الفراغات ليستغل كل مكان في الرق... سويغات قليلة وقد بدا الرق من بعيد كرسمة فنية فريدة!

نظر لوسيان إلى الرق المملوء من إملائه فابتسم بدفء مجددًا، ثم قال: - "أرى في عينيك شبق المعرفة يا بني".

أجاب آريوس في حماسته: - "أريد أن أعرف كل شيء من خبايا العلم ومكنوناته سيدي".

صمت الأب لوسيان في عمق شديد، وظل يحملق في وجه آريوس وقد قال في صوت خفيض كأنه لا يريد أن يسمعه: - "صدقني لو عرفت كل شيء قد تعيش مرتاح البال، لكن لن تعيش سعيدًا أبدًا!".

تعجب آريوس من هذه الكلمة الصادمة، ولم يحاول سؤاله عن سر هذه الكلمة؛ لأنه أحسن أنها مما يُدرَك بالأيام والتجارب وليس بمجرد السؤال.

خرج آريوس وقد ظل يتردد على مسامعه مقولة معلمه لوسيان: "صدقني لو عرفت كل شيء قد تعيش مرتاح البال، لكن لن تعيش سعيدًا أبدًا".. لم

يفهم ماذا يقصد؟ وإلى ماذا يرمي؟ وكيف تكون المعرفة سببًا في راحة البال  
وليست سببًا في السعادة في آنٍ واحد، تساؤلات دارثُ في عقل آريوس ولم  
يجد إجابة.

\*\*\*

في صبيحة اليوم التالي كان نوم آريوس الطويل من العمق بعد أن سهر يفكر في كلام الأب لوسيان! لدرجة أن رفاقه اضطروا إلى إيقاظه بضربه بالوسائد، ثم حضروا جميعًا في الوقت المحدد لإقامة القداس المبكر، وتناول الحساء الصباحي.

وقرابة الظهر، وفي خلال درس "اللغة اليونانية" الذي يُلقيه القديس لوسيان، سمعوا خطوات تُحدث خششة على الحشائش الخضرة، شهد يوسايبوس من بعيد مجيء رجل يربط جواده في إحدى الأشجار، كان الرجل يلبس زيًا عسكريًا وعليه الدرع النحاسية متأبطًا خوذته التي يتوسطها مشط من شعره الملون بالأحمر، فزع التلاميذ للتو، لكن طمأنهم الأب لوسيان أن الرجل يريد خيرًا، فظنوا أن الأب لوسيان يعرفه من قبل، لكن الأب لوسيان بفراسته المعهودة أخبرهم أن الجندي متأبط خوذته، ولو أنه يريد شرًا لارتدى زيّه بشكل رسمي!

ومع مجيء الجندي ومع ابتسامه يشوبها الخجل، كان قد هدأ روعهم قليلًا، إلا أن آريوس قد عرفه مع اقترابه شيئًا فشيئًا، قائلاً:

- إنه القائد مارسيللوس الذي أطلق سراحى ليلة البارحة.

قال مارسيللوس في نعمة عسكرية:

- "من الجندي التحيّة والسلام للسيد لوسيان".

أدار وجهه إلى آريوس مبتسمًا، وقال:

- "كنت متأكدًا أنك أحد الطلبة هاهنا!".

ثم توجه إلى لوسيان وقال:

- "إنّ تلميذك هذا أعاد إلى نفسي الإيمان بوجود الخالق؛ ولذلك أتيتك أيّها

الأب لأسألك بعض ما يخالجنى ويؤرّقني!

وحكى مارسيللوس ما حصل من آريوس مع الكاهن الوثني، فازداد إعجاب

الأب لوسيان بآريوس وقربه بجواره.

ابتدر مارسيللوس بما يختلج من صدره، وقال:

- "في الحقيقة إنّ لديّ تساؤلات كثيرة حولكم معشر المسيحيين، هذه

الأسئلة تكاد تعصف بعقلي، ما عدتُ أعرف أين الحقيقة! سيد لوسيان! لماذا

نسمع عنكم ما يرّده الناس، أنكم تذبحون الأطفال وتشربون من دمائهم؟".  
- "هل رأيت هذا بعينك؟".

- "لا، ولكنني أثق فيمن أخبرني بهذا".

تبسم الأب لوسيان، وقال:

- "يا سيد مارسيللوس إذا كان الإنجيل يوصينا بأنّ من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، وأوصانا بمحبة الجميع حتى أعدائنا إذ يقول لنا: "أحبوا أعداءكم باركوا لاعينكم..."<sup>(4)</sup>، فكيف تُصدّق مثل هذه الأمور الشنيعة؟! إنهم يُشنعون علينا لأننا لا نعبد آلهتهم.. يريدوننا أن نعبد من؟ نعبد الأباطرة ونسجد لهم؟ نيرون الذي أحرق روما وآلهم المسيحيين بحرقها، وجعل من أجسادهم مشاعل تنير ظلمة روما؟ إنّه لم يصل إلى درجة الإنسان السوي، فكيف نؤله مثل هذا؟ وكيف يقبل الوثنيون تأليهه؟!

إنهم يقدّمون أطفالهم ذبائح بشرية على مذابح الآلهة الوثنية؛ لاسترضائها من أجل الأمطار والرّوع والثّمار والحصاد والأمن والتّصرة على الأعداء، ويصحب الجيش الروماني الكهنة في الحروب يستخرون الآلهة ويضربون الطّالع، وفي قاعة مجلس الشيوخ الروماني هناك مذبح يقدمون عليه التّقدمات والسكائب، معتقدين أنّ الآلهة تحضر معهم اجتماعاتهم، وقبل أن يجلس القضاة على منصاتهم يلتمسون الحكمة من آلهتهم التي لا تسمع ولا تبصر.

لقد حرموا المسيحيين حتى من الدّهاب إلى الحمّات العامّة، وحرموهم من أمور كثيرة أهمّها حقّهم في العبادة، وعندما التجأوا إلى السّرايب والكهوف والمقابر والأماكن المعزولة والبيوت ليتعبّدوا لآلهتهم، اتهموهم بأنهم جماعات سرّية غامضة يمارسون نشاطاً سرّياً ضدّ الدّولة، وأنهم يمارسون السّحر والشّعوذة مما يثير غضب آلهتهم فترسل الأوبئة والعواصف والفيضانات".

"وماذا عن السّحر والشّعوذة التي تشاع عنكم؟".

تبسم الأب لوسيان في هدوء، ثمّ قال:

- "يا سيد مارسيللوس أمامك الكنيسة، فتشّ فيها عن أدوات السّحر كما تشاء فليس ثمة شيء نخفيه، وأمامك أيضاً معابد الرّوم وأنت أعلم بما فيها!".

نظر مارسيللوس وقد طأطأ رأسه إلى الأرض خجلاً؛ لأنه يعلم ماذا يصنع كهنة المعابد من أنواع السحر.

- "صدّقني إنهم شوّهوا صورتنا لأننا نرفض الحلف بألهتهم، ولا نشاركهم احتفالاتهم الوثنية... إنّ حياة الطّهارة التي نعيشها تُدين حياة الدّنس التي يعيشونها... هذه الآلهة التي تعبدونها لا تسمع ولا تبصر فكيف تعبدها يا سيد مارسيللوس؟".

اتسعت عينا مارسيللوس ولم يقوَ على الرّد، وقال وهو غارق في أفكاره:  
- "إنّني... إنّني في الحقيقة لسْتُ أعتقد في هذه الآلهة سيدي لوسيان، ولا أظنّ أنّ أحدًا من زملائي يعتقد فيهم نفعاً أو ضرراً، نعم قد نقوم بتحيّة الآلهة كنوع من تقاليد نشأنا عليها، لكن إنّ شئت الحقيقة؛ فأنا أشعر بأنّ هناك إلهًا واحدًا هو الذي خلق السّماء والأرض، لكن -على الرّغم من ذلك- أشعر أيضًا بأنّ جميع الدّيانات هي مجرد أساطير أنشأها الإنسان خوفًا من الطّبيعة وخوفًا من المستقبل المجهول... إنّني... إنّني أشعر أنّني تائه! ضائع! حضرتُ للملاحة، وكهنة الرّوم والمسيحيّين واليهود والرّادشتيّين... ولم أجد عند أحدهم إجابة شافيةً لأسئلتني!".

- "يا سيد مارسيللوس ابحث عن الله بداخلك! لا تدع أحدًا يملي عليك أفكاره، فالله قد خلقك حرّاً ووهبك العقل الذي فيه طاقات كامنة تستطيع به أن تُميّز بين الحقّ والباطل، فإياك إياك أن تكون أسير غيرك، يُحرّكك كما يشاء، ولو كان راهبًا مسيحيًّا أو حبرًا يهوديًّا أو كاهنًا وثنيًّا... بل استمع ثمّ استمع ثمّ استمع وما وجدته موافقًا لعقلك وقلبك، وما جُبلت عليه فطرتك فاتبعه ولا تُبال".

"هذا فعلاً ما أرمي إليه يا سيدي، وهو ما جنّث من أجله، ومن أجله أبحث!".  
تلعنّم مارسيللوس ثمّ أكمل:

- "في الحقيقة أنا في حيرةٍ من أمري، كيف يمكنني أن أصدّق ما يُقال وما يدّعون... لديّ تساؤلاتٍ كثيرة تؤرّقني".

ترك لوسيان هنيهةً ثمّ قال:

- "يا بني! إنّني رجل كبير السنّ، ذو لحية بيضاء كما ترى، وطيلة حياتي تلك قد عملتُ على ترجمة مخطوطات الأناجيل، صدّقني يا سيد مارسيللوس لم

أر المسيح قد وصف نفسه بأيّ ادعاء، لكنّي وجدته يقول، كما في يوحنا:  
"تطلبون أن تقتلونني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحقّ الذي سمعته من الله"،...  
وقال: "أنتم تدعونني معلّمًا وسيّدًا، وحسنًا تقولون، لأنّي أنا كذلك حقًا"...  
ووجدنا التلاميذ يصفون المسيح بقولهم، كما عند لوقا: "يسوع الناصري الذي  
كان إنسانًا نبياّ مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله والشعب جميعه".  
ارتسمت على وجه مارسيلوس ابتسامة وقال في نعمةٍ عسكريّةٍ قد ملأها  
النشاط:

- "أشكرك يا سيد لوسيان على إجابتك تلك... لقد بددت كثيرًا ممّا كان  
يجول في خاطري عنكم... بقي أمرٌ أخير إذا أحببتي عنه، فأنا جاهز أن أعمد  
على ديانتك! ألا ترى أنّكم تُصفون نوعًا من الألوهيّة على يسوع المسيح؟".  
ارتسمت الجديّة على وجه الأب لوسيان، ثمّ قال:

- "يا بُنيّ إنّ مصطلح "ابن الله" في اللغات السّامية قد تُستخدم لقرب  
المنزلة والدرجة، وليس لبُتُوّة الولادة بالضرورة، وذلك لأنّ الرّب هو الذي  
يرزق الخلائق ويرعاهم فهو بمنزلة الأب لهم، وكلما كان العبد قريبًا منه  
تأكّدت في حقه درجة البُتُوّة، ويسوع المسيح في أعلى درجات تلك البُتُوّة،  
ففي إنجيل يوحنا قال لمريم المجدليّة:

- "إنيّ أصدع إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم"، فلم ينفِ مولانا المسيح ألوهية  
الله عليه! وأمثال هذا كثير سيد مارسيلوس.

إنّ إبراهيم خليل الله، قد رفعه إلى درجة الخُلة، وعلى الرّغم من هذا فلا  
يمكننا تطبيق مبدأ أنّ الأخلَاء أقران متساوون، أو أنّ الخُلة تقتضي مساواة  
الجنس؛ لأنّها قد تكون كذلك إذا ما قيلت في حقّ البشر، لكن الأمر يختلف  
كليًّا إذا ما قيلت في حقّ الله، فالنبيّ إبراهيم خليل الله بالمناجاة والمحبة  
التي تكون بين الأخلَاء، فهو خليله من هذا الوجه، ولكنه يبقى عبدًا مخلوقًا  
وليس مساويًا له، وكذلك البُتُوّة في حقّ مولانا يسوع المسيح".

لم يستطع مارسيلوس أن يُخفي إعجابه بالأب لوسيان الحكيم الذي بدد  
كثيرًا من شبهاته، بعدها نال العماد في ذلك اليوم!

\*\*\*

صاحب الفخامة دقلديانوس (ديوكليتيانوس)

كان القصر آيةً من الرّوعة والجلال، يرتفع الدّور الأرضي عن الشّارع عدّة درجات، والأبواب صنعت من الأخشاب المستوردة تُزينها النّقوش، والأرضيّة افترشت بتربيعات الرّخام، الجدران اكتست بالرّخام المزخرف ذي الألوان البديعة، وفي أركان القصر تجد التّمائيل النّاطقة تنظر إلى ناظرها، والسُّرُج الفضيّة والنحاسيّة تتخذ أشكال الطّيور والحيات، وصور الفسيفساء تُغطّي مساحات ليست بقليلة من صالات الاستقبال، والحيوانات والطّيور والنباتات المُطرّزة تتوزع في الأركان.

مرّ الوقت ببطء حتّى دخل إلى القاعة، ودوّى صوت البوق مؤذّنًا بدخول الإمبراطور، لحظات وصاح الجندي المائل في آخر الرّدهة بصوتٍ جهوريّ:  
- "صاحب الفخامة دقلديانوس!"

دلف بعده الإمبراطور مرتديًا عباءةً زرقاء طُرزت بخيوطٍ ذهبية، مرتديًا عصابةً مُرّصعةً بالذهب تُطوّق رأسه، صعد الدّرج الرّخاميّ متكّنًا على صولجانه الكبير، ومن خلفه زوج ابنته القيصر جلاوريوس، وهو رجل متوسط القامة ووجهه مُشرب بالحُمرة، كانت عيناه الواسعتان تمتلئان بالرّهو كأثهما عينا صقر تدوران في وجوه الحضور.

تبعه القائد الأرطبون قسطنطين واثق الخطى بهيّ الطلعة ليقف أسفل المنصة، رجل طويل القامة عريض المنكبين، صارم النّظرات، يلبس الدّرع النّحاسية، ومتأبطًا خوذته اللّامعة بيده اليسرى.

لحظات وحضر رجال الدّولة مثل سيفروس (ساويرس)، وهيروكلس حاكم مدينة بثنية بنيقوميديا، والفيلسوف لاكتانتوس، كما حضر كبراء كهنة المعابد. ثمّ ركع كلّ هؤلاء أمام دقلديانوس، وجعلوا يُقبّلون أطراف ثوبه، واحدًا واحدًا.

توقفت الهمهمات مع إغلاق الباب الصّخم من قبل الجنديين المائلين أمام الباب، مع عبسة تجمّم من دقلديانوس تصاحبها أختها من جلاوريوس، فساد القاعة سكون الموتى، لحظاتٍ مرّت، قبل أن يكسر جلاوريوس الجمود الجاثم على القاعة، حيث نهض ووضع ذراعه اليمنى على بطنه، وانحنى للإمبراطور دقلديانوس، قائلاً:

- "تفصّل سيدي الإمبراطور".

نظر الإمبراطور إلى الحضور بنظرة متفحصة، ثمّ اعتدل قائمًا، سار بخطواتٍ بطيئة وهو يقول:

- "سعيدٌ أن أرى رفقائي وأصدقائي الأمراء والمستشارين مجتمعين هاهنا، فخوّر بوجودكم جميعًا في نيقوميديا، لقد استطاعت الإمبراطورية العظمى هزيمة القبائل الجرمانية المتمردة في حوض نهر الدانوب، كما استطاعت بعد مناوشاتٍ مع الساسانيين (الفرس) أن تُنتهي وجودهم في الأنحاء، ليرجعوا خاسئين إلى بلادهم بعد إجبارهم على عقد اتفاق سلام، كلٌّ هذا بفضل الصديق وزوج ابنتي قيصر الشرق جلابيوس، والمقاتل الشرس أرتيبون الروم الشامخ قسطنطين.

أيها السادة لقد استطعنا أن نحلّ كلّ الأخطار الخارجية، ونحن اليوم نلّمُ شتات جهودنا لمواجهة الخطر الداخلي، ذاك الخطر الذي يهدد الإمبراطورية بالانقسام، لقد اجتمعنا هنا من أجل مناقشة وضع الديانات المخالفة للإمبراطورية، تلك الديانات التي تُقيم حربًا باردة وتنخر في أمن واستقرار إمبراطوريتنا العظمى..

بعد كلّ فينة وأخرى نجد مسيحيًا متهوّرًا يخرج علينا ليقول إنّنا مجرد وثنيين، وإيّه لا يُشرفه العمل تحت سلطتنا الوثنية.

وددنا أنّ لو كان المسيحيون اعتبروا بما حصل لليهود، لقد جرب اليهود العنف في عهودٍ سابقة ولم يخسروا إلا أرواحهم".

مشى دقلديانوس حُطوات ثمّ قال:

- "يبدو أنّ الإنسان لا يتعلّم إلا إذا جرّب بنفسه!".

قال هيروكلس حاكم مدينة بثينية:

- "والأكثر حماقةً منهم هم المسيحيون، لا أدري ماذا شاهدوا من إلههم كي يفصّلوه على آلهة الروم العظيمة ويضحّوا بأنفسهم من أجله؟ فالإله الذي لا يعرف الإنسان شكله ولا يعلم أهو ذكر أم أنثى ولا يُصنع تمثالًا له، كيف يمكن عبادته؟!".

قال لاكتانتوس<sup>(5)</sup> في هيبية ووقار:

- "السؤال الحريّ بالإجابة عنه يا سيد هيروكلس، كيف تصنع إلهًا حجريًا ثمّ

تقوم بعبادته؟".

برقتُ عينا هيروكلس ولم يجد ما يُجيب به، ظلَّ يلوذ بالصّمت وعقله يعمل وسط ضجةٍ من أفكارٍ متداخلة ليتخلّص من ورطته، فتوجّه إلى الإمبراطور وقال:

- "انظر سيدي الإمبراطور كيف يهين الآلهة بكلّ جراءة في حضرتك وفي حضرة الآلهة؟!"

زادتْ همهمات الحضور، وبدا شيء من الاضطراب.

قال دقلديانوس:

- "اهدأوا أيها السادة... اهدأ يا حاكم بثينة، ثمّ قال بنبرة يعلوها التّهكّم:

- "مستشارنا العزيز لاکتانتیوس وإن كان مسیحياً فهو رجل مستنير، وفيلسوف وشاعر، وهو من أجلة علماء الشمال الإفريقيّ الذين اخترتهم بعناية لكي يُدرّسوا لأبنائنا أمور اللّغة والبلاغة والفلسفة أيضاً... فأنا رجل أقدر كلّ عالمٍ يضيف للإمبراطوريّة شيئاً حسناً".

لوّح جلاريوس بكلتا يديه وقال:

- "هذا من جميل إنصافك سيدي الإمبراطور مع هؤلاء"، ثمّ أطلق نظراتٍ نارية نحو لاکتانتیوس، قائلاً:

- "لكنّ البعض يقابل الإحسان بالإساءة!".

قام دقلديانوس ممسكاً بالصّولجان ونزل من الدّرج قائلاً:

- "يا سيد لاکتانتیوس وظيفتك هنا أن تكون شاعراً وفيلسوفاً ومُدّرّساً بالبلاط الملكيّ وحسب! ولا تتعدّد حدود ذلك. على كلّ حال، فليصرف الجميع، ولينتظر السيد جلاريوس والسيد قسطنطين فأنا أريدهما في أمرٍ مهم".

انصرف الجميع ولم يبقَ إلا يوليوس وجلاريوس، وظلّ قسطنطين منتظراً تنتابه الهواجس ومترقّباً الأمر الذي يريده من أجله الإمبراطور.

\*\*\*

توجّه الإمبراطور بخطواتٍ بطيئةٍ إلى قسطنطين، وقال:

- "أنت تعلم أيها القائد أنّ ثقتي بك كبيرة، لكن قد بلغني عنك أنت ومارسيللوس أنّكما قد عفوتما عن شابٍ مسيحيّ يثير القلاقل في مدينة أنطاكية".

أدرك قسطنطين في ثوانٍ معدودة أنّ يوليوس هو مصدر الوشاية،  
فالتمعتُ عيناه، ورفع كتفيه ومطَّ شفتيه ببرود، ثمَّ أجاب بعدم اكتراث:  
- "الأمر ليس بهذه الصُّورة يا صاحب الفخامة، ويبدو أنّ أحدهم أرسل إليك  
معلوماتٍ مضلَّة!".

قاطعهُ دقلديانوس:

- "إنَّ أمر مارسيللوس لا يهمني في شيء، فهو مجرّد قائد صغير، لكن  
المسؤول أمامي هو أنت أيها الأرطوبون!".  
ثمَّ أشار دقلديانوس إلى قسطنطين موجِّهاً سبَّابته إليه، وقال بقوة:  
- "أنت متعاطفٌ إذًا مع المسيحيين!".  
"هذا غير صحيح!".

- "لولا أنّك ابن قيصر الغرب لكان لي معك تصرفٌ آخر... اغرب عن وجهي  
السَّاعة!".

أفلتتِ ابتسامة استنكارٍ من بين شفتي جلاوريوس وأخرى مماثلةٍ من  
يوليوس، لم يستطع يوليوس إكمال ابتسامته، فقد بترتها نظرة حادةٍ من  
قسطنطين والغضب يتطاير من عينيه، ممَّا جعل يوليوس تتملَّكه الرُّهبة  
والخوف، فطأطأ رأسه إلى الأرض.

مضى قسطنطين بحركة سريعة وهو يرتدي خوذته، ورداؤه الخلفيُّ الأحمر  
يترنَّح من ورائه، وما لبث أن فتح له الجنديان الماثلان على الباب رمحيهما  
لكي يخرج من باحة القصر...

اقترب جلاوريوس من دقلديانوس، وقال:

- "لعل سيدي الإمبراطور يفكر في أمرٍ ما...".

وضع دقلديانوس يده على ذقنه يحكُّها وسكت هنيهةً، ثمَّ قال:

- "لا أدري، ولكن موقف هذا القائد من المسيحيين عليه علامات استفهامٍ  
كثيرة".

- "لقد كانت فِراسة منك سيدي حينما جعلت قسطنطين في نيقوميديا

تحت إمرتك كرهينة تضمن بها عدم خيانة أبيه قسطنطيوس...".

عاد جلاوريوس ليقول في عجالة:

- "ما رأيك سيدي في أن تتخلص منه؟".

- "جلاريوس! أجننت! أنسيت أن أباه هو قسطنطيوس قيصر بريطانيا وإسبانيا وبلاد الغال... إنها نصف جيوش الإمبراطورية تقريبًا، كما أنه رجلٌ محبوب بين جيوشه بل هم مغرمون به، وبيدنون له بالولاء التام! تنهّد دقلديانوس ثمّ قال:

- ما زلتُ أذكر انتصاره على ثورات بلاد الغال، وكيف كان جيشه العرمرم بعد الانتصار يحملونه فوق أعناقهم... وإنّ قتلنا هذا الشاب قد يعلن أبوه العصيان وتنشقّ الإمبراطوريّة ولا طاقةً لنا أبدًا بهذه الجيوش... لا شكّ أنّ التّخلص من ابنه تهوّر ومجازفة.

\*\*\*

عزم لاکتانتیوس علی الرّحیل من نیقومیدیا إلی بلاده فی شمال إفريقيا، وآثر أن یتّرك النّعیم الّذی كان یعیش فیهِ إلی بلادٍ بعیدة مُقفرة... وأن یتّرك بلاد الحضارة إلی بلاد البداوة... بلاد الفلاحین والحطّابین الّذین قد لا یملكون المال الوفیر، غیر أنّهم یملكون قلوبًا نقیةً، ووجوهًا حنیطیة تشعّ نورًا... لا ووجوهًا خشبیة كوجوه الأباطرة والقیاصرة، لقد حسم أمره وجّهز أمتعته للسّفیر القریب العاجل بعد أن أصدر الإمبراطور قرارًا برحیل جمیع الرّعايا المسیحیین، عرف لاکتانتیوس أنّ علیهِ الرّحیل بهدوء غیر آبه بما یتردّد علی ألسنة النّاس بأنّ الإمبراطور قد استثناه من جملة المسیحیین، لقد كان عزیز النّفس أبیها ویقرأ ما بین السُّطور، ولما علم قسطنطین بعزمه علی الرّحیل، فقرر أن یواسیه، وأن یشارکه همومه ومآسیه لیُفضی له بمکونات صدره ویعرف دواعیه.

وقد تمّ اللّقاء فی دعوةٍ خاصةٍ من قسطنطین فی یوم عطلتهما، وتربعت علی وجهیها قسمتات الارتیاح، وجلسا علی طاولةٍ طویلة بیضاء، كقطعةٍ من الثلج، تعلوها أدوات الطّعام موزعةٍ توزیعًا فنیًا ومتوّجةٍ بقطع الخبز الوردیة، والطّعام الموضوع تحت قبابٍ من الفضةٍ وكانت الأواني البلوریة المرصّعة بالیاقوت تعكس أنوارًا شبیهةً بقوس قزح، والشّموع ترسم نیرانًا متشابكةً فی اللانهایة.

قال لاکتانتیوس:

- "لا أستطیع أن أمنع نفسي من الإعجاب بهذا المنظر الرّائع، فلیخبرني القائد الأعظم ما سر هذا العشاء الّذی یبعث علی البهجة؟".

قال قسطنطین مازحًا:

- "علمتُ أنّك عزمّت أمرک للرّحیل من نیقومیدیا، فأردت أن أردّك عن قرارک هذا بمثل هذه الإغراءات!".

ضحك لاکتانتیوس، وقال مُتسمًا:

- "ونعم الرّشوة!".

ثمّ سرعان ما أضاف فی جد:

- "إنّني سیّد فی قومي ببلاد المغرب بإفريقيّة، وأظنّ أنّ رحيلي من

نيقوميديا إلى قومي هو أحفظُ لماء وجهي، ولولا أنّ الإمبراطور كان قد طلبني للتعليم ها هنا لما جئت، لكنني تعرفتُ على الكثير ممّن لن أنساهم أبدًا، وأنت واحد منهم سيد قسطنطين".

- "ولكن الإمبراطور لم يأمرُك أن ترحل، فقد استثناك عن بقية المسيحيين!".

- "يا سيد قسطنطين، إنّ الإمبراطور لم يستثن أحدًا، إنّهُ استحيا فقط أن يطردني بشكلٍ صريح، واكتفى بالإيماء من دون التصريح".

- "ولكن القانون يسمح لك بالبقاء!".

- "علّمتني الفلسفة أن أفعل من دون أوامر ما يفعله الآخرون خوفًا من القانون".

- "ولماذا كلُّ هذا؟! فلتترك المسيحية يا رجل! ولتبق معنا هاهنا، فبحسب معرفتي الضئيلة، فالدين ما هو إلا فلسفة لحياة الأفراد والتصورات الميتافيزيقية أيضًا، والفلسفة هي أم العلوم، وتكفي الإنسان عن أيّ أديان أو تصوراتٍ أخرى".

سكت لاكتانتوس هنيهةً، ثمّ أجاب:

- "أعتقد أنّ كلَّ رجلٍ مفكرٍ ينبغي أن يمشي تحت لواء المسيح؛ لأنّ المسيح وحده مجّد انتصار الرّوح على المادة، وكشف لنا بصورةٍ شعريّة عن العالم المتوسّط الذي فصلنا عن الله".

أجابه قسطنطين وهو يتنسم ابتسامةً سكرٍ غامضة:

- "تظن؟ أقترح لكيلا تتورّط، أن نشرب نخب هذا الإله المجهول!".

قال لاكتانتوس:

- "أرجو أن تفهم موقفي؟!".

تبسّم قسطنطين، وقال:

- "لقد تعلمتُ من دروسك الكثير سيد لاكتانتوس، ولا أرغب في أن أكون من النوع الغبيّ الذي حين يصادفني رجل فيلسوف، ذو قدرٍ عالٍ ومقدرة حقيقية أجدني غير قادر على فهمه! وأجدني أضحيتُ عدوًا له في قلبي من دون أن أشعر، وغير قادر على تعزيز أهدافه.

وأقول لك ما يلي: قد يؤول بنا الحال أنت وأنا إلى هذا المآل أو ذاك، وقد

يقابلنا حسن الحظّ وقد نلتقي من جديد، ومن يدري؟! إلا أنّك لن تفقد  
مؤازرتي لك إذا طلبتها بصدق، وشعرت في قرارتك بحاجةٍ إليّ، وأعدك أنّ  
يديّ لا يمكن أن تُرفع ضدّك مطلقاً!".

كان لهذه الكلمات رنين الوداع، وقد كانت نذير افتراقهما، وقف قسطنطين  
يرنو إلى صديقه لاكتانتايوس، بوجهه الحازم وعينه اللامعتين، وقف لاكتانتايوس  
ليعانقه، ليكون اللقاء الأخير في نيقوميديا... وهما يتميّيان أنّ يلتقيا في قابل  
الأزمان!

\*\*\*

جاء الكاهن المتنبي، رئيس كهنة معبد جوبيتير، بثوبٍ مُقَلَّم باللون الأرجواني أو القرمزي وعباءة مزدوجة وقبعة ذات شكل مخروطي، يحمل شعار الكهنة المتنبيين الذي يتمثل في عصا ناعمة رأسها متقوس مثل الصولجان الأسقي، والتي كان يستخدمها في تحديد أقسام السماء المنظورة المتعددة، وتوزيعها على منازل مختلفة، وعمل حدود وهمية للأرباع التي يشير إليها يمينًا ويسارًا.

وبينما كان الإمبراطور دقلديانوس وجواره جلاوريوس ينتظران قراءة الطالع على أحرّ من الجمر مضى الكاهن بهذه الهيئة تجاه موقع مرتفع، وبعد أن قدّم القربان، ردد صيغة تلاوة غير مفهومة، ثم أدار وجهه شرقًا بحيث غدا الجنوب على يمينه ثم قسّم السماوات إلى أربعة أقسام، وبالعينين المركزيتين على السماء، ووسط صمت الجمهور المهيب المحيط به، كان ينتظر حتى يظهر طير ما، فيلاحظ الموقع الذي برز منه والخط الذي اتخذه بدقة، وما إذا كان سيُحلق إلى أعلى أم إلى أسفل.

فقد كان يفعل هذه الطقوس، ثم يأتي بكبد ذبيحة ليقراً منها الطالع تحت شجرة السنديان، في حين أن مهبط وحي جوبيتير قد انبثق من شجرة السنديان، وكانت تتدلى من الأغصان أجراس وأحواض نحاسية، كانت ترن لدى أدنى هبة ريح، إضافةً إلى ينبوع ذي فعالية غريبة يُعتقد أن له قوة إعادة إيقاد شعلة خامدة على نحو متوهج!

حمل الكاهن كبد الذبيحة التي كانت ترتجّ بين يده، وتقطر منها قطرات الماء الممتزجة بالدم جرّاء غسلها، ثم أمسك السكين وشقّها نصفين، وبدأ يتأملها ويدقق النظر فيها، ثم بدأت عيناه تدوران إلا أنه لم يظهر شيء من الطالع.

قال الكاهن وهو مطأطئ الرأس:

- فشلنا في قراءة الطالع سيدي، فالآلهة غاضبة بسبب وجود نجاسةٍ في المملكة!

- نجاسة؟ ماذا يعني هذا؟

- أجل سيدي، بمملكتنا كثير من المسيحيين، ويبدو أنهم كثيرون جدًّا، ولكن

يبتنون المسيحية.

وعدم ظهور الطالع نذير شؤمٍ بأنهم أصبحوا الأغلبية أو يقاربون ذلك.  
- وما الحل إحدًا؟

قال الكاهن مُباغثًا وكأن الإجابة حاضرة: - الحل هو أن يأكلوا من الذبائح المذبوحة على الأوثان، ليرجعوا عمّا هم عليه، ومن لا يأكل من ذبائحنا يُقتل سيدي، وبذلك تُطهّر المملكة وترضى عنكم الآلهة.  
اعتدل جلاريوس في جلسته وقد لاحت على وجنتيه ابتسامة رضًا وقبول بما قاله الكاهن، ثم مال إلى الإمبراطور، وقال: - صدقني يا سيدي ليس ثمة حل ناجع إلا هذا.

امتعض دقلديانوس من كلام الكاهن، قائلاً: - يا سيد جلاريوس، إنني قد قسمت الإمبراطورية إلى الحكم الرباعي لكي تهناً الإمبراطورية بالأمان والاستقرار، وتريد مني اليوم أن أقتل الناس لتزيد الاضطرابات والقتل والفتن!

أشاح بوجهه عنه وقال:

- إنني لا أحب أن يكون نهج الإمبراطورية الرومانية هو إجبار الشعوب على اعتناق ديانتها، بل كان ولا يزال الحكم الروماني له سلطة مدنية دون التدخل في ثقافات الشعوب ومعتقداتها.

- ولكن سيدي!

- لا، لست ممن يحب الحل الدموي، كما أن كثيرًا من المسيحيين أصدقاء لي كما تعلم، ومنهم الفيلسوف لاكتانتوسوس.

كان الكاهن ينظر نظراتٍ خبيثة ويتفرّس في وجه كليهما، فقال وهو يفرك كلتا يديه: - إن الآلهة لن ترضى بوجود المسيحيين سيدي.. أوكد لك ذلك.

وضع دقلديانوس كلتا قبضتيه على الأرض وهمّ بالقيام، قائلاً: - أعتقد أن إجلاءهم من المملكة كافٍ كما قررتُ سابقًا.. والآن علينا المغادرة، لا تنسَ أن لديك تجهيزات للعرض العسكري.

\*\*\*

## العرض العسكري

صباح صافٍ نقي هواؤه، وقرص الشمس يتلألأ كعملة ذهبٍ لامعة في السماء، الضياء قد غمر بدن قلعة منيعة ومهيبة، جلس دقلديانوس وجلاريوس في المدرج الحربي، في حين تدفق الزائرون من بوابات القلعة في نهرٍ من الذهب والفضة والفولاذ المصقول ثلاثمائة منهم، مفخرة من حملة الرايات والفرسان، من المحاربين غير النظاميين، فوق رؤوسهم رفرفت الرايات الرومانية في مهب الريح، كان رداء هؤلاء المُشاة عبارة عن أوقية من الجلود السميقة، كما زُوِّدوا بدروع مصنوعة من النحاس وقلنسوات مُزينة بالريش الأحمر.

وقف الرماة أعلى أبراج القلعة بأقواسهم وسهامهم يرتدون زيًّا أقرب إلى لون الحجر؛ فيصعب على المرء تمييزهم من بعيد وهم واقفون في المزاغل الكبيرة.

وانطلق العزف مدويًا بين يدي الأباطرة والقيصرة، مؤذنًا ببدء العرض العسكري كنوع من التقليد قبل بدء الاحتفال.

خرج القادة المائة واحدًا تلو الآخر لينحنوا أمام الإلهين جوبيتير وأبوللو، ثم لينحنوا بعدها أمام الإمبراطور، فلما حان الدور على القائد مارسيللوس، خرج على حين غرة، ليتقدم إلى الأمام تاركًا جيشه إلى منتصف الساحة، وخلع رداءه العسكري أمام الجنود؛ ليعترف بصوتٍ عالٍ:

- "أنا جندي يسوع المسيح ولست أخدم الإمبراطور وأرفض آلهتكم تلك.. نعم أرفض آلهتكم المصنوعة من الخشب والحجارة، فما هي إلا أوثان صماء، إنني آمنت بالله وحده، ربكم ورب إبراهيم وموسى ويسوع المسيح".

ساد الصمت للحظات، واشترأبت الأعناق، وظلت الوجوه مشدوهة غير مستوعبةٍ ما يحدث!! أشار دقلديانوس إلى الحرس الخاص، فأسرعوا إلى الإمساك به من بين ذراعيه ليُخرجوه من الساحة، وهو يصرخ:

- الله ربكم ورب موسى ويسوع.

وقف دقلديانوس، وقال بصوتٍ عالٍ:

- (قس... طن... طي...ن!) ويمد فيها بصوتٍ أجش.

- نعم سيدي!

انفجر دقلديانوس:

- ما هذا العبث الذي يحصل في جيشك!!

تدخل جلابيوس، قائلاً:

- يجب أن تعلم من هو رئيس هذا القائد المخبول، وأوقع عليه هو الآخر أشد عقوبة.

- يا سيد جلابيوس بالتأكيد إن الأمر غير مرتب، ورئيسه لا يعلم عن ذلك شيئاً. سأتولى الأمر بنفسى، وكل شيءٍ سيكون على ما يرام.

نزل قسطنطين إلى القبو السفلي، ممر طويل أقرب إلى الظلمة، على جانبيه المشاعل التي تثير الممر، والجنود تتوزع على جانبي الممر لغرض الحراسة، صوت غير واضح يسمعه بين الفينة والأخرى، إلى أن ميّز بأنه صوت صراخ مارسيللوس.

انتهى قسطنطين إلى القبو الذي فيه مارسيللوس، حيث كان مكبلاً بالقيود الحديدية، وهو يُضرب بالسياط، انحنى قائد الفرقة العسكرية أمام قسطنطين.

لحظات صمت وتأمل من قسطنطين، تقابلها صور أشباح كبيرة على الحوائط الحجرية جرّاء انعكاس ضوء المشاعل على الجنود، لم يمض وقت طويل حتى أشار قسطنطين إلى الجلاد أن يتوقف، وطلب من قائد الفرقة أن يتركه مع مارسيللوس وحدهما.

اقترب قسطنطين ببطء من مارسيللوس، ثم قال بغضب:

- ما هذا الهديان الذي كنت تقوله في الاستعراض العسكري؟ أتعلم ما هي عقوبة ذلك؟!

نظر مارسيللوس إليه ولم يُجِبْ بشيء، ومع استمرار صمت مارسيللوس ونظراته المتحدية في عناد، تغيرت نبرة قسطنطين وأخذ السوط يضربه بجنون على ظهره، ظل يضرب ظهره بلا شفقة حتى هدأت نفس قسطنطين شيئاً فشيئاً، وباتت أقرب إلى الشفقة به، ثم اقترب من مارسيللوس، قائلاً:

- "هل يرضيك أن أتأذى بسببك؟".

تأهب مارسيللوس للرد بحماس، لكن نظرة قسطنطين النارية ألجمته بأن يسكت.

ساد الصمت المكان، ثم استرسل قسطنطين بنظرة حانية وابتسامة مغرية بالصدق؛ ليزيده قناعة بما يقول:

- يبدو أنك لا تعرف حجم ما ارتكبته.. ما حصل ليس خطأ بل خطيئة.. لذلك دعني أساعدك.. تأكد أنني هنا لمساعدتك!

سيد مارسيللوس، ما حصل نستطيع أن نصلحه، نعم نستطيع أن نصلحه، أو على الأقل يُمكن أن نخفف عنك العقوبة، فقط قُل إنك شربت رطلًا من النبيذ قبل العرض العسكري ولم تكن تعي ما تقول.

عدة ضحكات من الخلف سمعها قسطنطين على سهوٍ.. ظهر جلاريوس الذي بدا يُصقّق ببطء كأنما يرى مسرحية هزلية، وسط نظرات استياءٍ من قسطنطين، يبادلها جلاريوس بابتسامةٍ صفراء، قبل أن يقول متهكمًا:

- قسطنطين ذو القلب الحنون يلقن المذنب ما سوف يقوله! يا لجوبيتير.. قالها رافعًا كلتا يديه ساخرًا.

- لا داعي لهذه السخرية سيد جلاريوس، فإن ما أخذه مارسيللوس من العذاب كان كافيًا.

وقف الرجلان أمام بعضهما وكأنهما في تحدٍّ، وصاح جلاريوس مشيرًا بسبابته قرب عين قسطنطين، وجرّ على أسنانه:

- أيها الأرطبون، إن أمن الإمبراطورية فوق كل شيء.. إن هذا الرجل أهان الإمبراطور دقلديانوس، وفوق هذا كله قد أهان الآلهة، وإذا تساهلنا مع أمثاله، سوف يتجرأ غيره على نفس الصنيع!

انصرف جلاريوس على عجلٍ، ورداؤه الأحمر يترنح خلفه.

\*\*\*

بينما اعتاد البشر أن ينقشع الليل ليحل محله النهار، أبى ليل دقلديانوس إلا أن يحل مكانه ليل أكثر عتمة وأشد قسوة، جلاريوس ذاك هو الشيطان القابع على عقل دقلديانوس؛ ليُخرج منه الوحشية الأعنف ضد المسيحيين، والتي لم تر الإنسانية مثلها قط، بل إن الحيوانات الأكثر ضراوةً وفتكًا وخبثًا لتأنف أن تأتي بمثل تلك الوحشية.

المرض والضعف قد أصاب دقلديانوس فجأة ودون مقدمات، هل هو عقابٌ إلهي؟! ربما!! فلقد أحس حَقًّا أنه عقاب من الرب؛ فالمرض جعله طريح الفراش، ولربما اتخذ كرسياً ليحمل عليه كي يقضي حاجته، نهض دقلديانوس من مرقدته بعدما اتخذ كرسياً له، ثم ما لبث أن نهض من جديد مستنداً إلى عكازين، فهو لا يطيق أن يراه الجند عاجزاً عن الحركة!

كان ضوء النهار الباهت يضيء عبر النوافذ حينما دخل أعضاء مجلس الشيوخ، مجتمعين لديه في غرفة النوم يُدثّرهم دخان البخور، ويهيمن عليهم ظل الموت.. ألقى بالعكازين بعيداً، وظل واقفاً ليتناول النبيذ والخبز وقدماه لا تطيقان حمله، وعيناه الثقيلتان تبعثان على الكآبة، ويداه قد بدا عليهما الارتعاش، بكى دقلديانوس وأعادوه إلى السرير، وظل على هذه الحالة عدة شهور.. اعتنت به ابنته فاليريا زوجة جلاريوس وبعاونها وصيفات القصر.

وفي يوم من الأيام نهض دقلديانوس من رقدته المملة مُزيحاً الغطاء من على جسده، حيث أتته رسالة من إمبراطور الغرب ماكسيمانوس مفادها أن جلاريوس استغلَّ مرضه، وبدأ يخطط للانفراد بالحكم، وقد جمع جيشاً كبيراً لذلك، وينصح بالمسارعة بالتنازل، حتى يكون التنازل نابغاً منه هو، لا من جرّاء ضغطٍ عليه.

فُجع دقلديانوس من تلك الرسالة، وازداد عليه المرض أكثر، وحينها قرر أن يراقب خطوات جلاريوس.

تسللت نظرات دقلديانوس في قلق من خلف نوافذ الحجرة الملكية، لاحظ انتشار رجال مسلحين لا يعرفهم يطوفون في خطوات منتظمة، سرت بجسده رجفة، ولوهلة شعر بأنهم يتحفظون عليه في القصر، تنهّد بعمق وقد قام يتوارى خلف الجدران، نظر إلى الأفق البعيد لعله يلمح ما يصادف قبولاً

لهواجسه من انتظار الموت على يد مجهول.. زفر بضيق وهو يتحسس صولجانه وقبض عليه بشدة، وظل قابضًا عليه، وأغمض عينيه مقطبًا جبينه، مسدلاً سُحب غضب مكبوت على جفنيه، مستندًا بكفه إلى الجدار في حين يقبض بالأخرى على قلبه.

دخل دقلديانوس الحجرة الملكية وهو يترجّح من الألم، فأشار جلاوريوس إلى مستشاريه بالانصراف، وانتهز الأخير فرصة المرض الذي ألمَّ بالإمبراطور وجهر للإمبراطور بما يختلج في نفسه من مشاعر كامنة، قائلاً إنه لم يعد يحتمل البقاء في مرتبة أدنى، وإنه ظل لفترة طويلة خلت كما لو كان منفيًا في الليريا وشواطئ نهر الدانوب ونهر الراين يقاتل الجرمانيين، ويجاهد دومًا البرابرة، في حين الآخرون يتكئون على الأرائك مرتاحين يحكمون مناطق أكثر اتساعًا وأفضل مدنيّة، وأن له الوقت أن يحظى بشرف الإمبراطورية.

سمع دقلديانوس هذه الكلمات كزخّات نيرانٍ قُصفت عليه بمنجنيق! ولما كان دقلديانوس قد أتته رسالة من ماكسيمان -إمبراطور الغرب- بشأن جلاوريوس يُرتّب للانقلاب، ثم ها هو الآن يسمع مقالة قيصره بكل أسى، فأدرك أن هذا الخبر صحيح، وأن جلاوريوس قد أعدّ للأمر عُدته!

لاحت بوادر التردد على وجه دقلديانوس، ما بين أن يأمر حراسه بالقبض على جلاوريوس، وههنا قد ينقلب السحر على الساحر، وقد يقبضون عليه هو بدلًا منه، فلاحت في نفسه أن جلاوريوس لا يتكلم بهذه الثقة إلا إذا كان مرتبًا لكل شيء! فخشي دقلديانوس أن يدسَّ له السم في الطعام، أو يقتله بأي طريقة كانت، وفي هذه الحالة يكون قد خسر كل شيء.

فانفجر دقلديانوس باكيًا بين يدي جلاوريوس -ذاك الرجل الذي غدا بلا روح- وخاطبه والدموع تنهمر من مآقيه، قائلاً: - "ليكن ما تريد.. ليكن ما تريد.. الآن قد عزلت نفسي، وعزلت إمبراطور الغرب ماكسيمانوس، ليصعد مكانه قيصر الغرب قسطنطيوس، ولتصعد أنت مكاني".

والآن.. ما الذي يجب علينا فعله بعد أن عزلت؟ هل اخترت قيصرين جديدين؟

قال جلاوريوس: - فيما يخص مكسنتيوس بن الإمبراطور ماكسيمانوس فإنه لا يستحق هذا المنصب، فهذا هو ذا رجل ليس صاحب سلطة، ومع ذلك

يعاملني باحتقار وغطرسة، فكيف به إذا ما غدا صاحب جاه! فليكن قسطنطيوس إمبراطورًا للغرب، فهو متمرس في القتال والقيادة.  
- هل فكرت في ابنه قسطنطين ليكون قيصرًا لك؟ إن السيد قسطنطين محبوب، ويتمتع بفضائل عديدة.

- حتى إن كان كذلك! إلا إذا كانت رغباتي وقراراتي لن يُقام لها وزن، إن هؤلاء الرجال يجب أن يُعَيَّنوا بناءً على اقتراحي، ولا يحركوا ساكنًا إلا بإيعازٍ مني.

- إذًا... فمن يا ترى يكون قيصرًا للغرب تحت قسطنطيوس؟  
- سفيروس.

- مَنْ؟! ذلك الداعر الذي يواصل ليله بنهاره ولا يكاد يفيق من الخمر؟  
- إنه يستحق المنصب، لقد أثبت جدارته كصرافٍ ومورد للجيش، وقد بعثت به فعلاً ليتسلم السلطة من يد ماكسيمان في الغرب.

ثم قال جلاوريوس في تهكم: - أم إنك ترى شيئًا آخر يا سيد دقلديانوس! نظر دقلديانوس إليه بنظرات غضب وعيناه قد مليتا بالحسرة وكلمة "يا سيد" تتردد في أذنيه، بعدما كان جلاوريوس يقول له "يا سيدي" كما كانت هي عاداته.

سرعان ما اضطر دقلديانوس إلى قبول الأمر الواقع، ثم أردف قائلاً في أسى: - حسناً. وأي شخصٍ آخر تفصّل قيصرًا لك؟  
- هو ذاك! قالها جلاوريوس مشيرًا إلى شخص يُدعى "دايا"، وقد خلعتُ عليه لقب "ماكسيمين دايا".

- ومن يا تُرى "دايا" هذا الذي ترشّحه؟  
- إنه أحد أقربائي.

تأوه دقلديانوس قائلاً: - يا للحسرة.. يا للحسرة. اخترت أناسًا لا يصلحون لهذه المهام الجسام.

تبسم جلاوريوس ابتسامة الذئب الذي كشر عن أنيابه، وقال: - لا تقلق، إنني أثق بهم.

بينما يمضي جلاوريوس إلى الباب وجد قسطنطين قبالة، فقال جلاوريوس متهكمًا: - أهلاً بالسيد قسطنطين.. إن فخامة الإمبراطور مدين لي! كان لا

يريد أن يدفع دَيْنَه! لقد ظفرْتُ به.. آه! لماذا تبدلت سحتته هكذا؟! انظر إليه...  
علينا دائمًا أن نُحيي دائنينا، أن نحييهم بابتسام ولطف!  
انطلق جلاربوس بينما كان قسطنطين غير مستوعب ما يحدث<sup>(6)</sup>!

\*\*\*

تسليم جلاريوس زمام الحكم

في حفلٍ رسمي حضره الكهنة وكبار قادة الجنود وأعضاء مجلس الشيوخ، راح دقلديانوس وجلاريوس يعلنان للحاضرين ما اتفقا عليه، في حين تنعكس اللفتة في أعين الناس الذين ينظرون إلى قسطنطين بين فينة وأخرى، فقد كان الجميع يتوقعون اختياره.

لكن دقلديانوس وقف يخاطبهم جميعًا والعَبَرَات تنحدر من عينيه، مبيّنًا لهم أنه شعر بالحاجة إلى الراحة بعد هذا العناء الطويل، وأنه يتخلّى عن الحكم ليضعه في أيدي قوبة أمينة تصونه وترعاه، ووسط هذا الجو الدرامي المتوتر أعلن دقلديانوس اختيار سفيروس ومكسيمين دايا، وعقدت الدهشة السنة الجميع، وظنوا أن قسطنطين هو الذي يحمل لقب مكسيمين، ولكن جلاريوس أزاح قسطنطين بيده، وقدّم للناس "دايا"، ظل الجميع في حالة ذهول، ولم يستطع أحدهم أن ينبس ببنت شفة خوفًا من جلاريوس، وهكذا تم اختيار القيصرين الجديدين.

ترك جلاريوس ومعه أعضاء مجلس الشيوخ القاعة، بينما ظل دقلديانوس صامتًا يعلوه شحوب الموت، ولا يُصدّق ما حدث، لحظات وعلا صوت دقات منتظمة لعصى تنقر الأرض يتكئ عليها دقلديانوس، لمعت عينا دقلديانوس وشريط الذكريات يمر أمام عينيه على مهل ولسان حاله ينطق:

- أهكذا تكون نهايتي؟.. "أهكذا ينتهي ملكي؟"

بدا منظره كمن مسّه الجنون.

تلاأت حبة عرق على جبهته، سرعان ما تبعتها حبات أخرى دافئة انزلت من منتصف رأسه، فتدحرجت بين خصلات شعره حتى تساقطت ببطء على جبينه، وبدأت تأوهاتة تعلو وأصوات أنفاسه المتلاحقة ترتفع وقد تقوس ظهره وظل يترنح بخطواتٍ عشوائية. رمقه قسطنطين في آخر الردهة، فأسرع وأمسك بيديه لئلا يقع، ماثرًا. وقد اتكأ دقلديانوس على ساعده حتى أوصله إلى سريره.

قال في أسى:

- أشعر بأن مرضي هذا هو انتقام من الرب، فأنا قتلت كثيرًا من المسيحيين، وقد كانوا يرفعون أعينهم إلى السماء حين يُقتلون قائلين:

- الله.. الله... رجال، ونساء.. وشيوخ.. وأطفال رصّع... كل هذا بإيعازٍ من  
جلاريوس.

- استرح سيدي.. استرح.

- تقول لي سيدي؟ آه يا قسطنطين، على الرغم من كل الإساءات التي  
صدرت مني تجاهك تقول لي "سيدي"! وهذا الداعر الذي أحسنْتُ إليه وزوَّجْتُه  
ابنتي وجعلته قيصري أول ما أحس بضعفي، انتهز الفرصة وانقضَّ على مُلكي!  
يا قسطنطين أنت رجلٌ نبيلٌ، إذا انتهت إليك الإمبراطورية يومًا فلا تصنع  
صنيعي، ولا صنيع الأباطرة الذي خلوا من قبلي: نيرون، تراجان، هادريان..  
كلهم عاقبهم الرب بعقابه الأليم.

\*\*\*

أشرقت شمس يوم جديد في نيقوميديا، وارتسمت أمارات الجدية على وجه الإمبراطور الجديد، ثم قال في أبهة: - إن زيارتي إلى أنطاكية لا بد أن تتحول إلى ملحمة.. ملحمة عظيمة لم ير التاريخ مثلها.

قام الإمبراطور من كرسیه، وتقدم خطوات وأشار إلى الكاهن، قائلاً: - أنت يا هيروكلس حاكم مدينة بثنينة العزيز عليك بإعمار كافة المعابد، وانصب تمثالاً للإله أغسطس في كل معبد. معبد يولون، بلوتون، سيلون، مريخ، ديانا وحتى ميترا، وفي كل مكان يطلق عليه اسم معبد وفيه إله يُعبد إن كان رومانياً أو غير روماني، وأما أنت يا عزيزي دايا فأريد منك أن تنصب تمثالاً جديداً للإله جيانوس فوق كل بوابة في المدينة..

وأما أنت يا يوليوس فأصدر أمراً بذبح الذبائح لجميع الآلهة، وليأكل منها المسيحيون، ومن لا يتناولها تُقطع رقبتة..

وأنت يا قسطنطين العزيز أريد إعداد المسارح بشكل جيد جداً.. واجمع عددًا كبيرًا من الحيوانات المفترسة من الأسود والذئبة وكذلك عددًا كبيرًا من المسيحيين.

قال قسطنطين:

- المسيحيون؟ لأي شيء يا صاحب الفخامة؟

أقبل عليه جلاريوس بخطى هادئة، ووقف قبالة، قائلاً: - أعلم أن قسطنطين ذو روح شفافة، ولكن أتعجب أنك أصبحت بطيء الفهم هكذا.. حسناً، سأسألك بأي شيء سوف تُسَلِّي الأسود والذئبة الوحشية الإمبراطور؟! ثم رفع كلتا ذراعيه يمنة ويسرة، قائلاً:

- أيها السادة إن كلامي واضحٌ إداً، إن أرض أنطاكية يجب أن تُروى بالدماء..

ثم قال بصوتٍ تردد صداه:

- "دماء المسيحيين!"

روما وكريت وقبرص وأورشليم وسوريا وحتى أنطاكية لقد امتلأت كلها عن بكرة أبيها بالموحدين.. مهما قتلنا منهم وعذبناهم ورميناهم في البحر وأمام الأسود الوحشية.. لم ينتهوا بعد، إنهم نفذوا حتى إلى داخل قصورنا نحن، فما هناك من سبيلٍ آخر غير مضاعفة زجرهم وتخويفهم والتنكيل بهم.

تقدم يوليوس، متسائلاً:

- ليس واضحًا كيف نفذ هؤلاء الأوباش إلى داخل قصورنا سيدي  
الإمبراطور!!!

أجاب جلاريوس وهو ينزل درجات من أمام عرشه:

- أنسيت مارسيلوس؟ أكان هو أيضًا من الأوباش؟!

قال يوليوس:

- على هذا الأساس أليس من العقل والمنطق أن نراقب البلاط؟

- ماذا تقصد؟

أجاب يوليوس مرتعبًا:

- عفوا.. أنا.. أنا... لا أقصد أحدًا بعينه.

حدق جلاريوس في عيني يوليوس لثوانٍ، ثم ابتسم قائلاً: - مع أنني مطمئنٌ

من أعضاء البلاط، فإنني أوافقك هذا الرأي يا يوليان، فلتتولَّ هذا الأمر بنفسك

في أنطاكية.

\*\*\*

عزرا في انتظار يوليوس!

علا صوت جهيرٍ لمنادٍ يطوف الطرقات، في حين يقرع طبله صغيرة في أحياء أنطاكية تطغى على أصوات الجميع، وهو يعلن أن جميع الذبائح سوف تُذبح للآلهة الرومانية من الآن، وسوف يُنكل بأي رجلٍ يُعرف أنه مسيحي! خرج يوليوس وراءه في عربة تجرها الخيول وفي يده زجاجة من النبيذ المنقوع. ارتشف منها رشفة أخيرة مغمضًا عينيه وكأنها تمنحه إكسير الحياة. اتجه ببطء بالزي العسكري القصير والدرع النحاسية إلى حي من أحياء اليهود بالمدينة، حيث الدكاكين الخشبية الصغيرة المتلاصقة بجوار بعضها كقوالب الطوب المُتراصة، وغالبيتها تباع الأقمشة والنعال الجلدية والذهب، والمشغولات النحاسية، حيث كان يقف على أحد المتاجر رجل نحيف طويل اللحية ظل يلتفت يمنا ويسرة ويفرك كلتا يديه متأهبًا.

قال يوليوس بصوتٍ مرتفع:

- مرحبًا بالسيد عزرا.

تقدم عزرا الذي كان تاجرًا يهوديًا ترتسم على وجهه دائمًا ابتسامة الثعالب، قال بصوتٍ خفيض يشبه فحيح الأفاعي: - مرحبًا بسيدي وولي نعمتي يوليوس، لو أرسلت إليّ لتركت كل ما في يدي من أجل صاحب الفخامة.

- لا داعي، فالأمر لا يحتمل التأخير.

- إن صدق حدسي فمولاي ينتظر المزيد من الضحايا المسيحيين.

- انتبه يا عزرا، إن الإمبراطور الجديد جلاوريوس اتخذ خطواتٍ أشد فيما يخص المسيحيين، الآن نحن نريد أن نطهر الإمبراطورية من المسيحيين سواء كانوا ثوارًا أم ليسوا بثوار.

قال يوليوس:

- أجل.. لكن هذه المرة، المهمة تختلف قليلًا.

قال عزرا مسرعًا:

- إدًا فلتداهموا كنيسة الأب لوسيان المهرطق!!

- أصدرنا أوامر بمداهمتها بالفعل، لكن ليس هذا السبب الذي أتيتك من أجله... يا سيد عزرا، إن أراذل الناس مجرد ذباب وبعوض ليست لهم أهمية كبيرة، هذه المرة نحن نريدك أن ترشد عن كبار القادة وأصحاب البلاط

الملكي...

ارتجف عِزرا خائفاً وتلجلج من المفاجأة:

- لا تخف نحن سنحميك، وهذه المرة لن تكون مكافأتك صرة نقود! إنما

هذه الجوهرة الثمينة!

أشار يوليوس إلى جوهرة ظل يديرها بين أصابعه وهي تتلألأ في ضوء

الشمس.

ضحك عزرا ضحكاتٍ بلهاء وقد فقد توازنه، ثم قال مشدوهاً:

- هذه الجوهرة!!!!

وأطلق العنان ليديه إليها.

جذب يوليوس الجواهر بقوة، قائلاً:

- تمالك نفسك أيها الرجل اللاهث، فإن كل شيءٍ له قيمته.

قال عزرا وهو يفرك كفيه:

- في سبيل طاعة الرب نصنع أي شيء!

ضحك الرجلان بشدة، وسرعان ما تحولت تلك الضحكات إلى أصداء عالية

في الأجواء، تراقصت على أنغامها الشياطين والأرواح الشريرة.

\*\*\*

حكمة لوسيان

كان الخريف قد حان، والليل بليغ السكون، في حين يسري في الأجواء بردٌ

لطيف، وفي السماء نصوصٌ نادر التكرار. حين دخل الأب لوسيان في صمتٍ

عميق وأغمض عينيه، كأن روحه تسمو إلى الأعلى في اللانهاية والتلاميذ

متراصون حوله في تناغم متأهبين، حتى خرج المُعلم الحكيم من نشوته،

وقال بعدما تنفس الصعداء: - أيها التلاميذ المباركون، سلامٌ عليكم أينما

حللتم، أنتم جنتم من بقاعٍ شتى... سلامٌ على هذه القلوب الطاهرة التي

عرفت وحدانية الله، وجاهدوا أنفسهم في وقت الضيق والشدة حتى يأتوا، إن

القوارب تسير بسهولة شديدة عندما تبحر في اتجاه الريح.. أما مسيرها

عكس الريح فهو أمرٌ عسيرٌ جدًّا يحتاج إلى مجاهدة.

إن الله لا يهب ملكوت السماوات ما لم نجاهد، وكل ما نحتمله لا يتناسب

مع الإكليل الذي نجاهد من أجله."

رفع لوسيان يديه تضرعًا إلى السماء وراحت شفثاه تتحركان بدعاءٍ صامت.  
وبعد انتهاء الدرس، انتفض الدارسون الضاجُّون متفرقين، وبقي آريوس  
وأنطونيوس ويوسابيوس!

استقام الأب لوسيان كي ينهض ويتكئ على عصاه، فقام أنطونيوس وقال:  
- استرح أنت يا أبتِ وأنا آتيك بما تريد.  
قال الأب:

- حسناً اذهب يا أنطونيوس إلى مكتبتني، وأحضر لفافة النبي أشعياء، تجدها  
في الرف الثاني على اليسار.. أحضرها حالاً.

ذهب أنطونيوس مسرعًا وأخذ يتفقد أرفف المكتبة التي تمتد إلى سقف  
الكنيسة، ثم صعد السلم الخشبي المخصَّص لتلك المكتبة، وصعد خمس  
درجات والتقط الكتاب من الرف الثاني، قفز أنطونيوس على الأرض، ووقع  
على ظهره محدثًا دويًا في أرجاء الكنيسة! ضحك الأب لوسيان، قائلاً: - لقد  
كنت أتمتع بقوةٍ وشباب أكثر منك يا أنطونيوس حينما كنت شابًا، وكم قفزت  
بين الأسطح هربًا من الروم الوثنيين...

قال يوسابيوس:

- نريد من أبنائنا أن يذكر لنا بعض المعجزات التي حصلت له وللرهبان حينما  
كانوا يُعذِّبون من هؤلاء الوثنيين، لا أشك أن أبانا لديه الكثير ليحكيه لنا..

نظر إلى يوسابيوس، وقال:

- يوساب أنتم أتيتم هنا لتتعلموا العلم الكنسي لا لتتسامر بالقصص  
والحكايات..

سكت هنيهة ثم استدرك ليذيب الجليد مترفقا بحالهم:

- لعلي أحكي لكم طرقًا منها في مناسبة أخرى، وإذا وجدت فيكم النبوغ  
والذكاء ستكون تلك مكافأة لكم.

الآن بدأ آريوس يكافح ليصبح أفضل دارس في المدرسة، كان يحب من في  
المدرسة، لكن كان هناك اثنان فيها شعر بحبِّ لهما وكانا يشيعان السرور فيه  
ويملكان عليه أفكاره، وكنَّ لهما إعجابًا وتبجيلًا عميقين: هما الأب لوسيان  
رئيس الدير... ويوسابيوس صديقه. كان يرى في الأب لوسيان شخصًا مقدسًا،  
بعاداته البسيطة والطيبة، بإرادته المتواضعة، يعطي أوامره وكأنه يؤدي

خدمة، وبلطفه وهدوئه الصامتين، كل هذا جذب آريوس إليه.  
كان يتمنى أن يكون خادمًا خاصًا لقداسته، كان الفتى الصغير يود أن يقدم له مقدمة، كل ما به من تضحية، ومشتاق إلى أن يتعلم منه كيف يعيش حياة عنيفة ونبيلة، حياة منسجمة مع القداسة. هكذا كانت إرادته.  
راح آريوس يملّي بصره من الأستاذ تبهجه قوته ونحولته، وعيناه الباردتان، المتوهجتان مع ذلك، وشفثاه المرسومتان بصرامة اللتان تلفظان كل مقطع لفظي بوضوح تام، وصوته المحلق الذي لا يناله التعب، وأخذ يُسائل نفسه: كيف لهذا الرجل الذي بلغ من العمر عتياً أن يكون دقيقاً ومتوهجاً إلى هذا الحد!

لاحظ المُعلم لوسيان سكوته وشروده، فابتسم ابتسامة رقيقة ثم قال:  
- ما بك يا آريوس؟ ألا تسألني كما يسأل زملاؤك؟  
في هذه اللحظة انتبه آريوس على وقع كلماته، وزم شفثيه وخرج من قمقمه وسأله سؤالاً كثيراً ما كان يدور في رأسه قائلاً: - سيدي! هل تتمنى الخير لأعدائنا من الوثنيين كما تتمنى الخير للمؤمنين؟  
ظلت عيناه تتعلقان كل هنيهةٍ بعيني القديس لوسيان لعله يسمع منه جواباً شافياً.

بدأ لوسيان بالجواب، وقد صار صوته أكثر عذوبة ورنيناً في جنبات المجلس المبارك، قائلاً:  
- انظروا أيها الأحباب إلى عظام يسوع المسيح، وأبشروا بكلماتها المفرحة التي حَقَّظها لنا القديس مَنِّي الرسول في إنجيله، يقول لنا في كل زمان ومكان: طوبى للودعاء؛ فإنهم يرثون الأرض، طوبى للحناني؛ فإنهم يُعزَّون.. فهل جاءت قبل المسيح بشارة كهذه؟

إنني أفصّل عندما تعانون من قسوة الوثنيين أن تلاحظوا كلمات يسوع، في ذلك الوقت الذي فيه كان عدوكم يعتدي عليكم. حوّلوا أفكاركم نحو زميلكم الخادم فقد كان القديس أسطفانوس يرحم، وإذ كانوا يرحمونه كان يصلي بركب منحنية لأجل أعدائه قائلاً: - "يا رب لا تقم لهم هذه الخطية"<sup>(7)</sup>، لقد كانوا يقذفونه بالحجارة وليسوا طالبين العفو، ومع ذلك فقد صلّى لأجلهم، أريد أن تكونوا مثله، فلتتقدموا إلى الأمام. لماذا تسحبون قلوبكم على الأرض

إلى الأبد؟ اسمعوا "ارفعوا قلوبكم"، تقدموا إلى الأمام ضد أعدائكم، إن لم تستطيعوا أن تحبهم في أثناء قسوتهم فلتحبهم على الأقل عندما يسألونكم العفو، إن الذي يقول لكم "أخي"، أخطأ إليك.. اعفُ عني "إن لم تغفروا له فإنني لا أقول فقط إن هذه الصلاة ستمحي من قلوبكم، بل ستمحي نفوسكم من كتاب الله".

\*\*\*

سادت حالة من الارتياح النفسي، مع بعض همهمات قليلة بين التلاميذ، قال أنطونيوس:

- سيدي لقد علمتنا أشياء كثيرة كان عسيرًا علينا فهمها، وما زال هناك الكثير لم نفهمه.

أغمض لوسيان عينيه، ثم قال:

- فلتمجدوا الله في الأمور التي لم تفهموها، وهكذا فلتمجدوا كلما ازدادت الأحجة التي ترونها؛ إذ بمقدار كرامة الشخص تزداد الأحجة التي تتدلى في قصره. إن الأحجة تجعل الشيء المخفي وراءها ممجّدًا، وهذه الأحجة تُرفع لمن يكرمون ما وراءها، وأما الذين يسخرون منها فإنهم يُطردون ولا يُسمح لهم حتى لمجرد الاقتراب إليها.

\*\*\*

الدھليز السري

كان الأب لوسيان جالسًا في زاوية الغرفة اليمنى، ويده كتابٌ في لفافة من الكتاب المقدس وأوراق متناثرة من حوله، وسط أشعة الشمس التي تفتersh الأرض. دخل عليه آريوس وهو في هذه الحالة، فقام الأب لوسيان لتحيتته، إلا أن آريوس أسرع وقبّل يده، قبّل هو رأسه وباركه، ثم جلسا يتجاذبان أطراف الحديث.

- أشعر يا سيدي بأن دروسك هي نوعٌ من السحر البياني الذي يُبدد ظلمات قلوبنا.. السحر الذي تنفك به عقد عقولنا المسحورة.

تبسم الأب لوسيان، ثم قال:

- الفكر يا بُني له مفعول السحر.. مثل الأدب تمامًا.. إن رؤية فكرة تبرز في حقل العقول الإنسانية أو تنمو هذه الفكرة كطفل فتدرك سن البلوغ، هي

لذة تفوق جميع الملاذ الأرضية، أو قل هي غبطة سماوية.  
المكتب الحقير الذي أستعمله للكتابة، وجلد الغنم المدبوغ الذي أكتب عليه، وسريري وكنبتي، وفراشي كل هذه الأشياء تنبض بالحياة وتربطني بها صداقة قوية.. وكم من مرة أطلعتها على دخيلة نفسي وأنا أنظر إليها. وغالبًا ما كنت أجول بنظري في بعض النقوش المتعرجة. وفي كل مرة أجد فيها شيئًا جديدًا، أو برهاتًا حسنيًا للروحانية التي لا نراها، أو كلمات اعتقدتها كفيلة بإيضاح أفكار جديدة تمتنع على التعبير. لقد جعلتني مداومة التأمل في هذه الأشياء التي تحيط بي، أجد لكل منها شكلًا خاصًا، وطبعًا مختلفًا. وكثيرًا ما كانت هذه الأشياء تكلمني، وإذا ما تسربت أشعة الشمس الهاربة عند المغيب، إلى غرفتي من نافذتها الضيقة وغمرت هذه الأشياء، فإنها كانت تتلون وتشحب، وتلمع، وتحزن وتفرح فتسيطر على قلبي وتستولي على حواسي.

أما الآن وقد اشتعل المشيبُ في رأسي ولحيتي وثقلت حركتي، وأصبحتُ على عتبات الموت، فما عساني أفعل غير الأنس بهذه الخلوة... الأنس بالحياة مع تلك الكتب التي تُحلّق بروحي في رحباء السماوات.. إن حوادث العزلة التي لا يعيرها التفاتًا من يعيش في خضم هذا المجتمع الصاخب هي عزاء السجناء. ألم أكن أسير فكرة؟ ألم أكن سجينًا؟!!

ما زلت أذكر دروس أستاذنا بولس السمساطي، في عهد الملكة زانوبيا... إيه يا آريوس.. لقد كانت أيامًا جميلة.. لكنها أيضًا كانت أيامًا قلقة ومترعة بالهموم والأحزان!

منذ أن بلغت سن الرشد إلى اليوم الذي انتهت فيه من وضع بعض كتبي وتراجمي على الكتاب المقدس، كنت ألاحظ وأتعلم وأكتب، وأقرأ دون توقُّف، كانت حياتي عقابًا طويلًا، وبالرغم من شغفي الجارف بالكسل الشرقي، وعشقي لأحلامي، وتعلقي بشهواتي، فقد بقيت أعمل دائمًا، ولم أسمح لنفسي بتذوُّق لذات الحياة في أنطاكية، وعلى رغم شراحتي أصبحت قنوعًا، وعلى رغم حبي السير الطويل وحدي أصبحت آنس بصحبتكم..

سكت لوسيان هنيهة وكانت عيناه تمتزجان بشعور الود وشعور الخوف والقلق، وكأن أمرًا ما يزيده قلقًا، ثم قال: - دعني يا سيد آريوس أن أخبرك

بأمرٍ أريدك ألا تبوح به إلا في الوقت المناسب.  
أمسك لوسيان بذراع آريوس وسحبه، وسارا معًا يخطو خطواتٍ بطيئة  
ناحية أحد الجدران:  
- أتعرف ما هذا؟  
- إنه جدار.  
- لا، هذا بابٌ حجري.  
- بابٌ حجري؟!!

- أجل.. باب حجري به دهليزٌ سرّي.. يوصل في نهايته إلى خارج المدينة، كنا  
قد حفرناه منذ عشرات السنين، كنت وقتها شابًا أتردد إلى أبينا بولس  
السماطي، فكنت آتي أنا والخادم يوبا.

تحسبًا لحصول أي هجومٍ مفاجئ على كنيستنا المباركة، لا يعلم عنه أحد  
غيري أنا والخادم، وهو الآن رجل كبير مثلي قد مسّه المرض. لا يعلم هذا  
السر سوى أنا وهو.. أنت الآن أصبحت تشاركنا في هذا السر يا سيد آريوس.  
إذا حصل واحتجت يومًا إلى العبور من هذا الدهليز، فأغلق الباب الحجري  
خلفك، حينها لن يشعر من يطارذك أن ثمة أحدًا كان ههنا.  
أمسك لوسيان المشعل وفتح الباب الحجري بمساعدة آريوس، ونزلا سلمًا  
حجريًا إلى الأسفل.

قبو مظلم في بدايته بهو واسع، والبهو قد مُلئ بمكتبة تعج بالمخطوطات  
والكتب، ثم ممر طويل مظلم على جانبه عُطوف ليختبئ بها الهارب إذا ما  
لاحقه أحد..

كانت ساحة القبو باردة جدًا على عكس أجواء الكنيسة التي دفأتها أشعة  
الشمس. وكانت تعبق برائحة الورق العتيق الممتزج برائحة الرطوبة. التفت  
ممسكًا المشعل في يده وراقب قوارير الملفوفات بتمعُّن: - هذا القبو يا سيد  
آريوس أحتفظ فيه بشتى صنوف الكتب حتى كتب الفلسفة والمنطق، ضمّنته  
نسخًا ولفائف من ترجماتي على الإنجيل المقدس من السريانية إلى اليونانية،  
فخذ معك جملة من تلك الترجمات، وهذه زكائب كثنائية، يمكنك استخدامها  
لتحمل فيها الأناجيل، وهذه رسالة عليها خطي وخاتمي، إلى أي مكان تذهب  
إليه ممن يرى قداستي من قسوس المسكونة؛ ليكرموك من أجلي..

- أبانا لوسيان.. إنك تتحدث معي وكأن هذا هو اللقاء الأخير!!  
- يا بني، إنني اشعر أن أجلي قد اقترب، ولعلي ألحق بالملكوت قريبًا.  
سكت لوسيان هنيهة، ثم قال:  
- لا أحد يعرف متى سيموت، بيد أن كل إنسانٍ حكيم لا بد أن يأخذ حذره يا سيد آريوس.

فاجأهما صوت ارتطام قوي، سقط شيء ما على الأرض!! تبعثر حطام قارورة كبيرة من خشب الأبنوس الأسود، ووقعت منها إحدى لفائف الكتب. انحنى آريوس والتقط الكتاب، تأمل غلافه الجلدي الباهت بتعجب، كان لونه يشبه لون التراب المبتل بماء المطر، أما الأوراق فقد بدت صفراء عتيقة. كان الكتاب عبارة عن رسالة للقديس بطرس يرد فيها على شاؤول الطرسوسي.

قرأ آريوس طرة الكتاب، ثم قال:  
- إنه كتاب للقديس بطرس، مكتوب على طُرتِه أنه رد على شاؤول الطرسوسي.. أليس شاؤول هذا هو نفسه بولس الرسول؟  
- أجل هو نفسه.

- إذًا لماذا يردُّ عليه، أليس كلاهما من الرسل؟  
إنك تسأل كثيرًا يا آريوس، ومن الأفضل لك ترك البحث في هذه الأمور الدقيقة.

ألح آريوس بالسؤال ولم يجد لوسيان بدًّا من الجواب، قائلاً:  
- نحن يا بني أتباع شريعة الختان، وكنائس الغرب أتباع شريعة الغرل، وإن كنا نستظل جميعًا تحت الديانة المسيحية، كما قال بولس في رسالة غلاطية:  
"أؤتمنت على إنجيل الغرلة، كما بطرس على إنجيل الختان"<sup>(8)</sup>.

- أليس بولس رسولًا يُوحى إليه من الروح القدس؟  
لجأ المُعلم الشيخ إلى الكلمات المختارة المنتقاة التي لا طائل تحتها، وإلى الدوران في الكلام الذي عوّدته إياه مهنة التعليم؛ فعرف آريوس أنه لا يريد أن يجيبه، وأن ثمة أشياء يخفيها عنه، فأوشك آريوس أن يندم أنه سأله، لكنه في هذه اللحظة سارع إلى كبح جماح رغبته تلك، وهو يلقي بنظرة عجلى على الجلد المعلق أمام ناظره المكتوب بالسريانية.

أحس القديس لوسيان أن آريوس قد فهم تهزُّبه من الجواب، فقال مضطَّرًّا:

- يا ولدي، إن أول من ادَّعى قدسية رسائل بولس وأنها بوحى من روح القدس هو مرقيون الهرطوقي، ثم إيريناوس أسقف مدينة ليون.. إن الوحي يا بُني سر علوي لا يكون إلا للأنبياء، الحق أن بولس من جملة البشر الذين يجوز عليهم الخطأ والصواب، وأعماله هو وتلميذه لوقا هي أعمال بشرية مهمة، نعتبرها نحن المسيحيون من جملة التاريخ الكنسي الذي يقبل النقد والفحص، أما جعلها أسفارًا مقدَّسة موحى بها من الرب فهذا أمر بعيد<sup>(9)</sup>.

هؤلاء الروميون لا يستطيعون أن يتصوروا رهبانهم دون أن يكونوا آلهة أو أنصاف آلهة، تمامًا كما فعلوا مع كهنة جوبيتير وأبوللو، لقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ودخلت هذه الهرطقات على كنيسة روما إذ كان القساوسة حديثي عهدٍ بالوثنية الرومانية، فلما أرادوا أن يتنصروا لم يجدوا أمامهم إلا رسائل بولس، فعرفوا المسيحية عن طريقه، ولم يكلفوا أنفسهم أن يتعرفوا على أصل الديانة من الكنائس الشرقية.

فظهرت جماعة من اليونان ينادون بجعل المسيحية فلسفة غنوصية، وبدأوا بكتابة أعمال أدبية وروايات مستوحاة من الأناجيل.

أطرق لوسيان مليًّا، ثم قال:

- إذا لاحت لك الفرصة يا بُنيّ أن تمر على الأسينيين فافعل، فإن لديهم أصل الديانة!

- ومن هم الأسينيون يا أبتِ؟!

سكت الأب لوسيان هنيهة وتنفس الصعداء، ثم قال:

- جماعة من زهاد بني إسرائيل الذين آمنوا بمولانا المسيح، لهم بقايا في أريحا وضواحي البحر الميت، إنهم يحتفظون بآلاف اللفائف التي لا تُعد ولا تُحصى من تلك الكتب المقدسة، يخبئونها في جبالٍ جدباءٍ مقفرة بعيدًا عن أنظار الناس خوفًا من أن ينالها أحد بسوء.

العجيب أنهم تنبأوا بخراب أورشليم بعد بعثة المسيح بأربعين سنة، وقد حدث هذا بعد مولانا المسيح بأربعين سنة تمامًا مثلما تنبأوا.

- إن أمرهم عجيب حقًّا!

\*\*\*

خرج جلاريوس إلى ساحة الاستعراض التي حُصِّصت لحفلات الاستعراض والمصارعة، وقد كانت الساحة كبيرة دائرية في الهواء الطلق، وعلى جانبيها يجلس الناس للمشاهدة، وهذه المرة لم تكن المصارعة بين أسدٍ وبين جندي روماني مدجَّج بالسيوف والخناجر، بل كانت مخصصة لمشاهدة أسد أمام فريسته.. مباراة غير متكافئة، فالأسد أمام العُزل من المسيحيين والمسيحيات المساكين الذين لا ذنب لهم إلا رفض عبادة آلهة الرومان والسجود للإله الواحد...

وقف قسطنطين محتارًا مفزوعًا مجبرًا على أن يشهد هذه المشاهد المقززة، والتي يعتبرها الإمبراطور تسلية.

خرجت امرأتان من الباب الحديدي في وسط الباحة، وإحدهما تصرخ، والأخرى تُذكِّرها بالثبات والفرح النعيم وبملاقة يسوع المسيح.. وما لبث أن فتح باب حديدي صغير أشبه بالشرفة الحديدية ثم خرج منه أسد ضخم صدى زئيره يرنُّ أرجاء الباحة.. وجلاريوس مع زوجته وحاشيته يضحكون وهم يشاهدون تلك المشاهد الأليمة..

افترس الأسد المرأتين، ثم دفعوا امرأةً ثالثة تحمل طفلها الرضيع مع طفلين آخرين لها.. والأطفال يصرخون بكاءً.

قال قسطنطين لأحد الكهنة الجلوس:

- وهل الآلهة ترضى بهذا؟

أجاب:

- نعم، هذه من قرابين الآلهة..

أجاب في نفسه:

- لا يمكن أن ترضى الآلهة بهذا.. لا يمكن!

وهنا انتفض قسطنطين واستلَّ سيفه، ولم ينتظر إلى أن ينزل السلام بل أسرع بجوار السور، ثم قفز إلى الساحة ليزود عن المرأة وأطفالها، أما "جلاريوس" و"ماكسيما دايا" فقد ظلا يرمقانه بنظراتهما وعرفا أنه قد أكل الطعم، فقد سنحت لهما الفرصة أن يقتلا قسطنطين بشكلٍ طبيعيٍ دونما تدخُّلٍ من أحد..

أما قسطنطين فقد وقف وهو يمسك بسيفه الفولاذي وهو يتمشَّى ببطء بشكلٍ دائري، والأسد يدور ببطء حوله ينتهر الفرصة كي ينقض عليه...  
وهنا تذكر قسطنطين شريط حياته، منذ طفولته إلى أن أصبح قائد جيوش الرومان، واعتصرته الأفكار وأحاطته التساؤلات بسهامها من كل اتجاه، هل إذا قُتلت يا قسطنطين في سبيل الدفاع عن المسيحيين سوف ترضى عنك آلهة الرومان! أم ستكون مذموماً في كل حال، وتكون موتك مقابل لا شيء! سرعان ما قال في نفسه: - أنا أو من بالآلهة التي ترضى بالدفاع عن المظلومين والمحرومين، أما الآلهة التي ترضى بقتل الأطفال والنساء من بني البشر، فلا شأن لي بها.

أحسن قسطنطين بقوةٍ غير عادية! قوة تسري في جسده، ورمق الأسد يندفع إليه بسطوته وزئيره، فضربه قسطنطين ضربة بالسيف أصابه بجرح عميق، إلا أن الأسد لم تفتُر عزمته، وراح يدور ثانيةً حول قسطنطين متأثراً بجراحه، ثم قفز عليه مرة ثانية، وقف قسطنطين والأسد يقف على قدميه كأنه إنسان واضحاً كلتا ذراعيه على كتفي قسطنطين. كانت عضلات قسطنطين بارزة وهو يحاول أن ينفك من الأسد. وقع على الأرض ووقع سيفه.. إلا أن الأسد وقع هو الآخر على جرحه وزئيره يرحّ جنبات الساحة.

أما فاليريا زوجة جلاريوس فقد ارتعبت وأومات إلى زوجها، قائلة:  
- لا بد أن تُخرج الحراس لإنقاذ أمهر قادتك وقائد جيوشك.  
فضحك جلاريوس، قائلاً:

- اسكتي يا فاليريا.. إن الرجل يريد أن يُبدي شجاعته، فلماذا تحرمينه من هذه اللحظة التاريخية؟!

ثم تابع ضحكاته بضحكاتٍ متقطعة قائلاً:

- إننا فعلنا هذه الحفلة الدموية حتى نعلم من هم الخونة داخل القصر، وقد سقط قسطنطين. هل تعلمين يا زوجتي العزيزة أن هذا الأسد اخترناه من بين خمسين أسدًا، وقوته تعدل ثلاثة أسود مجتمعة!  
نظرت إليه فاليريا وهي مذهولة مما يقول، وتعجبت كيف يترك أقوى قواده ليموت هكذا..

أما جلاريوس فقد لاحت على وجهه ابتسامة خبيثة وهو يفرك في يديه،

ينتظر اللحظة الحاسمة ليموت غريمه قسطنطين!  
أما قسطنطين فقد تمالك شتات نفسه وهو يصرع الأسد، وقد أخرج  
خنجره الفولاذي من فخده، وطعن الأسد طعنة اخترقت قلبه، ولم يسمع  
الحضور إلا زئيرًا أخيرًا للأسد أرعبهم جميعًا، واشربت عنق جلاريوس مندهشًا  
من شجاعة وقوة قسطنطين من جهة، ومتحسرًا على فساد مكيدته التي  
دبرها له!! ووضع يوليوس كلتا يديه على وجهه متحسرًا.

وفي اللحظة ذاتها توجه قسطنطين إلى المرأة وقد أغمد سيفه، قائلاً:  
- حمدًا للآلهة على سلامتك وسلامة أطفالك.

فتقدمت المرأة خطواتٍ ووقفت قبالة، وقالت وقد تلعثت من شدة  
الفرحة:

- لا أدري.. لا أدري ما أقول لك يا بُني، إنك أنقذت حياتي وأطفالي من  
الموت المحقق.

ثم تنهدت من التعب، قائلةً:

- لكن.. تأكد يا بُني أن الله سوف يكافئك.. نعم سوف يكافئك، وسيكون لك  
شأن عظيم!

\*\*\*

منرفينا الجميلة

ألقت شمس ما قبل المغيب الذهبية أثيرها الوضّاء على الأفق، واستقبل  
القادة قائدهم الأعظم استقبال الفاتحين بعد تلك المعركة الشرسة مع الأسد،  
وغطّ جلاريوس في نوم عميقٍ مكبوتٍ في حسرة، لعله لم يستيقظ إلا من  
كوابيس قصّت مضجعه وبات في أسوأ ليلة، بينما خرجت الجواري بين الظل  
الممدود والماء العذب والنسيم العليل وأضيئت الساحات، وتربّعت على وجه  
قسطنطين قسّمات الارتياح، ثم جيء بطنافس حريرية ليجلس عليها بين  
أولئك الغوادي اللاتي تغنّين بشجاعته وجسارته، وجاءت طائفة من الحشم  
يحملون الخبز واللحوم والخضراوات والبيض والفاكهة وأكوابًا من النبيذ  
المنقوع.

لاحظ قسطنطين إحدى الفتيات الغانيات كانت تُدعى منرفينا وكانت من  
أجمل ما يكون، تحت جبينها يبدو لينا كزهرة الأقحوان.. تعكس قسّمات وجهها

آلامًا مكبوتة، ونظراتها كسيرة كأنما يغشى عينيها البكاء... كان صوتها شجيًّا ناعمًا، كصوت أطف مخلوقة صغيرة، تنضح طهارةً وعفةً، وتسيطر عليها عصا جنيّة ساحرة، فلم تدعها تترك بيضتها المسحورة، وأظهرت وجهًا بديع الملامح، وقامة هيفاء، وعينين زرقاوين تطفحان بالحشمة والرصانة، وصدغين غصّين بريئين.. إن عروس الماء الساذجة التي تخرج من ينبوعها، ليست أكثر وجلًا، وأشدّ بياضًا، وأوفر سذاجةً من هذه الفتاة التي يبدو أنها لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، والتي تجهل الشر، ولعلها تجهل الحب أيضًا، ولا عواصف الحياة؛ كانت للوهلة الأولى تبدو كقديسة خرجت من كنيسة بعدما صلّت إلى الله ورجت الملائكة؛ كي تفوز بنعمة دعوتها إلى السماء.

اختارت الفتاة رقصة أخذها الرومان عن الإغريق، وشرعت إحداهن تضرب بالقيثارة لحن تلك الرقصة، فعندئذ خسرت الفتاة حياءها، وأسدلت داجي شعرها على ناصع عنقها، ترفع أناملها البيض متمائلة، هذا وثغرها وعيناها متساوية في الابتسام، فاندفعت تنشد الغناء محاكيةً بصوتها نغمة القيثارة، ومضت على ذلك مدة، فله ما أرشق حركاتها، وألطف سكناتها.. تارة ترفع يديها بسرعة وتارة تخفضهما على مهل، وأحيانًا تثب وثوب النشوان بخمرة السراء، ثم تشني إلى الورا انثناء من ردّه العياء، ثم تلفت رأسها وتلوح، كمن أرادت نداء غائب، ثم تميل دانية بخدها الوردية، ثم تطير على ذلك المرج النضير وهي تناسب بين حركاتها وغنائها وأصوات العود والقيثارة. اختار قسطنطين السكوت لكنّ عينيّه تكلمتا عن فمه، انتهت الرقصة وقد أخذت بلبّ قسطنطين وقلبه.

وجال الخمر في الماء، وجال السكر في معاطف قسطنطين، فكاد يرنح عليه، ويقع تحت أقدام الفتاة معترفًا بإعجابه بها، لكنه ملك نفسه، ولم يعزب عنه إدراكه، ولم يكن قسطنطين ممن يتقي غائلة أو يداري حبه لجارية، فاستجمع قواه التي أهدرت، فلبس ثوب الوقار وفتحها برغبته أن تكون جاريته الخاصة لتقوم على شؤونه كما هي عادة الأمراء في تلك الأزمنة.. ووافقت منرفينا، إذ لم يكن منها إلا طاعة سيدها.

\*\*\*

وفي غرفته الخاصة، بينما راح يشعل الشمعة الموجودة قرب السرير،

جلبت منرفينا الماء الساخن لتدلك قدم سيدها، وهيأت السرير، وساعدته على النوم. وبعد وقت طويل، قضته الخادمة في إتمام رغبات سيدها.

- ما اسمك؟

أردفت في وجل:

- "منرفينا" ..

بترت كلامها فخرجت الكلمات من ثغرها المتبسم وجلى تعكس احمرار خديها بلا موارد...

- "منرفينا.. منرفينا".

ظل يرددها في تناغم:

- اسم جميل لوجه صبح مشرق، ولونك يفصح جنسك الآري الجميل. اقترب منها واحتضنها بعينيه، ثم ضمَّها بوجدانه إلى صدره، فشعر بأنفاسها تخبو مطمئنة كقطعة خائفة بين ذراعيه.. وجاءت اللحظة ليعلن فيها عن حبه لها، واتخاذها جارية له، فاستهلَّ ذلك وفاتها بأن تكون جاريته الخاصة. في صباح اليوم التالي، كانت أشعة الشمس تتسرب في خلال شقوق النوافذ المغلقة إلى الغرفة التي ينام فيها قسطنطين، ولكن الستار المسدل على النوافذ كان يخفف من قوة ضيائها، فتسمح الأضواء الباهتة برؤية السجادة الوثيرة التي فُرشت بها الغرفة.

أخذ يتأمل جاريته النائمة التي تمد له رأسًا مغرَّبًا يُعبِّر في رقادها عن ملذات الحب، كانت منرفينا ممددة بالقرب منه كطفل صغير، وجهها يستدير نحوه، فيخيل إليه أنها تنظر إليه، وترتسم في عينيها ابتسامة عذبة، أما لون بشرتها فكان في تلك الآونة مشرقًا، وأذنها الصغيرة البيضاء والحمراء، المحاطة بالشعر الناعم.. لم يشأ قسطنطين أن يوقظها، فلعله كان يُهدد رقادها حلم

جميل!

\*\*\*

دخل قسطنطين ويصحبه ليسينيوس إلى الحانة التي تعجُّ بالأمراء والجنود، فُتحت أبواب قاعة فسيحة مخصصة للأمراء تتوسط جدرانها نوافذ عريضة عالية، تتناثر في أركانها صوانٍ فضية ذات نقوشٍ رومية فريدة تتراصُّ عليها أكواب وقنينات شراب بشكلٍ متناغم، كانت الموسيقى هادئة، أمراء وأميرات الروم يروحون ويجيئون في تكاسل يقطعون القاعة عدة مراتٍ ذهابًا وإيابًا.. الحانة شبه مظلمة تقريبًا مع وجود ضوءٍ خافت لتعطي جوًّا هادئًا.

دخل الرجلان البهو الخاص بالأمراء، ظهر رجلان آخران من وراء ستارٍ شفافٍ لامع يبدوان من بعيد كشبحين أحدهما يبدو نحيفًا ويظهر له خيال لحيته الطويلة، والآخر يبدو كأنه يوليوس! اقترب قسطنطين وليسينيوس من الستار اللامع فسمعا كلماتٍ متناثرة: - "مارتينوس الخائن.. رأيتك غير مرة يقابل تلاميذ لوسيان الأنطاكي"... "راقبه واقبض عليه متلبسًا"..

سادت لحظات صمت لاستيعاب ما يحدث، ثم تحرك العقل الجمعي لهما وبدءا ينظران إلى بعضهما، تتحرك أعينهما باضطراب، أشار قسطنطين إلى فمه لكي يصمت، ثم سحبه بهدوء إلى الخارج لئلا يسمع يوليوس أنفاسهما من خلف الستار.

قال قسطنطين:

- "هل سمعت ما سمعتُ"؟!

- أجل، إنهما يوليوس وعزرا! مؤامرات دنيئة من يوليوس بإيعازٍ من جلاريوس والمدعو دايا، ما الجديد على هذه الثلة الدنيئة؟! لكنَّ الغريب أنهم يتآمرون على أحد أعضاء البلاط.

قال جملته الأخيرة وسكت متجرعًا بعضًا من الشراب، حتى فرغ من كوبه:

- أجل، وبوليوس أخذ أوامره من جلاريوس.

- عجيبٌ هذا الكلام، لا أصدِّق أن صديقنا مارتينوس مسيحي.

- ولماذا لا تصدق؟ وهل كنا نشك في مارسيللوس؟

- وما العمل إذًا؟

أجابه ليسينيوس:

- سواء كان مارتين مسيحيًّا أو ليس مسيحيًّا، فإنه يجب علينا إنقاذه من

هؤلاء.

عبث قسطنطين بأصابعه في مؤخرة رأسه وهو يقول:  
- أنقذه أنت، أما أنا فسانقذ نفسي بهذا القدر من الجعة!

\*\*\*

مقتل يوليوس

اصطبغ الأفق باللون الأحمر البرجوازي مقتربًا من لون الدم، كأن السماء تتنبا بما سوف يحدث في هذه الليلة الكثيبة، فمع قرب مغيب الشمس كانت الكنيسة يحيطها سكونٌ غير عادي! ينتابه صوت بومة بعيدة أو صوت ذئب تردد صداه وسط الظلمة.. النهر ساكن على غير عادته. كانت أوراق الأشجار المكسوة بالصقيع تتساقط وتهمس مع نقيق الضفادع. دخل مارتينوس إلى حديقة كنيسة لوسيان ممتطيًا جواده الأصهب، يشد لجام جواده ذي الصدر العريض مُحدثًا جلبة، لم تتوقف أنفاسه اللاهثة. ولم يتوقف الفرس عن الحركة بنشاط.

- أهلاً بصاحب الفخامة مارتينوس صديق البلاط الملكي.. كان الصوت

ليوسايوس..

قال مارتينوس صارخًا والعرق يتصبَّب منه جرَّاء المجهود:

- لا وقت لديكم أيها الآباء!! لقد كنا اليوم في اجتماعٍ سري مع القيصر "ماكسيمين دايا"، وأمر بالقبض على جميع الآباء ومداهمة مدرسة لوسيان...  
أسرعوا.. أسرعوا.

فزع التلاميذ جدًّا من هول ما سمعوه من مارتينوس، وكان الخطب جلاًّا عليهم، لكنهم تمالكوا أعصابهم، وأخذوا يفكرون فيما سيقع عليهم، وماذا عليهم أن يفعلوا..

خرج فجأة من وسط العباب جوادٌ قرمزي كان يمتطيه القائد يوليوس، يتوسط جوادين آخرين يركبها جنديان روميان، في حين كان عزرا اليهودي يختبئ خلف الأشجار بالجانب الآخر من النهر.

قال يوليوس مبتسمًا:

- لقد كنت أشك فيك منذ زمن..!!

كانت الخيل تزفر وتُحمم في حين كان يوليوس يتمشَّى بحصانه حول

مارتينوس ببطء، وقال بابتسامةٍ ماكرة ترتسم على شفثيه: - المُبجَّل  
مارتينوس، قائد العمليات.. مسيحي! يا للآهة.  
أنت مقبوض عليك متلبسًا بتهمة المسيحية يا سيد مارتينوس.  
- التزم حدودك أيها القائد! هل أنت مجنون؟ تقبض على عضو البلاط  
الملكي؟!

- في الخيانة يا سيد مارتن، ليس هناك رُتب.

أجابه مارتن على الفور:

- إن كنت تريد القبض عليّ، فاقبض عليّ بسيفك.

انقضَّ مارتينوس على الفور، حيث كان أشدِّ مرآناً على النزال من يوليوس  
ومضاه نضاله المشحوذة وفروسيته الفائقة وخفة جواده جعلاه الرجحان  
عليه، فرمى بجواده وقطع بركابه العريض الحاد جنب حصان يوليوس الأيمن  
من تحت الركب، فلما جُرِح الحصان هوى تحت فارسه كالبناء المتهاوي  
واستلمت الأرض الحصان منبسطاً مع سهيلٍ مدوِّ!

نهض يوليوس وتقدم نحو مارتينوس والسيف شاهر بين يديه، فقفز  
مارتينوس عن ظهر جواده وصدّم يوليوس صدمة عنترية متلقياً ضرباته إلى  
أن تكسرت نضاله على نضاله.

قابله مارتن بسيفه الفولاذي، والتقى النضلان مرةً أخرى، صدَّ مارتن ضربة  
ثانية، ثم الثالثة، ثم تراجع خطوات.. سلسلة أخرى من الضربات من يوليوس،  
ثم تراجع من جديد.. وقف التلاميذ بصبرٍ صامتين، وجوههم بلا معالم، تتبدل  
حركات أعينهم في سكونٍ يملؤه الزعر، لكنهم لم يحاولوا التدخل لسبب  
بسيط هو أنهم غير ماهرين في القتال..

أما يوليوس فقد كان يلهث جراء المجهود، وأنفاسه تخرج في شكل بخار  
ساخن، واكتسى سيفه بالصقيع الأبيض وكان يحتضن السيف بذراعه.. ثم  
تأخرت حركة يوليوس الدفاعية لحظة واحدة، فشقَّ سيف مارتن الحلقات  
المعدنية تحت ذراع يوليوس، وأطلق الجندي الشاب صرخة مفعمة بالألم،  
انبجس الدم الساخن من بين الحلقات ليخرج بخاره في البرد، وبدت  
القطرات حمراء كاللهب وهي تقطر على الثلج. مسح يوليوس جانبه بيده.. ثم  
هوى على ركبته، وما لبث أن وقع على الأرض..

وسرعان ما انقضَّ الجنديان على مارتينوس يبارزانه، فضرب أحدهما بقدمه فانكفأ على الأرض وطعن الآخر، فهرب الجندي الأول على الفور.  
رفع عزرا - صوته قائلاً:

- اللعنة عليكم.. اللعنة عليكم.. سوف تلقون حتفكم جميعًا.. قال ذلك على ضفة النهر شمال الجسر، خائفاً من أن يعبر الجسر حتى لا يلقى ما لقي سيده يوليوس.. فأثر أن يسرع إلى إبلاغ البلاط الملكي.  
صرخ يوسايبوس:

- أيها التلاميذ هلمُّوا والحقوا بهذا الرجل اليهودي لئلا يبلغ عما رآه..  
لكن ما لبث أن هرب عزرا بعيداً بجواده، وذاب في الأفق البعيد.  
قال آريوس:

- نحن خائفون عليك سيدي مارتينوس، ماذا ستفعل الآن؟  
وضع مارتن يديه على نصل السيف، كانت ثلوج أواخر الشتاء قد سقطت ثقيلة، مع بصيص من أشعة القمر غاص مارتن في ذلك البياض والصقيع، وقد رفع خوذته لتسطع أشعة القمر على شعره، كان يحتضن السيف بذراعه قائلاً:  
- وممَّ أخاف يا سيد آريوس؟! إن الإنسان مصيره إلى الموت حتماً، فإما أن يُنصر الحق على يديه في الدنيا ويعم الخير أرجاء المسكونة، وإما يكون الإنسان حليفاً للباطل.

ثم جثا على ركبتيه وفتح كلتا ذراعيه ونظر إلى السماء، قائلاً:  
- وأما أنا فقد نزعت ثوب الخوف والهلع، وآثرت ما عند الله الواحد.

\*\*\*

كان قد وصل عزرا إلى نيقوميديا، وقسطنطين في عربته التي تجرُّها الخيول، فقابله عزرا فرحاً، وقد رفع يديه إلى السماء يَمَنَّةً وَيَسْرَةً، وهو يقول:  
- قتلوا يوليوس.. قتلوا يوليوس!

أمر قسطنطين السائق بأن يوقف العربة:

- سيدي سيدي، لقد قتلوا يوليوس..

- ومن هؤلاء الذين قتلوه؟

- مارتينوس الخائن قتله، مع تلامذة لوسيان المهرطق.

- لا عليك، سأصرف أنا.. وأما أنت يا عزرا فقد أحسنت، وتستحق المكافأة

بصرّة من النقود.

- أنا أخدمكم يا سيدي دون أي مقابل.

ضحك قسطنطين بقوة غير عادية، وقال:

- لا! لا بد أن أكافئك يا سيد عزرا.

تحسّس قسطنطين في جيبه، ولمعت عينا عزرا تشوقًا إلى المكافأة المرتقبة، وأومض بريق من جيبه، بريق خنجر! وتم كل شيء بسرعة. فما كاد عزرا يرى اليد وهي تتحرك حتى كان الخنجر قد خرق ثوبه وجلده واندسّت ظُبتَه بين ضلوعه. حتى إنه لم يصرخ، ولم يصدر عنه سوى حركة ذهول وجحوظ عينه، واستنشاق أخيرة!

خطا خطوات للخلف وهو يمسك بالخنجر المندسّ في صدره، ثم هوى

صريعًا على الأرض.

\*\*\*

تقدمت فرقة من المشاة، ترتدي دروعًا قديمة قصيرة، وصديريات من المعدن، وتنورات جلدية قصيرة تتدلى وخوذات فضية ذات عُزْف من الأحمر القاني. صوت اصطكاك أقدامهم يرنُّ الأجواء، متجهين إلى كنيسة القديس لوسيان؛ إذ كان رجال الشرطة يتدفقون من البوابة الخارجية للمدرسة ليتجهوا مباشرة إلى الغرفة التي يقيم فيها الأب لوسيان، وهم يحملون السيوف، كان عددهم أكبر من أن تستطيع الغرفة استيعابهم، فتعالت أصوات الصياح وهرب تلاميذ القديس لوسيان جميعًا، لم يبقَ إلا آريوس ويوسابيوس اللذان هُرعاً إلى الأب لوسيان لينقذاه، رفع يوسابيوس يديه تضرُّعًا إلى السماء، وراحت شفتاه تتحركان بدعاء صامت، حينها تذكَّر آريوس كلام الأب لوسيان عن الدهليز السري، فصرخ عاليًا: - الباب الحجري.. الباب الحجري.

تساءل يوسابيوس:

- وما الباب الحجري؟

- ثمة دهليز سري بداخل كنيستنا يؤدي إلى خارج المدينة.

هُرع الشبان إلى الأب لوسيان محاولين حمله، قال الأب لوسيان:

- أسرعاً أنتما يا ولديّ، واتركاني؛ فأنا سوف أثقل حركتكما.

قال آريوس:

- لن نتركك يا سيدي.

صرخ لوسيان بقوة:

- نفذاً ما أمركما به، لا وقت لديكما، أسرعاً.. أسرعاً.

هُرع آريوس ويوسابيوس إلى غرفة المكتبة، وأضاء مصباحًا زيتيًا صغيرًا ليلتمسا على ضوءه طريقهما، أزاح آريوس الكليم وحرك العتلة الحديدية، عاونه يوساب بكلتا يديه ليفتحا الباب الحجري، حتى ظهرت فتحة السرداب التي تسمح بالكاد لرجلٍ واحدٍ بالمرور منها.

هبط الدرَج الحجري الحلزوني بحرص شديد حتى أتمّاه فدلّفا قبوًا مكتومًا، وعلى ضوء قنديل ووقفاً يتأملان الغرفة الخائقة، عشرات الصناديق المترصّة بأحجام مختلفة وأجولة منتفخة مائلة على جوانبها منبعجة من أسفلها.

عقب التاريخ يسدُّ الأنوف، ورائحة الحبر تنبعث من المخطوطات، جمع

آريوس ما يستطيع جمعه من اللغائف المخطوطة للأناجيل، وحمله في حقيبة كبيرة.

تلقت آريوس خلفه وهو يتحسس جدران الدهليز الطويل المفضي إلى رواق كبير حتى عبره في خفة، ثم انحرف يمينًا ووقف يلتقط أنفاسه هنيهة وهو يتلفت خلفه؛ ليتأكد أن أحدًا لا يلاحقهما، إلى أن وصلا إلى نهاية الدهليز.

ظل آريوس ويوسابيوس يبحثان عن بوابة الخروج، فلم يستطيعا بعد محاولات كثيرة حتى ظنا أنهما لن يخرجوا من هنا أبدًا!

تكررت المحاولات حتى تحسس آريوس تجويفًا لأحد الحوائط بكفيه، فلما شعر بانبعاج بسيط دفعه بقوة فانفتح باب الخروج للتو! فتهلل وجهاهما، وحمدا الرب أن استطاعا الخروج!

\*\*\*

تقدم الشابان مخترقين الغابة فوقهما صراخ طيور الليل، في حين تتلأأ نجوم السماء من بعيد، وتُنذر السماء بالمطر من بين سحبٍ ساكنة، كان يوسابيوس يثرثر ويضحك، وأحيانًا ما يشاركه آريوس الضحك، لكنهما مع ذلك كانا يشعران بالرهبة والخوف من الليل، وقلباهما يخفقان بقوة في صدريهما.

في الطرف النائي من الغابة وفي غضون ساعة قصيرة من الزمن، وصلا إلى إحدى القرى المجاورة، بدا كل شيء هادئًا، والتمثيل البيضاء الواطئة في الطرقات كانت تومض بوهن في قلب الظلمة، يظلها بشكلٍ مستعرض بروافد خضبية قاتمة، لم يريا نورًا في أي مكان، تقدّما إلى الأمام مارين بالمنازل الصامتة، اجتازا سياتًا وتلا، فإذا بهما يقفان في حديقة، تعلق بأقدامهما التربة الرخوة، ثم هبطا الدرج عند جدار منزل، كانت هناك فتاة قروية شابة بجداول فاحمة طويلة، أعطيا لها نصف رغيف من طحين الدير الأبيض وشيئًا ملفوفًا من البخور أو شمعًا ذاتيًا من شموع المذبح. انسلت المرأة ذات الجداول عائدة، واتجهت تتلمّس طريقها لا يهديها ضوء إلى الباب وطال غيابها، لكنها عادت مع إبريق حجري رمادي اللون، ناولته ليوسابيوس فشرب ومزّره إلى آريوس، بعدها سألاها عن الطريق؛ فدلّت آريوس إلى طريق الحرير الذي تمر من خلاله القوافل المسافرة.

استقبلا الطريق وسط زقزقة العصافير، والسماء تجاهد لكي ترفع ظلمة

الفجر، والعتمة تنجلي شيئًا فشيئًا، التفت يوسايبوس إلى صديقه، وقال: - جننا إلى السؤال المهم، إلى أين أنت ذاهب الآن يا صاح؟! ألا تأتي معي إلى بلدي في نيقوميديا، فالمكان هناك آمن بعيدًا عن الأنظار.

تطلع آريوس في وجه صاحبه بعينين مُلئتَا حسرةً، ثم قال:  
- يعز عليّ فراقك يا يوساب! وددتُ ألا نترك بعضًا أبدًا.. إلا أنني قد عهدتُ على نفسي أن أسافر إلى الإسكندرية عروس البحر ومحط أنظار العالم وقلعة العلوم.. هناك سوف أجد بُغيتي وأروي غليل شبقِي من المعرفة التي كثيرًا ما بحثتُ عنها.

لاحت لحظة الفراق المرير.. لحظة فراق الصاحبين آريوس ويوسايبوس اللذيين تعانقا عناقًا حارًا تذكر فيه آريوس لحظة التيه الأولى التي مرَّ بها في هذا المكان، وما كان يجول في خاطره من قلق قبل أن يجده يوساب مصطحبًا إياه إلى مدرسة القديس لوسيان، تذكر كيف اطمأن قلبه لبداية طريق العلم، وكيف أصبح هذا الصديق ملاذًا آمنًا يلجأ إليه، حين تتصعب عليه الأمور ويضيق العقل بالأفكار حتى يكاد يختنق.. ظل كلُّ منهما محدِّقًا في الآخر لثوانٍ مرت كأنها ساعات من استعادة الذكريات الممزوجة بالامتنان، ومن الأمل في اللقاء من جديد، لعل اللواء الذي جمعهما من قبل يرضى عنهما ويجمعها مرة أخرى.. وعلى رغم أن آريوس كان يخشى مرارة هذا الفراق كثيرًا خاصة أن الوحدة هي الشعور الوحيد الذي سيرافقه الآن، فإن رغبته في السفر إلى الإسكندرية كانت تُفقيه من شروده وتُعيده من مسار تردده، حتى ألقى تحية الوداع على صديقه بعينيه، ليرحل كلُّ واحدٍ منهما سائرًا في طريقه..

مضى آريوس في طريقه ثم توقف هنيهة، واستدار بجذعه إلى الخلف، فوجد يوسايبوس قد صنع صنيعه، وقد استدار ينظر إلى الخلف أيضًا.. لحظات صعبة، لكنها الأقدار..

هل سيتقابلان مرةً أخرى أم ستعصف بهما الأيام؟!

\*\*\*

ضوء الشمس الباهتة يفتersh الجناح الخاص الذي يرقد فيه قسطنطين، عندما تهبُّ نسمات هواءٍ ربيعيةٍ مباحثةٍ من النافذة، فثُبَّعثر خصلات شعره الكستنائي المتموِّج، تلك النسمات كانت محملةً ببعض (روائح) الأزهار ذات العبق المميِّز. وقف قسطنطين أمام النافذة يشم عبير تلك النسمات الربيعية، وشعر أن ثمة أخبارًا سارةً في طريقها إليه؛ إذ رأى في ذلك فألاً حسناً.

سويغات قليلة ودخل عليه ليسينيوس يُبشره أن مبعوثًا من الحرس الخاص لإمبراطور الغرب في طريقه إليه؛ شعر قسطنطين بسعادةٍ لا توصف في صدره، إلا أنه استقبل الخبر بهدوء رجال الحرب.

دخل المبعوث بالرسالة، في حين كان قسطنطين وليسينيوس يجلسان على كنبَةٍ وثيرةٍ، هذا يلاعب قطه الأشوس الذي يترجَّح بين يديه يَمَنَةً ويسرَةً مُحدثًا جلبة، وذاك يحتسي الخمر، رفع قسطنطين نظره إلى الرسالة الجلدية ليقرأها، وإذا بها رسالة رسمية تنتظر خاتم الإمبراطور تتضمن اشتراك قسطنطين في حرب البرابرة، ظل يُفكر فيما صارت إليه حالته، ويأمل في إتمام بقية رغباته وطموحه نحو الغرب حيث يقطن والده في بولوني بعيدًا عن جلاوريوس وتحكماته!

كان المبعوث مرتبًا ينظر حوله يَمَنَةً ويسرَةً وهو يتفَرَّس في وجه ليسينيوس، ففهم قسطنطين بفراسته أن المبعوث معه رسالة أخرى غير رسميةٍ من أبيه، يريد أن يُسلِّمها له على انفراد.

ارتسمت ابتسامة خفيفة ممزوجة بالجدية والصرامة على وجه قسطنطين وطمانه أن يدفع الرسالة الأخرى له، فبدأ يفتحها على مهلٍ ويقرأ تلك الكلمات التي أخذته بعيرها إلى الماضي: "إلى ولدي وفلذة كبدي قسطنطين، منذ زمن مضى وأنا أريد أن أبعث إليك لتأتينا في المملكة الغربية حيث يقطن والدك في بولوني، وما كان يمنعني إلا العهد الذي كان بيني وبين دقلديانوس وماكسيمانوس اللذَّين كنت قيصرًا تحت سلطتهما، أما الآن فقد أصبح أبوك إمبراطورًا، فما الذي يُجبرني أن أبقى ولدي عند جلاوريوس، وهو صنوي ولا فضل له عليّ؟! يا بُني إني قد هرمت، وأشعر بأن كل يومٍ يمضي

أقرب من الموت أكثر، لم أعد أضمن تلك الحياة اللعينة والموت يحصد كل من عرفتهم واحدًا تلو الآخر، لقد بُتُّ أنتظر الموت في كل لحظة وباتت الآلهة تطلبني، ولا أدري لمن تكون الإمبراطورية من بعدي! تذكّر يا ولدي أن فُرص الحياة قليلة، والحياة لا تضحك إلا لمن يغتنم تلك الفرص. أبوك المحب: قسطنطيوس".

قرأ قسطنطين تلك الكلمات وراحت الذكريات تطوف بمخيلته بسرعة وهو يختار بعضها ليتوقف عندها للتفكير، وراح يشتمُّ عبق الحنين الذي أخذه إلى الماضي البعيد متذكرًا مراحل طفولته مع أبيه، وهو ما زال يتعلم المبارزة بالسيف وسط الحقول الأوروبية الرائعة؛ لكن سرعان ما تذكّر أن جلاريوس لن يوافق على سفره لأبيه، فشرّد عن قراءة الرسالة، وأخذ يُحدّق في كأسٍ معدنية يديرها بين أصابعه، ولم ينتبه إلا على كلمات المبعوث: - لعل سيدي اقرأ الرسالة!

انتبه قسطنطين على وقع كلماته، وظل حائرًا، وأمره بالانتظار قليلًا، حتى يتشاور مع ليسينيوس.

مال ليسينيوس على قسطنطين، وقال:

- لعل الموقف يبدو صعبًا لاتخاذ قرار.

ابتسم قسطنطين ابتسامَةً ثعلبيةً، وقال وهو يفرك كلتا يديه:

- قسطنطين لا يصعب عليه شيء! لقد عشنا طويلًا كذئاب صيدٍ، وحن الوقت) الآن أن نعيش كأسودٍ كاسرةٍ.

ترك قسطنطين المجلس، واتجه نحو النافذة المُطلّة على الجوّاري الحسناوات، ثم لمعت عيناه، وقال:

- أنسيت أن الليلة حفلة سمرٍ ورقصٍ؟ لا أشك أن جلاريوس سوف يسكر

الليلة كعادته! أما الباقي فدعه لي!

اقرب منه ليسينيوس وهو يكتّم ضحكه بصعوبة، ونظر معه نحو جناح

الجوّاري، قائلاً:

- أتقصد؟

وسرعان ما انفجر الرجلان بالضحك بعدما أدرك كلُّ منهما ما يدور في ذهن

الآخر.

عشرات الأمراء يروحون ويجيئون حاملين أكواب الخمر ومُحدثين جلبنةً، كانت الأركان تنتشر بها الأرائك بأحجامٍ مختلفةٍ بوسائد حمراء قانية، وتمثالا جويستير وأبوللو يقفان شامخين في أركان البهو الملكي. ألهمت الوليمة عقول الجميع، فأخذ كلُّ واحد منهم يأكل عندما يتكلم، أو يتكلم ويأكل معًا، ويشرب دون أن يحسب حسابًا لمفعول هذه السوائل التي يتجرَّعها، فقد كانت الخمور معطرةً لذيذةً، وعدوى الانغماس في لذائذها تمكَّنت من الجميع، أراد جلاريوس أن يبعث الحياة في مدعُوِّيه فأمر بأفخر أنواع النبيذ المُعتق، فأصبحوا في نشاط كالجياذ الحرة، ولسع أبدانهم سوط النبيذ، فتركوا عقولهم تعدو في فراغ التحليلات التي لا يُصغي أحدٌ إليها، وبلسانٍ ثقيلٍ راحوا يقصُّون أخبارًا لا تجد من يهتم لها، وبقيت النساء متمنَّعات خجولات، وأسرعن بالالتفاف حول الطاولة كسرب من النحل يدندن في خليته.

لكن جلاريوس فضَّل أن يتدبَّر بثياب الفضيلة، ويظهر بمظهر الواثق بنفسه، وهكذا؛ فإن المؤامرة التي حاك خيوطها قسطنطين كادت أن تُمنى بالفشل، إلا أن قسطنطين لم يجد بدًّا من أن يستخدم الورقة الثانية من الخطة! سرعان ما خرجت فتاةٌ في رداؤها الأحمر الذي يكشف مفاتها بدقة، لمعت عينا جلاريوس وهو يقترب منها مطوقًا خصرها بذراعيه من الخلف، وراح يغمرها بالقبلات في حين تحاول الابتعاد عنه، حينها لمعت عينا قسطنطين واصطحب معه مبعوث إمبراطور الغرب ليعرض عليه الرسالة الملكية. دفع جلاريوس المبعوث بيده بعنف، فهوى على الطاولة، ثم عاد إلى الحسناء ونظرات عينيه تجعله يبدو كضبعٍ يتضوَّر جوعًا؛ فباغته قسطنطين من خلفه معطيًا إياه الرسالة.

فقال بحزمٍ متأفِّقًا وهو يترنج من السكر:  
- أفُّ لك يا قسطنطين، أنت دائمًا تُعكِّر صفو حياتي، ماذا تريد في تلك الساعة؟!

- تلك رسالةٌ تتضمن اشتراكي في حرب البرابرة وتنتظر توقيعك يا سيدي!  
بدأ جلاريوس بقراءة الرسالة وهو يفرك عينيه ليفيق من السكر، ويغمض

عينًا وبقراً بأخرى، نظر قسطنطين إلى الجارية الحسناء بعينه البارقتين وكأنه يُذكرها باستكمال مسرحيتها! فأسرعت إلى جلايوس، وأشارت إليه بإصبعها الخنصر أن يأتي إليها، بنظراتها التي قد مُلئت بالخطيئة.  
لم يجد جلايوس بُدًّا إلا أن يوقَّع على الورقة سريعًا ويختمها بخاتمه، قائلاً وهو يترنج من السكر والحسنة تجذبه: - فلتذهب أنت إلى معاركك، وأما أنا فلي معارك أخرى.  
ثم ضحك ضحكاتٍ متفرقة.

\*\*\*

الهروب الكبير

انتَهز قسطنطين الفرصة، وجَهَّز حصانه وجوَّالاً من السبائك الذهبية، التي كانت معه وجمع أغراضه، لكنه لم يسافر على الفور، فقد كان هناك أمرٌ أخيرٌ لا بد أن يصنعه في أسرع وقت، فقد ذهب إلى منرفينا التي علم بحملها، ليخبرها برحيله الغامض.

ترك لها عددًا كبيرًا من سبائك الذهب تجعلها من الأغنياء؛ لكنها كانت متنافرةً حزينةً مشوشةً، وتزاحمت الخواطر في ذهنها.. أين تذهب؟ وإلى من تلجأ؟ ولم لا تموت؟ ألا يوفر موتها على ابنها العار والشنار بفقد والده قبل أن يراه؟ فحتى الرجل الذي أحبته سوف يبتعد عنها بعد لحظات!  
أخذ صدرها يعلو ويهبط، وخفق قلبها خفقانًا شديدًا كقلب عصفورٍ بين يدي طفلٍ شريرٍ.

أضافت في صوت مُتهدِّج:

- ستذهب وتتركني؟

وحاولت أن تقول وداعًا، ولكنها لم تستطع. على أن قسطنطين قرأ الكلمة منطبعةً مع الألم على أساريرها، فعبس قليلًا، في حين قالت بعد أن استجمعت قوتها: - "اذكرني دائمًا يا قسطنطين، اذكرني".

سكت قسطنطين بضع دقائق، ثم عانقها عناقًا حارًّا شعرت منرفينا أنه العناق الأخير!

بكت منرفينا بحرارة، وأما قسطنطين فقد كان قلبه صلبًا، ولم يكن الحب قد سافر معه في صحبة السكر، وما كان لينساق خلف عاصفة الهوى!

فالحياة العسكرية علّمته موت القلب حتى مع علمه بأنها حاملٌ منه، في حين استولى الضعف والفتور على منرفينا!

تدافعت أفكاره طيلة الطريق وحَدَّثته نفسه:

- مسكينة هذه الفتاة، لم تجد إلى الآن قلبًا يخفق لقلبها، ولما وجدت أخيرًا من اطمأنت إليه، إذ بها تفقده!

توقف أخيرًا أمام أحد بيوت الجعة، ليتم أمره الأخير قبل رحيله، كانت أصوات الرجال والنساء تتعالى من داخله في هياج، خطر بباله فجأة أن هذا هو المكان المناسب الذي يبحث عنه، سيدخل وسط زحام السكارى ويجلس ساكنًا في أحد الأركان، ويقضي ما تبقى من اليوم حتى يحل الظلام على المدينة، لا يوجد أمامه حل غير ذلك. أشار إلى تابعيه أن يقفا بالقرب من الباب لتنبهه عند وقوع أي خطر.. حانةٌ مُعتمةٌ وروائحها ثقيلةٌ، قائمةٌ على أعمدة من النخل مكسوةٌ بالسعف، سار بين المناضد والأرائك المتفرقة التي يجلس حولها الشاربون، وأمامهم أكواب الجعة الضخمة والمغطاة برغوةٍ بيضاء!

لم يكن قسطنطين يحب الجعة كثيرًا، لكن عليه الآن أن يجلس في هذا المكان الرديء، ويتظاهر بأنه يشارك الجميع الشراب، وبالفعل أقبل النادل على الفور ووضع له كأسين!

قال قسطنطين:

- لمن الكأس الأخرى!

لم يردّ النادل في بادئ الأمر، بل رفع وجهه المغطى بالدمامل كأنما هو القبح بذاته، ثم قال:

- سيدي! هذا لصديقك هذا.

وأشار إلى رجلٍ خلفه!

نظر قسطنطين خلفه وإذ برجلٍ يقف في سكون، تهلّل وجهه للتوّ:

- أيها اللعين الماكر ما زلت تحب المفاجآت!

كان يقف خلفه رجلٌ وسيمٌ، مليح الطلعة، متأنقٌ للغاية حتى في زيهِ العسكري الذي يرتديه.

ردّ عليه:

- وهل كنت تظن أن ليسينيوس ذا الألف عين لن يعرف أنك في الحي.  
تعانق الرجلان بحرارة وجلسا:  
- أنت لم تأتِ إلى هنا لتناول شراب هذه الحانة الرثة، ونظرًا للأمور الرهيبة  
التي حدثت في البلاط فأنا أعرف ماذا تريد.  
- إِدَّا فما قولك؟

اقترب ليسينيوس وخفض صوته:  
- أنصت إليَّ يا ابن الأغسطس، إن جلاريوس يُدبّر لك مكيدة، وحتماً  
سيُرسِل كلبه الأليف "سفيروس" للبحث عنك.  
خفض قسطنطين بصره، وابتسم ساخرًا:  
- ما عهدت على جلاريوس أبدًا شرف الرجال.  
ثم رفع رأسه، وقال:  
- إِدَّا فالأمر حتمي سأغادر متخفيًا.  
- إِدَّا سأجمع حاجياتي وأتي معك.  
فوجئ قسطنطين بذلك، فأردف ليسينيوس قائلاً:  
- لِمَ الدهشة! والجميع يعلم أنني صديقك المقرَّب، وكأس الويل مُعدَّة  
بانتظاري لأرشف منها على مهل.

قالا في صوتٍ واحدٍ:  
- **إِدَّا هو الهروب الكبير!**  
وضحكا بشدةٍ وارتشفا الجعة التي تناثرت من جراء تلامس الأكواب.  
وما أن اقترب ضوء الفجر حتى كان الصديقان قد انطلقا في صمتٍ عبر  
الأراضي الزراعية، وقد أطلقا لجام جواديهما ليذوبا فوق الأفق البعيد!

\*\*\*

لم يطل هروبهما حتى ساقط الأعين الأنباء إلى جلاريوس، في حين كانت  
الجارية تصبُّ الماء على قدميه وهو يجلس في استرخاء، استأذن سفيروس  
بالدخول، وقال: - سيدي الإمبراطور، أخبارٌ سيئةٌ؛ هرب قسطنطين!  
لم ينبس جلاريوس ببنت شفة، بل ظلت عيناه معلقةً على قائد حرسه غير  
مدرِك الأمر لوهلةٍ، ثم أمسك بالإبريق ليقذفه في وجه قائد الحرس وهو  
يصيح: - أيها البائس أتدري ماذا تقول؟

ثم أمسك برأسه وظل يتذكر ما حصل ليلة أمس.  
نهض جلاوريوس مهرولاً وخلفه يسير سفيروس وهو يمسح الماء الممزوج بالدم من على وجهه، حتى وصلا إلى ساحة البهو، وهناك أمر جلاوريوس بتشكيل قوةٍ من الفرسان للقبض على قسطنطين، وأن تتحرك القوة في الحال.

كان جلاوريوس قد مئى نفسه بأن يُذكر في التاريخ مع الأباطرة العظام، وكان يعلم أن قسطنطين إذا وصل إلى أبيه ستقوى شوكته، وقسطنطين هو الغريم الأشد لجلاوريوس والناس تحبه؛ لشجاعته ونصرته للمستضعفين.  
وقسطنطين لن ينسى أبدًا لجلاوريوس المؤامرات التي حاكها ضده، ولن يسمح له بالجلوس على العرش في سلام.

انطلق الجنود يسابقون الريح في مجموعاتٍ يسبقهم مقتصُّ الأثر، وكانوا قد حدّوا وجهتهم صوب أوروبا. كان قسطنطين يتوقع ذلك، فعلى رغم أنه كان قد سبقهم بعدة أميالٍ وعلى رغم تخفّيه، فإنه كان يعلم أنها لن تكون رحلةً ممتعةً، فكان يواصل الليل بالنهار، ويتنقل بين المنازل بسرعة ليشتت جنود جلاوريوس ولا يتوقفان إلا ليعسكرا، أو لتلتقط الخيل أنفاسها، ثم يعاودا السير؛ إلى أن رجع جنود جلاوريوس بعدما يئسوا من الظفر به.

\*\*\*

مضت شهوْرٌ على ذلك حتى قطعاً منتصف الطريق الأوروبي إلى نهر الراين. مسّت شفتي ليسينيوس ابتساماً عابرةً، وقال وهو كذلك: - ما رأيك! أنا وأنت فقط فارسان شريدان، الجبال إلى جانبنا والآلهة وحدها تعلم ما يقع أمامنا، ولربما تدفئ ابنة مزارعٍ ما، أو خادمة في حانةٍ فراشنا الليلة.  
قال قسطنطين:

- ليس لديك إلا الخمر والنساء؟ إن لدينا واجبات أهم من ذلك!  
أراح ليسينيوس ظهره تحت شجرة، وأغلق عينيه مستمتعاً بنسمات الهواء المفاجئة، لكن ما لبث أن شعر بطنين ذبابة على وجنته، لم يحاول قتلها، بل سمح لها بالتجوّل على وجهه ذهاباً وإياباً على شفتيه وعينيه، مستاءً من سماع طنينها، وأخذت الحشرة في الطيران والعودة مرةً أخرى، وكأنها تختبر صبره، غير أنه لم يُحرك ساكناً مما جعلها تشعر بالأمان، ولكن يبدو أنه أمانٌ زائفٌ،

فما أن استقرت على جبهته؛ حتى رفع يده بحرصٍ شديدٍ وجعلها في وضع استعدادٍ، ثم هوى بها على الذبابة.

صرخ فرحًا بصوتٍ روميٍّ فريدٍ مشوبٍ بحشرة رجال الحرب، قائلاً:  
- "قضيتُ عليك أيتها اللعينة".

وانتفخت أوداجه كأنه انتصر على أعتى جيوش الحرب، وهو ينظر إلى ما تبقى من الذبابة على راحة يده! غير أن انتصاره لم يدم طويلًا، فقد سمع صوت سهيل خيول من وراء الأشجار؛ فسأل قسطنطين: - ما الخطب؟  
أجاب قسطنطين:

- لست أدري، لكنّ ثمة شيء يجري خلفنا.

ثم قام ممسكًا سيفه، وإذ به يرى الرجال قد اندفعوا إليه اندفاع البرد المتساقط، وسمع صليل الصوارم، فصاح قسطنطين: - كمين، كمين، إنه كمين.

رمى ببصره يمينًا ويسارًا ليرى ليسينيوس، وإذا به قد اشتبك مع مجموعة من الفرسان.

وكانت الضربات تنهال من يمينه فأدرك أن الأعداء أطبقوا من ورائه، اندفع قسطنطين إلى جواده وحمل عليهم حاملاً سيفه الفولاذي حتى هربوا سريعًا؛ لكن بعدما سرقوا بعض أمتعتهم.

أغمد قسطنطين سيفه وهو يقول:

- ما هذه السرعة في الهروب! يبدو أنهم لصوص ليسوا متمرسين في القتال.

أما ليسينيوس فقد جرح في كتفه اليمنى، وصرخ:

- نقف على الحدود ونصارع السباع والجنود غير آبهين بالموت، ثم نكاد نُقتل مثل كلاب قطاع الطرق! يا للعار! ويا للشناعة!  
ضحك قسطنطين قائلاً:

- أو إن شئت فقل: نصارع الذباب ونتصر عليه!

صرخ ليسينيوس وهو يمسك كتفه المجروحة:

- وهل هذا وقت مزاح أيها اللعين.

ثم رماه بحجرٍ أمامه.

كان الإجهاد قد بلغ بهما مبلغًا عظيمًا، فما أن حل الليل حتى نزلا عن جواديهما بالقرب من جدول ماءٍ صغيرٍ، لتشرب الجياد وينال الجميع بعض الراحة، فأشعلا نارًا للتدفئة في ذلك البرد الذي آلم عظامهما، وتناولوا الخبز الجاف والملح وبعضًا من الفاكهة، ثم خَرَّا صريعي النوم من التعب. وفي غياهب الأحلام رأى قسطنطين نفسه في حلبة الأسود والظلام دامسٍ من حوله، والجنود يزجُّون بأسيرة مسيحية طعامًا لهم.

صرخ قسطنطين:

- اهربي أيتها الأمة المسكينة، لا تقفي مكانك هكذا.  
لكن المرأة هادئة على نحو عجيب والأسود تقترب، وفجأة أحس قسطنطين بأنه يعرف تلك المرأة.

- يا إلهي! أرجوكِ لا تكوني هي! إنها أمي هيلانة! إنها أمي هيلانة!  
حاول جاهدًا أن يتحرك لِيُنقذها، ولكنَّ قدميه تأبيان الحراك.  
وهنا قالت هيلانة دون أن تلتفت إليه:

- قسطنطين ولدي الحبيب لا تحف، فالرب معنا دائمًا ويرعانا.  
فتح قسطنطين عينيه وحاول أن يحرك قدميه، لكنهما ما زالتا ترفضان الحركة، تملكه الرعب لثوانٍ، ولم يستوعب هل استيقظ أم ما زال يحلم؟! حاول أن يستجمع وعيه، ولكن فجأة تحركت الدنيا من حوله حتى صارت النجوم عند قدميه والأرض بالأعلى.

تُرى أما زلت أحلم؟ ولكنَّ نظرةً واحدةً عن يمينه جعلته يدرك ما يحدث.  
رأى ليسينيوس مُمددًا على الأرض ومُلطَّخًا بالدماء، لا يقوى على الحركة، ومن بعيدٍ أشخاص يقومون بحل وطاق الجياد بما عليها من متاعٍ ويهربون.  
ظن لوهلةٍ أنهم جنود جلايوس! لكن تبدد هذا الظن لما رأى أزياءهم الغريبة المصنوعة من الجلود والعظام، فأدرك على الفور من هيئتهم أنهم برابرةٌ من عصابات قبائل "البيكتس" أو ما يُعرفون بقبائل "الوحش"، الذين طالما حاربهم قديمًا في "الدانوب"، وطالما أنهكوا قوى الإمبراطورية بهجماتهم التي لا تنتهي، النهب والقتل والاعتصاب هو روتين حياتهم المعتاد، ولم يسلم منهم الجنود ولا حتى القرويون المسالمون.

كان من حسن حظ قسطنطين أنهم لم يتعرفوا عليه، وكان من حسن حظه أيضًا أنهم اكتفوا بالسرقة فحسب.

نادى قسطنطين رفيقه ليفكُّ وثاقه، ولكن يبدو أن ليسينيوس قد أغشي عليه من كثرة الضرب، فكَّر النداء مرارًا ولكن لا جدوى!

حُدِّرت قدم قسطنطين من شدة إحكام الوثاق على قدميه، وأخذ التنميل يزداد شيئًا فشيئًا في بقية جسده ورأسه يكاد ينشقُّ ألمًا، وهنا أدرك قسطنطين المأزق الواقع فيه، وأدرك أنه لن يطلع عليه الصبح حيًّا إن لم يفكُّ وثاقه، ازداد تدفق الدم في رأسه، ثم أخذت الرؤية تتلاشى تدريجيًّا، حتى غط في النوم أو بالأحرى غاب وعيه.

رأى في منامه أخته كونستانيا التي كانت تعيش مع والده. أجمل من يمكن أن تقع عليه العين بشعرها الأشقر الطويل، ووجهها المتورِّد البريء إن كان للبراءة اسم فهو كونستانيا، كان مجرد رؤيتها يزيل الهمَّ عن قلب قسطنطين، وكانت هي أول من يسأل عنه من أهله عند عودته من المعارك، فتلقاه وهي طفلةٌ بلهفةٍ تُنسيه ما لاقاه من أهوال المعارك.

كان قسطنطين لا يزال مغشيًّا عليه، ولكن رؤيته لأخته في منامه جعلته يبتسم -بل يضحك- دون أن يعلم!

\*\*\*

الحكيم تيودوس

"ما المضحك يا ابن الإمبراطور؟! أراك تضحك وأنت نائم!" كان الصوت لليسينيوس.

فتح قسطنطين عينيه ونظر حوله، فوجد نفسه نائمًا على الأرض وقد حُلِّ وثاقه، ورأى رجلًا نحيلًا يلبس المُرَقَّع، ذو شعرٍ أبيض ويبدو عليه أنه في الخمسين من عمره يعالج جراح صديقه ويربط له الضمادات.

قال الرجل ذو الشعر الأبيض مبتسمًا:

- أنا الطبيب تيودوس وكنت في رحلة خلوية هاهنا، هل أنتما بحاجةٍ إلى

مزيدٍ من المساعدة؟

تلكأ قسطنطين في الكلام، وقال:

- كنا نريد العبور إلى بلاد يورك ببريطانيا؛ لكن كما ترى فزميلي قد أصيب

من جراء مكيدةٍ قذرةٍ من اللصوص، ومشكلتنا ألا وقت كثيرًا لدينا؛ فنحن نريد  
للحاق بجيش الإمبراطور قسطنطيوس.

ضحك الشيخ بصوتٍ دافئٍ، قائلاً:

- هؤلاء لصوص "قبائل البرابرة" تلك هي عاداتهم.

تعجّب قسطنطين من برود الرجل وعدم خوفه، وكأنه اعتاد على وجود  
هؤلاء البرابرة في حياته اليومية.

- اطمئنًا، سوف أضمد جراح زميلك سريعًا، هلمَّ إلى هذا الكهف المتواضع.

فتح تيودوس حقيبةً من الجلد، وأخرج منها أعشابًا وخرقًا قديمةً، وقنينةً

صغيرةً تحوي سائلًا مائلًا إلى الصفرة، وراح ينظف الجرح بخرقةٍ صغيرةٍ مبللةٍ

بالكحول، ثم يخطط الجرح بدقةٍ شديدةٍ، فتتعقد تقسيمات وجه ليسينيوس

وتتقلص عضلاته ألمًا، مع همهماتٍ متقطعة!

- كم أنت ماهر جدًّا في الجراحة، يبدو أن أباك كان طبيبًا أيضًا؟

سأل قسطنطين مُستفهمًا.

تبسّم تيودوس وأغمض عينيه، وقال في شجون:

- الحق أن أبي كان يُحب عزف القيثارة وقراءة كتب أفلاطون وأرسطو، أما

أنا فكنْتُ شغوفًا منذ صغري بكتب جالينيوس وأبقراط، لذلك تعلمت الطب

وأتقنته جدًّا، ثم ذهبت إلى روما، وأصبحت أشهر طبيبٍ هناك في البلاط

الملكي، وفي عهد الإمبراطور أورليان كنت مشرفًا على علاج الملكة الأسيرة

زنوبيا، ملكة تدمر.

أطرق إلى الأرض ساعةً، ثم قال في انكسارٍ وكأن الكلمات تخرج من قلبٍ

مكلوم:

- لقد أصبحت من أثرياء المدينة يا سيد قسطنطين، إن ثروتي هائلةٌ، هائلةٌ

جدًّا أكثر مما تتخيلون، إلا أنني لم أجد اللذة الحقيقية إلا في هذه الأيام التي

أقضيها هنا في حياة الخلوة في العبادة والتفكير والتبُّل، يا سيدي إن لذة

المعصية ساعة ويبقى عقابها، وإن مشقة الطاعة تذهب ويبقى ثوابها.

رفع تيودوس يديه كأنه يستقبل شعاع نورٍ من السماء، وقال:

- كُن مع الله ولا تبالِ، ومُد يدك إليه في ظلمات الليالي، لتسمو روحك

وتصعد عاليًا في ملكوت السماوات، مساكين أهل الدنيا في غفلةٍ والموت

يتخطفهم واحدًا تلو الآخر، إن اللذة الحقيقية في الدنيا ليست في الأموال ولا المناصب، إنما هي هنا في حياة الخلوة.

أشاح تيودوس وجهه برفق، ثم صعد على صخرةٍ داخل الكهف وجلس القرفصاء صامتًا يتأمل.

كانت كلمات تيودوس صادمةً، لكنّها كانت تخرج من قلبٍ مكسورٍ يميل إلى البُكاء، أما قسطنطين فقد اجتاحتها الأسئلة: كيف لرجلٍ أن يترك كل ملذات الدنيا، ولا يجد لذته الحقيقية إلا في تلك المناطق النائية؟

لا يعرف من هذا الرجل تحديدًا؟! وما ديانتَه؟! وما سر مكوثه في ذلك المكان البعيد؟! ولماذا يُعالج صديقه بلا مقابل؟ لكنّه، وعلى كل حال، شعر بأن كلماته حقيقية قد خرجت من قلبٍ صادقٍ.

\*\*\*

رحلة آريوس إلى الإسكندرية

بعدما ودّع آريوس صديقه يوسابيوس، لم يجد بُدًّا من المرور من سيناء ذات الصحاري القاحلة، متجنبًا الطرق الرئيسية التي يجوب فيها جنود الرومان، وقد وجد ضالته ليستريح أخيرًا في كنيسةٍ صغيرةٍ كبير رهبانها كان طاعنًا في السن، حكى له حكايته منذ البداية حتى هروبه من أنطاكية من بطش جنود الروم، وطمأنه الراهب بأنه أصبح الآن في مكانٍ آمنٍ بعيدٍ عن أعين الرومان.

كان هذا الراهب الطاعن في السن يعامله كابن له، ويتفَقَّد حاجياته من حينٍ إلى حين، كما كان آريوس يساعده في قضاء حوائجه فيحلب له الماعز وينظف له الدير.

وفي ظهيرة اليوم الثالث وأشعة الشمس توزع ضياءها في الآفاق، وبينما آريوس جالسٌ تحت شجرةٍ في الباحة السفلية للدير وأمامه الأشجار، خرج إليه الراهب بقدرٍ من اللبن وقَدَّمه له، ووقف قُبَّالته مُبتسمًا، وقال: - تفصَّل يا ولدي، ولتشرب ببركة يسوع الأبدي.

تململ آريوس وأخذته رعشةٌ خفيفةٌ كأنما كان يريد أن يقول شيئًا، إلا أنه في النهاية قال:

- "شكرًا لك يا والدي".

نظر الرجل في وجه آريوس فأحس بعدم رضاه، فقال بفراسته:  
- لعلك لم ترضَ بما قُلْتُهُ آنفًا.

كانت تلك الكلمات ثقيلة على آريوس؛ فهو لم يعتدّ سماع ذلك في مدرسة  
القديس لوسيان.

بادله آريوس بابتسامةٍ مبتورة، وقال:

- أجل! إنني تعلمتُ أن الله هو الإله الأبدي ويسوع المسيح كلمته وله مبتدأ.

تبسم الرجل في تودة وبدت عليه حكمة الشيوخ، وقال:

- يا بُني لا فرق لو تأملت، لأن الرب برحمته يُحب الإنسان، لم يشأ أن  
يتركه موصومًا في خطيئة آدم الأولى أبد الآبدين، فغلبت الرحمة على الرب،  
فأرسل ابنه الوحيد يسوع المسيح ليحل في الجسد الإنساني الفاني، ثم يتألم  
على الصليب؛ ليكون فداءً لهذا العالم وتكفيرًا عن خطاياها.

يا بُني إن هذا الحلول والاتحاد الجسدي هو أرقى تصورٍ للإيمان يُمكن أن  
يصل إليه البشر؛ أن تحل الروح الطاهرة في الجسد المذنب، أن تفتنى  
الخطيئة في الطهارة، أن يفتنى الإنسان المحدود في الإله اللامحدود.

دخل العجوز في نشوة، ورفع كلتا يديه قائلاً:

- ذلكم الفناء.. ذلكم الفناء.

- ولكن يا أبتِ ما ذنب آدم حتى يرثوا خطيئته؟!

- يا بُني على رغم علمك الوفير فأنت ما زلت شابًا، والشباب قطعةٌ من  
الطيش، بل قطعةٌ من الجنون، وأخشى عليك من آرائك تلك، فقد تكون سببًا  
في تعاستك يومًا ما.

هز رأسه في حزن، ولم يُرد أن يُجادل هذا الشيخ النبيل الذي استضافه في  
ديره.

قضى آريوس في الدير النائي نحو ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع قام  
لاستكمال رحلته، ونظرًا لما يحمله من حقيبة الملفات الثقيلة، قد أشفق  
عليه الراهب وقام بمساعدته في تجهيز حاجياته، ثم تهيأ أخذًا بيد آريوس  
ليدله على دليلٍ يستأجره في رحلته الشاقة، ودفع الراهب أجره الدليل، الذي  
يمتلك مركبةً خشبيةً متواضعةً يجرها حمائرٌ أهزل، ذات مظلةٍ من قماش بدويٍّ  
ومرفوعةٍ بجذوع الشجر، ومعلق حولها قِربٌ من جلد الماعز للمياه، وأغراض

السفر.

وعند الرحيل أعطاه الراهب ثوبًا، وكسرات من العيش المخبوز بدقيق الحلبة، وعسل النحل، وقرية ماءٍ قائلاً له: يا بني أرجو أن تصل إلى الإسكندرية بسلامٍ، لكن تجنّب الطرق العسكرية لئلا يمسّك مكروهٌ من جنود الروم.

قال آريوس:

- لا تقلق يا والدي، فأنا أعرف جغرافية سيناء جيّدًا، مما درسته في كتاب كلوديوس بطليموس الحكيم.

أجابه الراهب بلطف:

- أعرف يا ولدي في وجهك الحكمة والعلم منذ أتيت إلى ديرنا المتواضع، ولولا استعجالك لسفرك، كنت أبقيتك معنا.

اعتنقه آريوس العناق الأخير، ثم مضى على العربة سريعًا ليشق طريقه.

\*\*\*

كان الطريق طويلًا إلى الإسكندرية، أخرج آريوس رِقًا ورقّيًا، وأخذ يكتب أشعارًا في الحكمة وتوحيد الله، بما يفيض عليه من الإلهام ووحى المعرفة، لما اشتدت الشمس فوقه، وانتظمت خطى الحمار، عاود آريوس خطفات الوَسَن الممتلئة بالرؤى، قد أحب هذه اللحظات الواصلة بين انتباهات الصحو وخلسات النوم، ووجد فيهما لذةً ونشوةً من جزّاء تلك الفلتات والنومات اليسيرة، وذلك من شدة إجهاده، ولما علت الشمس، وانبسط الطريق تحت دقات حوافر الحمار كثرت الوسنات، رأى آريوس رؤى كثيرةً لعلها رؤى غير منتظمة.

نظر إليه الشاب البدوي السائق، وقال:

- لعلنا نستريح سيدي هاهنا، ثم أوقف حماره تحت شجيراتٍ عشبيةٍ عند

حواف بلدةٍ صغيرةٍ على خد الطريق.

لم يصدق آريوس أذنيه، وانتفض من مكانه إلى حيث الشجيرات العشبية وظل يتمرغ تحتها في الظل البارد (بعيدًا) عن وهج الشمس، كان الحمار سعيدًا بعدما فك البدوي وثاقه وأصبح حرًا طليقًا، يهش رأسه يمينًا وبسرة في كنف الظل الممدود، وهو يقضم قوالح الذرة مع بعض نبات البرسيم الذي

وضعه له صاحبه.

أخرج آريوس الرقاق الورقية، وظل يكتب الأشعار اللاهوتية، وكان ظل الأشجار مع نسمة هواء العصاري المنعش محفراً له في الكتابة، حتى سوّد رفاقاً كثيرةً.

بعد أيامٍ متواصلةٍ من المسير، وهنا فوق الذروة تكوّمت ركامات نبت عليها طبقات من العشب، متخلّفة من أيام الوثنية القديمة السحيقة، لها حصون أو أجداث؛ تمدّد على أحدها تحت أشعة الشمس الخافتة، حيث كان بإمكانه أن يستلقي على العشب الخريفي الجاف الذي يُحدث حفيقاً، ويمد بصره عبر كامل الوادي المترامي، والجبال، والتلال الشامخة المطلة على البحر، سلسلة تلو سلسلة إلى أن حوّمت الذرى والسماء بمزيجٍ غامضٍ، ولم ينتبه إلا على صوت الخادم: هيا بنا يا سيدي حتى لا يسرقنا الوقت!

\*\*\*

وصل آريوس أخيرًا إلى الإسكندرية بعد أيامٍ طوال، ودخل من الباب "الكانوبي" شرقًا، المدينة بابها كبير وصخبها كثير، مثل كل المدن العظيمة، فمن مسافرين على ظهور الخيل، أو في عرباتٍ تجرها البغال، إلى حميرٍ محمّلة بجميع أنواع الأحمال الثقيلة، تسير فرادى أو في قوافل، يقودها راكبوها المزودون بالعصي، إلى عرباتٍ من ذوات العجلتين تحمل مواد البناء، إلى حمّالين بأحمالهم الثقيلة. لقد كان هناك جميع أنواع الحركة في هذا الشارع وفي الشوارع الجانبية المتفرّعة منه، وكان بعض راكبي الحمير والجِمال يجتنبون حرَّ الشمس بأن يسيروا بدوابهم على الأروقة المسقوفة ذات الأعمدة، وكان المزارعون ينقلون الأطعمة إلى المدينة على العربات أو على ظهور الحمير، النساء يسرن بسرعةٍ إلى حاجتهن، وأولادهن يهرولون وراءهن، كان الأولاد يمشون إلى المدرسة، يرافقهم عبيدٌ يحملون لهم كتبهم ولوحات كتاباتهم المصنوعة من مادة شمعية، مربوطة بأربطة من الجلد، وكان الموظفون الكبار وضباط الجيش يمرون على ظهور جيادهم، بعدتهم وأزيائهم البراقة.

الفلاسفة يتجولون، تُميّزهم علامات مهنتهم المعروفة، وهي اللحية الطويلة، ثم الرداء الرث، والشعر الوافر، والعصا في اليد اليمنى، وكانت الشوارع والأسواق تضجُّ بالحركة حتى منتصف الليل، وكانت الإسكندرية تتمتع بالإضاءة الليلية في الشوارع العامة، ولم تكن هذه الظاهرة مألوفةً في بقية البلدان.

وكان المواطنون الأثرياء يمرون على ظهور جيادهم التي يرصّع عدّتها الذهب، أما السيدات فكن يتجولن في المدينة في عرباتٍ تجرها الخيول المطلية بالألوان الزاهية، وكان إذا مر شخصٌ ذو مكانةٍ عاليةٍ، ممتطيًا جواده الأبيض بوقارٍ وأنفةٍ، تقدمه أحد خدمه حاملًا عصًا وراكضًا أمامه وهو يصيح، ليفسح لسيدة العظيم طريقًا بين الحشد، وكان لعددٍ كبيرٍ من البيوت الكبيرة في المدينة خُدامٌ من الزوج يلبسون الشارات المنمقة بالذهب.

\*\*\*

غادر آريوس حي "راكوتي" خلفه وشق طريقه للتنزه بحي فاروس عبر

الشارع الكانوبي وطريق الهييا-ستاديوم، وقد بدت الإسكندرية المدينة الإغريقية مدينة العلم والجمال والفن والثقافة في أبهى صورةٍ تليق بعروس البحر المتوسط.

السماء قد بدأت تكتسي شيئًا فشيئًا باللون الفضي حينما وصل إلى مدينة كانوب<sup>(10)</sup>، فالنجوم قد بدأت تظهر باستحياءٍ على صفحةٍ زرقاء تشوبها الظلمة، وعلى جانبي الشارع الكانوبي الأعمدة الرخامية المظلمة بالقباب، وأنوار المصابيح زوات الأعمدة المرمرية تعطي ضوءًا براقًا، والقصور الفخمة بحدائقها تضيء بهاءً وجمالًا على الطريق.

كانت كانوب تشهد احتفالات كبيرة بآلهتها، وتُقبل الحشود من الإسكندرية بالمراكب والسفن عبر القناة المائية.

وسط هذا الجو الدرامي الساخن جلس آريوس مُجهّدًا على سورٍ حجريٍّ أمام البحر، وبجواره بدأ صوت ترجيع وترديد رجالٍ ونساءٍ بصوتٍ هاديٍّ ويكأنه صوتٌ إغريقيٌّ قديمٌ، يُخال إلى السامع أنه صوت إنشاد جيش إسبرطة وهو يحمل حصان طروادة بشكلٍ يهيج شعور الحماس في النفوس، مع نوع شجن للماضي. طبقات أصواتهم تبدأ منخفضةً ثم ترتفع شيئًا فشيئًا وتزداد قوةً، إيقاعٌ مهيبٌ، الإنشاد محزنٌ، خليطٌ من العواطف والشجن إلى غابر الأزمان مع الشعور بالقوة والحماسة.

لحظات وبدأ الناس يأكلون الكعك الكانوبي والأسماك الطازجة والمحارات البحرية، ويعزفون الموسيقى، ويرقصون بلا تحفُّظٍ ويشربون النبيذ في كؤوس من الفخار ذي الطلاء الأسود اللامع، وعليها رسوماتٌ لبعض الراقصات.

- يبدو أنك غريبٌ عن المدينة!

التفت آريوس إلى الصوت الصادر، فوجد رجلًا هيئته تشبه هيئة الفلاسفة، وله لحيَةٌ بيضاء مشوبةٌ بالسواد، تبسّم الرجل، وقال: إنني سقراطيس، مدرس الفلسفة الرواقية بمدرسة الإسكندرية، لاحظت من هيئتك أنك غريبٌ عن المدينة فأردت مساعدتك.

- شكرًا سيدي، أنا أدعى آريوس وأتيت للتوّ من أنطاكية في سفرٍ طويلٍ، إلا أن موطني الأصلي من قورينا.

لاحت ابتسامه على شفتي الرجل، وقال:

- لعلك مسيحي، أتيت قاصدًا كنيسة بوكاليا بالإسكندرية؟

- أجل، وأتيت قاصدًا الأب بطرس بطريك الكنيسة.

- قد تكون إجابتي غير مُبشرة لك، فالأب بطرس على الأرجح ليس في

الإسكندرية الآن! إن الإسكندرية امتلأت قبل أشهر بآلاف القتلى المسيحيين،

أو الذين سيقوا من خارج الإسكندرية ليقفوا أمام أرمانوس ويلقوا محاكمتهم

بالسجن أو التعذيب أو القتل، وإزاء شراسة الاضطهاد قد خشي الشعب

السكندري على الأب بطرس لئلا يمسه الاضطهاد، ولشدة محبتهم له ضغطوا

عليه لكي يذهب إلى أرض فلسطين.

أحس سقراطيس أن كلامه أصاب آريوس بالحزن، فأراد أن يُسلي عنه

قائلًا:

- تُشرفنا زيارتك لنا في المدرسة الرواقية في قابل الأيام لتتعرف على تلك

العلوم التي ندرسها.

ارتسمت البسمة على وجه آريوس، وقال:

- بمشيئة الرب، وأتمنى منك أن أراك أيضًا في الكنيسة، لتتعرف على

تعاليم المسيح السامية.

ضحك سقراطيس بسخرية، وقال:

- أتم من تحتاجون إلينا، ونحن لا نحتاج إليكم! لم يدخل الفلسفة شيء من

أقاصيص كتبكم، ولكننا رأينا العكس قد حصل! فقد دخلت الفلسفات إلى كثير

من طوائفكم.

نظر إليه آريوس نظرة استنكارٍ، وقال:

- دين الإله أسبق من الفلسفة، وليست الفلسفة أسبق من الدين، ولقد

عرف بنو البشر شرائع الإله قبل أي تصوراتٍ فلسفية.

لم يابه سقراطيس بكلماته الاستنكارية وانطلق في كلامه:

- يا سيد آريوس، إن مدرسة الفلاسفة بالإسكندرية كما خرّجت فلاسفة لنا،

فقد خرّجت قسوسًا لكم أيضًا، فقد كان ولا يزال رجل الدين المسيحي يدرس

جنبًا إلى جنب رجل الفلسفة، فأوريجانوس كان يدرس مع أفلوطين، وكان

كلاهما تلميذًا عند "أمونيوس السكّاس"، لقد اختلط الفكر الهيليني الفلسفي

بالأفكار الشرقية والديانات المختلفة، وبخاصة أنها جذبت الكثيرين من ديانتهم وجعلتهم مهتمين بعالم الميثافيزيقا وعلاقة الإنسان بالآلهة وأنصاف الآلهة؛ والأقانيم تحوّلت إلى أساطير تخالف العقل المستقيم.

لم يفهم آريوس كثيرًا مما قاله، وآثر الصمت في حين أكمل سقراطيس ونسمات الهواء تداعب فروة رأسه التي تتدلّى على جبينه: - إن العالم يا سيد آريوس، لا يصبح له معنى إلا في الأسطورة حتى نحن شعب الإسكندرية نؤمن بالإله سيرابيس، ونتعبّد له في معبد السيرابيوم. كل ثقافة وكل تماسك اجتماعي يقوم على أساس أسطوري. قد تحسب حضارة ما نفسها متحررة من كل الخرافات، والأحلام اللادنيوية، والتصورات التوهمية، وتحسب أنها تقوم بثبات على أفكار علمية موضوعية وقيم واقعية، بيد أن الحقيقة قد تكون على العكس تمامًا.

امتعض آريوس من كلامه، وأحس فيه بالسخرية من الأديان، فأجاب بسكينة ووقار:

- يا سيد سقراطيس، أراك تخلط الخرافة بالشرائع السماوية! الحق يقول: إن العقليات والنبوات لا يمكن أن يختلفا أبدًا، بل لا بد لهما من نقطة التقاء، فالله هو الذي أرسل إلى الناس الشرائع، وهو الذي وهبهم تلك العقول، فالحقيقة واحدة سواء أتت من عند الإله، أو أتت بصريح العقول المستقيمة!

- عجيبٌ، كنت أظن أن الدين والعقل ضدان لا يجتمعان!

- هذا الاختلاف الذي تراه بين الدين والعقل هو من صنع البشر أنفسهم؛ إما بتحريف شرائع الإله، وإما بتحريف تلك القواعد العقلية لتصبح أوهامًا صيروها مُسلّمات، حتى يظن الظانّ أنها مخالفة للدين السماوي، لكن في ظني يا سيد سقراطيس أن الفلسفة الصحيحة الموافقة للعقل، لا يمكن أن تخالف الدين السماوي الصحيح الخالي من الزيادة والنقصان.

تبسّم سقراطيس وقال:

- أظن ذلك؟! لا أريد أن أخوض معك جدالًا فلسفيًا؛ لأنه يبدو عليك أنك رجلٌ مستنيرٌ وفيلسوفٌ أيضًا.

\*\*\*

مضى سقراطيس إلى حاله، بعدما ودّع آريوس وتركه يتجاذبه التعب والإرهاق كما تتجاذبه الأفكار اللعينة، التي نَعَصَ بها عليه نشوته بالوصول إلى الإسكندرية، لم يهتم لكلامه ومضى مترنحًا بين الأزقة، وبعد سويعاتٍ قليلةٍ وصل إلى حي "بوكاليا"، وقد بدت الكنيسة الكبيرة بقبابها العالية من خلف البيوت القديمة، كأنها حلمٌ يلتفُّ بالسواد المزخرف بنجوم الليلة الربيعية الرائقة، فرح آريوس بوصوله، وأحس بشريان الحياة يسري في جسده من جديد.

توجّه إلى أحد الرهبان القابعين عند بوابة الكنيسة ليستأذنه بالدخول، لكن ردة فعل الراهب كانت عجيبة، فقد ظل يتأمل في وجه آريوس وظلت عيناه الجاحظتان تتأملان ثيابه الرثة بارتياب، ثم قال: اعذرني أيها السيد؛ لا تستطيع الدخول إلى الإكليريكية في الوقت الحالي، فأنا لا أملك إذنًا بذلك؛ لكن يمكنك الدخول والجلوس على هذه الدكة ريثما ينزل أحد القُسس.

ساعة طويلة أمضاها آريوس في ساحة الكنيسة الفسيحة مع الرهبان والقساوسة، قدموا له في خلالها طبقًا مغطى بمنديل مزركش الحواف، فيه خيراتٌ من الفواكه الطيبة التي تُثمر فوق أشجار الشمال، مع ثمار البلح والتين المجفف.

سويعات قليلة، ونزل أسقفٌ ذو هيبَةٍ ووقارٍ، بلغ نيقًا على الخمسين من عمره، عيناه واسعتان لونهما مشوبٌ بخضرة، وفيهما شغفٌ وذكاءٌ، وفي وجهه الأبيض حمرةٌ خفيفةٌ، وفي لحيته الأنيقة اصفرارٌ لطيفٌ، وكثيرٌ من الشعر الأبيض الذي يزيد بهاءً وفي سمته صفاء رباني.

همس آريوس إلى أحد الشمامسة<sup>(11)</sup> بجواره سائلًا عن هذا القس، فأجابه: - إنه الأسقف أرشيلالوس.

قال الأسقف بصوتٍ مرتفع:

- هدوء أيها الآباء، هدوء!

الكل انحنى للأب أرشيلالوس، قائلين:

- أمرك سيدي.

أشار أرشيلالوس إلى أحد الشمامسة الواقفين عند الباب، فأسرع في

الإتيان بقدرٍ من اللبن المحلّى بالعسل، وساد الصمت المكان للحظات، كان الأسقف ينظر في خلالها نحو آريوس، عندما دخل الخادم حاملًا القدر، تناول منه آريوس شربة قبل أن يقدمه إلى الأسقف، استبشر الأسقف وبدت على وجهه علامات الارتياح.

ثم تقدم الأسقف بهدوءٍ نحو آريوس وسلم عليه بكلتا يديه قائلاً:  
- أنا الأسقف (أرشيلاوس) رئيس المدرسة الإكليريكية.

قال آريوس واضعًا يده على صدره:

- آريوس بن أمونيوس أتيتكم من عند مدرسة أنطاكية من عند الأب لوسيان ووصلت للتوّ، وأريد مقابلة الأب بطرس.

تهلّل وجه الأسقف أرشيلاوس حينما سمع اسم القديس لوسيان، ثم مد كلتا يديه إلى آريوس واعتنقه قائلاً:

- أهلاً بتلامذة القديس الأنطاكي.

ثم قال:

- لا تغضب أن انتظرت طويلاً، فبعد الحملة الشعواء من جنود الرومان، وإرسالهم بعض العيون من اليهود والوثنيين ليراقبونا، أصبحنا نتحرج من أي غريبٍ لا نعرفه. أرجو أن تقبل اعتذاري مجددًا سيد آريوس.

أوماً آريوس برأسه مبتسمًا مشيرًا إلى رضاه، ثم قال:

- وما أخبار أبينا بطرس، هل مسته يد السوء؟

سكت أرشيلاوس هنيهة، ثم قال:

- لا لم ينالوا منه، لكنه تحت المراقبة الرومانية وأتوقع القبض عليه في أي لحظة، ندعو له جميعًا بالسلامة.

على كل حال، اسمح لي يا سيد آريوس أن أوصلك إلى مكان الدير لترتاح قليلاً.

في الطريق إلى مقر الدير، فاتحه آريوس بما كان يجول في عقله في تلك اللحظة:

- سمعت بخبر سفر الأب بطرس إلى أورشليم خوفًا من بطش الرومان، فهل طالكم أي مكروه يا سيدي؟

سكت أرشيلاوس هنيهة، ثم قال مُتأسفًا:

- أجل يا سيد آريوس منذ أن سامني أبونا "ثاؤنا" رئيسًا لمدرسة الإسكندرية، وسام بطرس بطريركًا دُفنا من بعده الويلات، كانوا يأتون بأولئك الشهداء ويشقون بالخناجر أجسادهم، ويروحون ينزعون عنها الجلد عضوًا عضوًا حتى تزهق الروح، وأما النساء فقد كانت تُربط الواحدة منهن من إحدى قدميها وتُرفع في الهواء بآلةٍ مخصصةٍ لذلك، وتظل معلقة هكذا بصورةٍ تنفر منها الإنسانية حتى تزهق روحها، وقد كانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلةٍ صنعوها لهذا الغرض، ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهاذين الغصنين، ثم يتركونهما ليعودا إلى وضعهما الأول، والشهيد بينهما تتمزق أضلاعه وتُسحق عظامه سحقًا، فتتطاير أشلاء جسمه في الفضاء.

رأى أرشيلالوس علامات الأسى والحزن على وجه ضيفه، فعاد ليقول:  
- كل هذه العذابات تعوّدنا عليها، ولم تكن لتمثّل للأب بطرس شيئًا بجوار خلافه المحتدم مع ميليتوس أسقف ليكوبولوس<sup>(12)</sup> الذي سبّب انشقاقًا في الكنيسة، عليك يا آريوس أن تحذر هذا الرجل فهو يزور الإسكندرية كثيرًا.  
- إلى هذا الحد؟ وما الذي صنعه هذا الرجل ليستحق كل هذا التحذير؟!

- حصل خلاف في قبول الذين خاروا وخافوا من التعذيب وبخّروا للأوثان خوفًا من القتل، فقد رأى بطرس قبولهم في الكنيسة، في حين رأى ميليتوس طردهم، ليس هذا هو المهم؛ لكن ما يحزُّ فيّ أن آباءنا الأساقفة الأجلاء في غياهب السجون، وقداسة البابا غائبٌ عن كرسيه، في حين ميليتوس، يزيد من انشقاقات الكنيسة لا سيما ونحن في هذا الضعف والوهن من الاضطهاد.  
- لعل ميليتوس يستشهد بقول الإنجيل: "لأن الذين استُنيروا مرةً وذاقوا الموهبة السماوية ثم سقطوا، لا يمكن تجديدهم أيضًا للتوبة".

- لا يا سيد آريوس؛ إن ميليتوس لم يشفق على تلك النفوس التي خارت في الطريق، ولم يرحم ضعف عزيمتهم، وأما البابا بطرس فراح يُقوي ويشجع تلك النفوس الخائرة على استكمال المسيرة والمشوار في درب الملكوت، ولقد تعلّمنا من مولانا المسيح أن "فتيلةً مدخنةً لا تُطفأ، وقصبةً مرضوضةً لا تُقصف!"

تنهّد أرشيلالوس وسكت هنيهة، ثم قال:

- الأدهى من ذلك أنه يقوم بسيامة الآباء على كنائسهم من غير أن يأخذ

رأي الكنيسة، إن ما يصنعه ميليتوس ضد تقاليد الآباء وقوانين الآباء الرسل التي تمنع تدخُل أسقفٍ في شؤون أبرشية غير أبرشيته! إن قساوة القلب تمادت في نفس ميليتوس، فلم تردعه الرسالة المؤثرة جدًّا التي أرسلها الآباء الأساقفة في سجونهم.

عاد أرشيلالوس مصطحبًا آريوس وهما يتحدثان عن الأب لوسيان مستبشرين بقاء مفعم بالمحبة، شعر آريوس ليلتها باطمئنانٍ غامر في رفقة أرشيلالوس وأحس معه بأن الله قد عوّضه عن أيامٍ خوالٍ في أنطاكية عاشها مع رفيق دربه يوسابيوس والمعلم لوسيان. ودَّعه أرشيلالوس قائلاً:

- استرح اليوم، وهبئ نفسك في أي وقت لأن تقابل الأب بطرس.  
فتعجب آريوس قائلاً:

- قد سمعتُ بسفر الأب بطرس إلى أورشليم!  
- هذا صحيح، وعاد منذ يومين وأخفينا خبر عودته! لا تخبر أحدًا يا سيد آريوس!

\*\*\*

لقاء الأب بطرس

عند الحديقة الصغيرة التي بمدخل بيت الضيافة، أخبر آريوس الحارس أنه جاء ملتبسًا دعوة الأب بطرس، فرحب الحارس وأدخله على الفور، بعدما أغدقه بالفاظ الترحيب، وأخبره أن البابا يحضر التسيحة في الكنيسة.

طالت التسيحة حتى انعقد القداس وقد امتلأت الكنيسة، كان القداس مهيبًا بحضور مئات الرهبان والقُسس وأهل الإيمان، وعددٌ لا حصر له من الشموع والفتائل، وقد جاء الأب بطرس عليه مهابةٌ ووقارٌ؛ رجلٌ قصير القامة، بطيء الخطوة، لحيته إلى صدره، أبيض البشرة، ووجنتاه تميلان إلى الحمرة، يرتدي سُترة مُزركشة، كانت لحيته البيضاء وتجاعيد وجهه العميقة تنبئ بطول عمر رجلٍ انغمس في العلم والرهبنة، عليه رداءٌ أحمرٌ قانٍ مزركشٌ عليه بعض الخيوط الكتانية المنقوشة والمزخرفة.

كان صوت البطريرك بطرس يرنُّ في جنبات الغرفة الفسيحة، وقد خيم

الخشوع على كل الجالسين، وتعلقت عيونهم بالأب بطرس مثلما تعلقت به عين آريوس، ومع مغيب الشمس، بدا الإعياء باديًا عليه؛ فهدأت نبرته وخُفَّت صوته وهو يختم كلامه لسامعيه مطمئنًا إياهم: "إن كلمة الحق التي كنتم تخافون الجهر بها في خلواتكم، سيأتي زمان لتجهروا بها على رؤوس الأَشهاد!".

نهض الأب بطرس مؤذِنًا بانتهاء الدرس، فتهيأ الجميع للانصراف، وبقي أرشيلالوس ومعه آريوس، وقد فطن الأب بطرس بفراسته المعهودة أن الأسقف أرشيلالوس يصطحب قسًّا جديدًا ليقدمه إلى الأبرشية، فقال للأسقف ألكساندروس أن يبقى هو الآخر ليتعرف على القس الجديد.

فابتدأه بطرس بصوتٍ رخيم:

- أهلاً بالزائر الجديد، من أين أنت؟ وأين درست يا بُني؟

أجاب أرشيلالوس نيابةً عنه:

- آريوس من قورينا (ليبيا) ولقد جاءنا من مدرسة الأب لوسيان الأنطاكي، ومعه جملة من شروحات وترجمات الأب لوسيان، كم كنا نفتقد مثل هذه اللفائف النفيسة، أما وقد كفانا السيد آريوس مؤنة ذلك.

تهلَّل وجه الأب بطرس فرحًا مرحبًا به، وأمر الرهبان بإحضار مشروب النعناع الجبلي الساخن.

جرى بهم خيل الكلام في كل مضمار، حدَّثهم آريوس عن روعة أنطاكية، وعن العلوم الوفيرة في مدارسها، وعن مكتبة الأسقفية العامرة، وعن البسطاء الذين يفدون من القرى المجاورة، وعن أسقف أنطاكية "لوسيان" وعن كمال ووفور أخلاقه، ثم عن الهجوم العنيف الذي شنه الرومان على مدرسة أنطاكية واعتقالهم المُعلم "لوسيان".

طأطأ الأب بطرس رأسه حزِنًا على الأب لوسيان قائلاً:

- كان لوسيان رجلًا كاملاً قلَّ أن تجد نظيره، وقد جرت بيننا مراسلات كثيرة، وحسب ما سمعت من الرهبان الرحالة أنه ما زال معتقلًا.

أجاب آريوس:

- نعم، قد اقتادوه إلى سجن مدينة "نيقوميديا" وما زال معتقلًا هناك إلى

حين إصدار حكم بقتله!

سكت الأب بطرس هنيهة، ثم قال:

- لقد فاز الأب لوسيان، ولسوف يسبقنا إلى الملكوت! لكن من عزائنا يا سيد آريوس أنه ترك تلاميذ مثلكم ينشرون علمه.

عمّ الصمت المكان للحظة، ثم ابتدر الأب ألكساندروس بالسؤال:

- ماذا درست يا سيد آريوس غير اللاهوت؟

قال:

- درست كتب فيثاغورث، وأفلاطون، وأفلوطين، وأرسطو، و....

قال بطرس ضاحكًا:

- مهلاً مهلاً، يبدو أننا سوف نُرسِّم قسًّا فيلسوفًا وليس قسًّا عاديًّا!

ثم توجه إلى أرشيلوس قائلاً:

- كنت تفتقد يا أرشيلوس مدرسًا ماهرًا في الفلسفة، أما وقد جاءك بلا

بحث!

قال أرشيلوس:

- إنه من اللطيف يا سيد آريوس أن تُحدِّثنا عن شيءٍ من فلسفة أفلاطون.

سكت آريوس هنيهة، ثم قال:

- فروع فلسفة أفلاطون كثيرة لكن لعلني أحدثكم عن الفلسفة، التي تستند

إلى وجود المفارقات فهي مهمةٌ في علوم اللاهوت، وتعتمد على بعض الحجج

الآرائية، ظل آريوس يشرح بضع دقائق ببلاغةٍ وفصاحة.

وجعل أرشيلوس وألكساندروس ينظران إلى بعضهما متعجبين من فلسفة

آريوس وذكائه، وقد أتى الراهب بمجموعة من أكواب النعناع الساخنة ليقدمها

للآباء، وقد تسمَّر هو الآخر ليستمع.

ضحك الأب بطرس قائلاً:

- أكمل يا سيد آريوس، وأفدنا من ينبوع تلك الحكمة المفقودة!

أكمل آريوس:

- يمكن شَمْلُ كلِّ ما في الوجود بعبارَةٍ مختصرةٍ ضمن مقولتين اثنتين:

المُرَكَّب، والبسيط. المقولة الأولى تضم كلَّ ما هو مرَكَّب (ومن ثمَّ ممكن

التفكك) أي المادة؛ والمقولة الأخرى التي تشمل ما هو بسيط (أي لا يمكن

تفكيكه)، كجزء مما هو مدرَك، أي الروح.

قال أرشيلالوس:

- عظيم جدًّا يا سيد آريوس يبدو أنك متقنٌ لهذه العلوم حقًّا.

ثم توجه أرشيلالوس إلى الأب بطرس قائلاً:

- الجزء الأخير من كلام السيد آريوس يصلح لأن يكون ردًّا فلسفيًّا على

بدعة سايليلوس، التي أبطلها أبونا "ثاؤناس"، ألم يزعم سايليلوس أن الأب

أقنومٌ واحدٌ ينقسم إلى ثلاثة أسماء، وأن هذا الأقنوم حينما خلقنا فهو الأب،

وحينما خلصنا فهو الابن، وحينما قدسنا فهو الروح القدس.

قال الأب بطرس:

- أحسنت يا أرشيلالوس، وقد تولى أبونا ثاؤناس الرد عليه بما يكفي، لكن

لعل السيد آريوس يُبين لنا وجوهًا فلسفية أخرى.

أجاب آريوس:

- عند الفلاسفة القديم لا يتجزأ، فيمكن الرد عليه فلسفيًّا بأن نقول: صفات

الألوهية المطلقة تنحصر بشخص الآب أو بأقنوم الآب. لكن ثمَّ كائنٌ إلهيٌّ

ذاتيٌّ واحدٌ. وهذا الكائن هو الحكمة الثانية الذي جاء إلى الوجود من العدم،

وهو سيدنا يسوع المسيح. ومن ثمَّ فهو مخلوق، كلمة الله ذاته خُلق من

العدم...

قاطعهُ ألكساندروس قائلاً:

- بعد إذن نيافة الأب بطرس، كلام السيد آريوس مؤداه التنقص من سيدي

يسوع المسيح، وهو لا يقصد ذلك بكل تأكيد. فإن نفي اللمسة الألوهية عن

الابن يقضي أنه مساوٍ لسائر البشر...

قاطعهُ آريوس:

- لا يلزم هذا حضرة الأسقف المكرم، فإن يسوع المسيح قد حلَّت عليه

بركات اللاهوت، فهو فوق سائر البشر، لكنه مخلوق ليس مساويًّا للأب في

الجوهر. وهذا ما تعلمناه من القديس لوسيان، وقاله العلامة أوريجانوس

وبولس السمساطي بل ونيافة أباكم وأبانا "ثاؤناس"!

قال ألكساندر:

- قل تعلمته من القديس لوسيان فقط يا سيد آريوس.

تبسم آريوس:

- إن كلامك يا سيدي ألكساندر معناه أن الابن من جوهر الآب وهذا يؤول إلى...

وقبل أن يكمل قاطعهما الأب بطرس قائلاً:

- هدوء.. هدوء أيها السادة! يا سيد آريوس عندما يتكلم من هم أكبر منك سنًا فلتلتزم الصمت! ولا داعي للجدال أيها الآباء في مسائل فلسفية.

ثم أوماً إلى أرشيلوس قائلاً:

- قم بتعيين آريوس من الآن شماسًا بالكنيسة في حي بوكاليا.

هزّ الأب أرشيلوس رأسه مستسلمًا، وتهيأ للترحل عن المجلس وهو يقول

بصوتٍ خفيض رقيق:

- كما تحب يا صاحب النيافة.

وضع بطرس يده اليمنى على كتف آريوس، ودعا له بالبركة وهو يرسم

الصليب فوق جبهته بإصبعه، ثم تزخّف نحو مخدته ليسترخ، وهكذا لم يبقَ

أمام الجميع إلا الانصراف.

\*\*\*

ثلاث ليالٍ مضت على وجود قسطنطين وزميله في ذلك الكهف، بجوار نهر الراين للمتواضع السيد الطبيب تيودوس، الذي يزورهم بين الفينة والأخرى، ويشرف على علاج ليسينيوس، ويطبخ له خلطةً من بعض عجين زهرة البابونج على الجرح حتى يلتئم.

لم يجد قسطنطين بُدًّا في أن يُبدي إعجابه بهذا الرجل الذي عمل على علاج صديقه، وأخذ يتحجج الفرصة ليسأله عما يجول في خاطره، فابتدر قسطنطين قائلاً: - يا سيد تيودوس، لقد كلمتنا عن نفسك، إلا أننا لم نعرف حتى الآن ماذا تفعل في هذا المكان البعيد؟

أجابه وهو مشغول في علاج زميله:

- أعلم أن الفضول يقتلك يا سيد قسطنطين! حسناً سأجيبك: أنا أتعبد هنا

وحددي، إنني راهبٌ مسيحي.

- راهبٌ مسيحي! إذًا أنت تنكر آلهتنا المقدسة!

فأجاب الرجل الحكيم بنغمةٍ ملؤها دعة:

- أيّ آلهة تعني؟

قال قسطنطين:

- آلهة آباءنا وأجدادنا المقدسة المنصوبة في كابيتول رومية: جوبيتير،

ويونيو، وإخوتهما وأولادهما، وآلهة الأمم الأخرى المبتوثة في المشارق

والمغرب والشمال والجنوب، التي كلها سارت إلى رومية لتستوي هنالك

على عروش كرامة لا تُضاهى.

فقال تيودوس:

- أيعني سيدي الأمير الأنصاب الماثلة أم مرموزاتها؟

كان لهذا الاستفهام موقع في قلب القائد، فشعر بأن مناجية ذو مقدرةٍ

عقليةٍ عاليةٍ، فترَوَّى في إبداء رأيه كفاية ثم أجاب: - كلاهما.

وما عثم تيودوس بعدما سمع كلمة الأمير أن استوى على قدميه وأنار وجهه

كأنه وجه ملاك، وقال:

- وددتُ ألا يجيب القائد الذكي بذلك، ليسمح لي القائد بنقد ظنونه، فأقول:

إن إنكار الألوهية على الأنصاب واضح الدليل ثابت البرهان، فإننا نحن صنعناها

بأيدينا والصانع أشرف من المصنوع، هي خشبٌ أو حجارةٌ أو حديدٌ أو فضةٌ أو ذهبٌ ونحن من لحمٍ ودمٍ؛ فنحن أشرف عنصرًا؛ لأن عناصرها وُجِدَت لخدمتنا نحن، فما يُفقد من مصنوعات بعضها يؤتى بمثله والناس لا يؤتى بأمثالهم، نحن نستولي عليها، أما هي فلا استيلاء لها علينا، والرب هو ذو السيادة، فنحن أربابها، وأنى تُسَلَّم أنها أوجدتنا ونحن نوجدها!

وهذه الأدلة الثابتة الأركان، السهلة الولوج في أعماق القلوب، يقتنع الجندي بصحتها لاستطاعة إدراكها، وقد حار قسطنطين في دفعها فإنه رأى أنه لا وجه لنقضها، وأبى أن يسلم بها لئلا يضطر بخطوةٍ أخرى على منهاجها إلى إنكار مذهب آباءه، فلم يجد خيرًا من التملُّص وطِيَّ هذا البحث على علَّاته شأن الضعيف أمام القويِّ، فقال: - هب أن الأنصاب ليست آلهة وإنما هي صورها تمثل لنا ما هي عليه من المهابة وتنبئنا بقوتها العظيمة، أفلا يليق بنا أن نسجد لها؛ لكونها رسوم آلهتنا المقدسة؟

فأجاب تيودوس:

- فيما أوردته بحثان: الأول: أن للآلهة والأنصاب عددًا كثيرًا، بدليل تسليمكم أن تلك الأنصاب تُمَثِّل الآلهة، أتعترف بكثرة الآلهة؟  
فأجابه قسطنطين:

- أعندك في ذلك ريب؟ أيمن أن تكون أمَّةٌ بلا آلهة؟ أيمن أن تكون مدينةٌ بلا رب؟ أيمن أن يكون بيتٌ بلا عين سماوية تكسو سكانه أثواب الصحة، وتمنح أبويه رزقًا، وتنمي بنيه الصغار ليكونوا رجال ونساء المستقبل؟  
فقال تيودوس وهو في غاية السكينة:

- إذا اعترفنا بالألوهية لأحدٍ ما قلنا شرط الألوهية التمام في كل شيء؛ التمام في الصلاح، التمام في القدرة، التمام في الحكم، التمام في الوجود الأزلي.

فما القول إذًا في الإله المنقول من مكان إلى آخر كعشتاروت إلهة الفينيقيين المنقولة إلى رومية؟

أحس قسطنطين بالحرص وتصبَّب عرقًا ولم يستطع أن يتكلم!  
استطرد تيودوس قائلاً:

- فإن كانت في رومية هي وليَّة التدبير فجوبيتير ليس بإله، وإن لم تكن

ولية التدبير فهي ليست إلهة، فلا تكون آلهة الأمم وآلهة رومية أربابًا في الحقيقة.

قال قسطنطين متلجلجًا:

- ربما كان الصحيح مذهب القائلين إن للكون إلهين؛ إله الخير وإله الشر، وأما أولادهما فهما أعظم من بشرٍ وأصغر من آلهة، فهذا أرجح حجة على ما أرى.

- كيف يمكن التسليم بأن تدبير العالم موجودٌ بأيدي إلهين اثنين؛ الواحد منهما ينصر الفضيلة والآخر يعضد الرذيلة، فبين المبدئين تضاد والتضاد مقدمة ينتج عنها الاختصام، والاختصام جالب التهلكة والفناء، والفاني لا يكون إلهًا؛ فشرط الألوهية الوجود من الأزل وإلى الأبد.

ولو فرضنا أن كل واحدٍ يدير بقعةً خاصةً به لقلنا: إن الذي قسّم تلك القسمة بينهما، وألزم كل واحدٍ منهما حدًّا معينًا وخصه به؛ فإن ذلك أولى من الجميع أن يكون إلهًا.

- ماذا لو قلنا لم يقسم بينهما أحد، بل هما استحسنا ذلك واتفقا عليه.

- هذا أمرٌ لا يصح افتراض وقوعه، وذلك لأن الخير المحض والشر المحض متناقضان كل التناقض فلا يتفقان على أمرٍ، ولا يصطلحان ولا يسلمان برأيٍ أحدٍ. فافتضى التسليم ضرورة وجود أمرٍ حاتمٍ على كل منهما بلزوم حدٍ معينٍ، والأمر عليهما هو الإله الواحد.

ظل تيودوس يتكلم ووجهه يشع نورًا وروحانية، وقد أجم قسطنطين الذي ظن أنه يستطيع مجادلته!

وبقي شارّدًا في كلام هذا الحكيم، إلا أنه كان من الصعب عليه وقتئذ أن يترك دينه ودين آبائه وأجداده.

\*\*\*

قبيل الغروب خرج قسطنطين من عند تيودوس الحكيم هائمًا على وجهه؛ لبحث عن ليسينيوس الذي يتنزّه بعد تماثله للشفاء. ظهر أمامه سهلٌ وافر الخضرة، تنتشر فيه أشجار النخيل، خلفه سلسلة من التلال تظهر مدينةً من بعيدٍ يظهر عليها العظمة والأبهة. المسلات الرومية الفريدة تظهر من بعيد، صوت المعازف تتجاوب أصدائها في الأرجاء، أسرع في الحال إليها عابراً الغابة، ثم ولج تلك القرية وعبر الشوارع والأزقة حتى انتهى إلى حانةٍ كبيرةٍ، حدثته نفسه أن صديقه بالداخل لما يعرفه عنه من محبة السُّكر والخلاعة.

دخل بيتًا من بيوت الجعة وسار بين المناضد والأرائك المتفرقة التي يجلس حولها الشاربون، وأمامهم أكواب الجعة الضخمة مغطاة بالرغوة البيضاء، وأكواب من الزيتون والبصل الأخضر أمامهم أيضًا، لم يجد ليسينيوس، لكن عليه الآن أن يجلس ويتظاهر بأنه يشارك الجميع الشراب والسُّكر، حتى يستجمع قواه ليفكر كيف يبحث عن صديقه الضائع!

جلس يتأمل القدرح الموفور الذي أنزله النادل للتوّ؛ فانتبه إلى امرأةٍ تنظر إليه بين الفينة والأخرى، اكتفى بالجلوس متربّعًا بسكونٍ تامٍ على الطاولة، محدقًا إلى الضوء الخافت دون أن يتبادل كلمةً واحدةً مع أيٍّ منهم. أحيانًا كان يسترق نظرةً من زاوية عينه، بما يشبه الرغبة إلى مداعبات الآخرين الخائفة، ثم يسלט نظره بصرامةٍ أمام أنفه؛ لكن في سريره كان سيسره التعرف على هذه المرأة. إرادته خذلته مرارًا وتكرارًا حين كانت تهيم عيناه عائدتين لتستقرا على عذوبة وجهها الهادئة، فيجد أن عينيها مثبتتان عليه لا تتزحزحان، كانت جالسة تحديق كالمفتونة.

لحظات وأقبلت إليه تلك المرأة بمشيئةٍ خليعة، وقالت له في صوتٍ مبحوح وهي تغرس كتفها في ذراعه: - لا أريد أن أعرف اسمك ولا من أين جئت. - وهل طلبتُ منك أن تعرفي اسمي؟ ليس عندي وقت للمسامرة، فقط أرتاح ساعة ها هنا لألحق بجيش الإمبراطور.

قالت المرأة في دهشة ورفعت كفيها وأثنت رأسها فرحًا: - أنت من رجال الحرب إذًا، يا لحظي! كنت أتوقع ذلك من فرط عضلاتك المفتولة وبنيانك

القوي!

كل هذا حصل في لحظات، وقسطنطين متفاجئ من الجرأة، ثم أضاف في اندفاع: - هناك غرفة بالطابق الأعلى إن أردت الراحة.

سكت قسطنطين، وتذكر أن كهف تيودوس ليس مكانًا جيدًا للنوم، ورأى أنه قد سنحت له الفرصة للاستراحة قليلًا.

وما أن لمحت قسطنطين قد استجاب، واقفًا، تقدمت منه فوضع في يدها بكل تواضع أجرة سكنه في الغرفة، ومن غير أن يبدو عليها الاندهاش قادته إلى الطابق العلوي.

لم يكن هنالك شيء يدعو إلى التقزز والاشمئزاز أكثر من هذه الغرفة ذات الجدران الوسيخة التي تفوح منها رائحة الفقر والتعاسة، كان سقفها منخفضًا جدًّا، وقرميدها المتفكك يسمح برؤية السماء، ولم يكن سوى مكان لسرير وطاولة وبضعة كراسي، لكن على كل حال هي أحسن من كهف السيد تيودوس.

كانت هي صاحبة الحانة. امرأة في الأربعين من عمرها، قالت المرأة في صوتٍ مبحوح: - اسمي جلاسكا وأعشق رجال الحرب!  
قالتها بعينين ملأتهما الخبيثة، حاولت أن تلتصق به، لكنه أزاحها حتى تجلس بجانبه في رفق: - أوه! لا تكن مملاً.

في سرعةٍ ومحاولةٍ منه لإثرائها عن مبتغائها حكى لها قصة هروبه، حتى انتهت إلى لحظة وصوله لهذه الحانة، خافت جلاسكا في بداية أمرها لمّا علمت أنه قسطنطين الأرطبون المعروف، ولم تعد تكلمه بجرأة كما كانت! كانت تستمع بإنصاتٍ واهتمامٍ شديدين إلى قصة هروبه، ثم قالت في النهاية: - لقد سنحت لك الفرصة يا سيدي، وإن أكبر ضربةٍ سوف تسدها إلى جلاريوس هي أن تلتحق بأبيك، فلتكمل مغامرتك يا سيدي، ولتصبح أنت الإمبراطور الأعظم.

سمع قسطنطين رنين الكلمة في أذنيه، ووضع كلتا كفيه خلف رأسه ليستلقي ببطء على السرير وهو يفكر في قولها "لتصبح الإمبراطور الأعظم!"، والذي يعني انتهاء الحكم الرباعي ليصبح ملكًا متوجًّا على الغرب والشرق! استغرق في النوم وهو كذلك، وبنهاية الأمر تمددت إلى جواره

جلاسكا!

\*\*\*

بينما ضوء النهار يتسلل ممتدًا على الحقول، ويعلو أكثر فأكثر، ساعة بعد ساعة، كان العشيقان يستلقيان على سريرهما، غائبين في متعهما، يستيقظان ويغفوان، يلتفت كلُّ منهما نحو الآخر ليضربا من جديد النار بينهما، وليندمجا ليغدوا شخصًا واحدًا، ثم يعودا إلى النوم من جديد وبعد أن انتهيا من عناقهما الأخير، همدا مرهقين، جعلت جلاكسا وجهها مدفونًا في الوسادة، وقسطنطين ممدد على ظهره عاليًا إلى درب التبانة، وحين أفاق قسطنطين أخيرًا رأى جلاسكا مشغولة بترتيب شعرها الطويل، فتابعها برهة من خلال عينين ناعستين. قال بان دفاع: - عليّ الآن أن أرحل على الفور، ليس هناك وقت!

التفتت إليه مجفلة، واحتضنته وقالت بصوتها المنخفض: - فلتكن في رعاية الآلهة يا سيدي.

\*\*\*

رجع قسطنطين إلى الكهف، فوجد ليسينيوس جالسًا تحت شجرة، فابتدره قسطنطين بقوله: - لقد بحثتُ عنك ليلة البارحة فلم أجدك! سكت ليسينيوس هنيهة، ثم قال: - آمل أن يكون لديك حيلة ما ننجو بها عند عودتنا لجلاريوس. قسطنطين:

- وما الذي جعلك تعتقد أنني سأعود إليه ثانية؟ هنا التفت ليسينيوس: هل فقدت عقلك؟ هؤلاء اللصوص مجرد بداية؛ طريق العودة يؤمنه جنود الإمبراطورية، أما الطريق إلى يورك فيعجّ بالبرابرة وقبائل الوحش.

لم ينبس قسطنطين ببنت شفة، فابتسم ليسينيوس وأطرق رأسه، قائلاً: - نسيت أن صاحبي لا يعدل أبدًا عن قراره، أما أنا فسأذهب لأتملق ذلك الوغد جلاريوس وصاحبه الملعون ماكسيمين دايا، قبل أن تسوء الأمور أكثر من ذلك، وسأخبره أنني كنت في رحلةٍ خلويةٍ. قال قسطنطين:

- أتفهّمك كليًّا يا صاحبي، وأجعلك في جِلٍّ من أمري.  
قام الرجلان وتصافحا بقبضتيهما كعادتهما، ومضى ليسينيوس إلى طريقه،  
أما قسطنطين فكان فكره مشغولًا بالمأزق الذي فيه؛ فأخذ يحدث نفسه:  
كيف سأشق الطريق إلى مدينة يورك وحدي، هناك شعرة تُفَرِّق بين الشجاعة  
والتهور، وعلى رغم حسن ضيافة العجوز، فإنني لم أغادر أنطاكية لأمكث هنا!  
بعد سويغات استيقظ السيد تيودوس وارتدى ملابسه ليذهب لإحضار بعض  
حاجيات المنزل، لفت انتباهه أن فراش قسطنطين فارغٌ. التفت يمينًا ويسرة  
حوله فلم يجد لقسطنطين أثرًا، انطلق الرجل للخارج فسمع صوتًا عند  
الأشجار، وإذ به قسطنطين ممسكًا الفأس وقد قام بنفسه بقطع ما يقرب  
من مؤنة شهرٍ كاملٍ من الحطب، تهلل وجه تيودوس، وصاح: - مرحى أيها  
الشاب، ليت الشباب يعود يومًا!  
ضحك قسطنطين قائلاً:

- الآن يمكنك أن تفخر بأن رجلًا من القصر الإمبراطوري قد عمل حطابًا  
عندك.

اقترب قسطنطين مُبتسمًا والفأس على كتفه في حين جحظت عينا  
تيودوس وانقبض قلبه، وهو يتأمل عيني قسطنطين وظل هنيهة صامتًا مصوبًا  
نظره في عينيه الثاقبتين بعدما تحولتا إلى بحيرتين من اللهب، انتابت  
قسطنطين رعشه وتملكه الخوف، ثم قال تيودوس ببطء: - إن عملت عندي  
حطابًا خيرٌ مما اقترفته من الخطيئة ليلة البارحة!

كانت كلمات تيودوس كالصدمة بالنسبة إليه! تعجّب من فراسته المذهلة!  
وراح يُحدّث نفسه: أيكون قد علم تيودوس بما فعلته ليلة أمسٍ مع المرأة في  
الحانة؟ وكيف عرف ذلك؟

لم يصرح تيودوس بقصده، ولم يحاول قسطنطين أن يسأله لأنه أحس  
بالخجل.

استأذنه بالرحيل وتعانقا عناقهما الأخير، وركب قسطنطين حصانه، ومضى  
في رحلته وحيدًا!

\*\*\*

طالت رحلة قسطنطين جدًّا، حتى تملكه التعب فجلس مسندًا ظهره إلى شجرةٍ وأغمض عينيه، رأى قسطنطين نفسه واقفًا في الظلام مرتعبًا ويسمع من حوله صيحات البرابرة وعواء الذئاب، وإذ بالذئاب تلتفّ من حوله كاشفةً أنيابها؛ وهنا حدث شيءٌ عجيبٌ؛ أشار قسطنطين إلى الذئاب فطأطأت رؤوسها، ثم سار أمامهم حتى رأى البرابرة أمامه، فأشار للذئاب فانطلقت شاهرةً أنيابها نحوهم.

استيقظ قسطنطين فوجد أن الليل قد حلَّ، نظر حوله غير مدركٍ أستيقظ هو أم لا؟ فلا يزال هناك صوت يأتي من الأشجار حوله، نهض مسرعًا وأمسك الفأس في يده، فقد أدرك أن هناك من يقترب منه، وفجأة وجد نفسه محاطًا بعددٍ من الأشخاص شاهرين سهامهم نحوه.

اقتاد رجلان قسطنطين وقال أحدهما: - إن أردت أن تنجو بحياتك دُلنا على بيتك، وأخرج لنا الحلبيّ والأموال الموجودة معك.

ثم أردف قائلاً:

- إياك أن تفكّر بالتلاعب بنا إذا أردت أن تحافظ على جسدك قطعةً واحدةً. نظر إليهم قسطنطين مليًّا وكان قد لاحظ شيئًا بخصوصهم؛ فأحدهم كان يرتدي تحت معطفه من الجلد زيًّا يعرفه قسطنطين جيدًا، إنه زيُّ جنود الرومان!

قال قسطنطين:

- ليست السرقة من شيم جنود قسطنطيوس العظيم. توقف الرجلان، وقال أحدهما في ذهول: - ماذا؟ كيف عرفت أننا من جنود الإمبراطور؟

قال الآخر لصاحبه:

- ألم أخبرك! أنا متأكد أنني أعرف ذلك الرجل! إنه قسطنطين ابن الإمبراطور قسطنطيوس كزُّلس.

- يا لسوء حظنا!

دُهل الرجلان اللذان أوقعهما حظهما العاثر بقسطنطين، وعلى الفور جثيا على ركبتيهما يطلبان الصفح والسماح، وحكيا لقسطنطين عن كل شيء!

علم منهم أن البرابرة كانوا قد أعدوا كميًّا للجيش، ففوجئ الرماة بهم وقد أحاطوا جيشهم، وكانت مقتلةً عظيمةً حتى إن الإمبراطور قسطنطيوس قد أصيب في المعركة؛ ولكنه تمكَّن من الانسحاب بصعوبةٍ أمام الرماة، أما هذه المجموعة فقد هربت مبكرًا إلى الغابات، وقد علموا أن قسطنطيوس لن يغفر لهم هروبهم، فانقطع بهم السبيل وهم الآن يقتاتون مما ينهبون.

جالت الأفكار في رأس قسطنطين، ووجدها فرصةً ذهبيةً كي يُحرز نصرًا ويعود إلى أبيه مرفوع الرأس.

أخبرهم أنهم أمام فرصةٍ حقيقيةٍ ليعودوا إلى ديارهم، وأنه سيشفع لهم عند الإمبراطور قسطنطيوس، شريطةً أن يدلاه على بقية الجيش وأن يأمروا بأمره، ومن خلال هذين الجنديين وصل إلى بقية الكتائب الشاردة، وركعوا جميعًا أمام قسطنطين.

\*\*\*

كانت الأنباء في طريقهم لا تُبشِّرُ بالخير؛ فالبرابرة قويت شوكتهم، حتى إن بريطانيا بكاملها كادت أن تصبح تحت قبضتهم، وكان الإمبراطور قد جهَّز جيشًا في مدينة "بولوني" لملاقاتهم.

وصل قسطنطين ورفاقه والمعركة على أشدها ومن فوق التلال الصخرية، المتاريس الطويلة المشيدة حفرًا في صخور الجبال على الجانبين، تحول الممر تدريجيًّا إلى دربٍ ضيقٍ يكفي بالكاد أن يقطعه أربعة رجالٍ جنبًا إلى جنبٍ على خيولهم، وارتفع بُرجًا حراسةً متمثلان من المنحدرات الصخرية، يربطهما جسرٌ مُغطى بالحجارة الرمادية.

كان البرابرة وقبائل الوحش الأوروبية ذوي شعور حمراء وصفراء طويلة، وصدورٍ عارٍ، وبشرةٍ بيضاء ناصعة، كانوا قد أحبوا الحياة الصخرية، ومعظمهم من الدول الإسكندنافية شمال أوروبا وبعض القبائل الجرمانية، ممن قد اعتادوا على الحياة الوعرة.

أخذ قسطنطين يراقب من كثب، ورأى البرابرة يهجمون بعنف على الجيش والدماء تتطاير من كل مكان؛ ليغطيها غبار المعركة مكوِّنًا طيِّبًا أحمر تنزلق فيه أقدام الرجال، خفق قلب قسطنطين بقوة، فالتخلف عن المعركة يؤلم قلب الجندي، وهنا خطرت له حيلةٌ رائعة؛ فعن بُعد كانت الحراسة على خيام ومؤن الجيش البربري ضعيفة، وإذا ما تمكن منها فسيجبر البرابرة أن ينسحبوا لنفاد مؤنهم.

وعلى الفور أمر قسطنطين رجاله بأن يجهزوا سهامهم وأن يحضروا العديد من الخرق المبلَّلة بالزيت، هجمت في البداية مجموعةٌ منهم بالسهام التي دبت الفزع في قلوب الحرس؛ فركضوا في كل اتجاه، وهنا دخل قسطنطين شاهرًا سيفه يضرب الحرس يَمنة وَيَسرة، ووسط هذه الفوضى دخلت المجموعة الأخرى، وأخذت تُلقي الخرق المشتعلة بسرعةٍ كبيرةٍ على الخيام والأمتعة، فاشتعلت كل خيامهم للتو! وبقي البرابرة في فوضى مذعورين.

سرعان ما وجدوا فارسًا يتقدم للقائهم، يصيح مناديًا وبصيح بصوتٍ أجش:  
"من يأتي لعبور البوابة الدامية؟!".

وأصوات صياح:

"الأرطابون قسطنطين ابن الإمبراطور يهجم بجيشٍ جرارٍ من الخلف!".  
فشد ذلك من عزم الجنود في حين أدخل اليأس في قلوب البرابرة، وكانت  
هذه حيلةً من قسطنطين، وقد أدت إلى قلب كفة المعركة، فعندما رأى  
البرابرة النيران أخذ بعضهم يهرب فيما شد الجيش من هجومه، وما أن خفت  
حرارة الشمس حتى كان جيش البرابرة قد شرد به قتلاً وهرب معظمه.

\*\*\*

وهكذا تحركت الجيوش المنتصرة ورائه عابرة البوابة التي تحطمت عليها  
دسته من الجيوش الأبطال، ثمة خوف غامض رفض أن يفارقه مع أنه رماه  
إلى الماضي، شيءٌ عزيزٌ بداخلة ظل يحتل جزءاً من تفكيره، هو مذاقٌ  
مختلفٌ، فكرةٌ متبقيةٌ، حلقةٌ من حديدٍ تطوّق قلبه.

لقد تعلم في أقل من سنة كل ما يمكن أن يتعلمه عن الحياة الوعرة:  
العزلة، الحرية، غريزة استكشاف أماكن الحيوانات والأشجار، تذوق الحب  
العابر، لكن دون أي إيمان به، والحاجة المُرّة كالموت، لقد ظل أياماً عديدة  
ضيئياً على الحقول الصيفية، وأياماً طويلة وأشهرًا ضيقاً على الغابات، وأياماً  
في الثلوج، وأياماً يتلبسه الخوف من الموت.

انتهى قسطنطين من مرحلة كان لا بد منها في حياته! وعلى الطرف البعيد  
من البناء المحفور في الصخر، كانت الجبال تنفتح فجأة أمام قسطنطين  
وجيشه المنتصر على مشهدٍ بديعٍ من الحقول الخضراء والسماء الزرقاء،  
والجبال التي اكتست بالثلوج ليشرق على قسطنطين فجر عهدٍ جديدٍ!

\*\*\*

وصلت الأنباء إلى الإمبراطور قسطنطيوس كزُّلس الذي كان راقداً في خيمته يُعالج من إصابته فتهلل وجهه، وتحامل على نفسه وارتدى زيه العسكري ليقابل ولده، حاول الأطباء منعه لكنه رفض قائلاً: وهل سأقابل ابني راقداً؟ ثم خرج من خيمته ورجاله خلفه.

أتى إليه قسطنطين نظر إلى والده مبتسماً يحاول حبس دموعه تتسلسل من عينيه، عندما رأى قسطنطيوس المهيب مجهداً مصاباً والإعياء قد أخذ منه ما أخذ، تعانق الأب والابن ثم أعطى الإمبراطور أمراً بالانصراف حتى ينال الجميع قسطاً من الراحة، أراد قسطنطين أن يدخل مع والده؛ لكن قسطنطيوس رفض وأصر أن يذهب ابنه هو الآخر ليغتسل ويستريح، وبعد أن انصرف قسطنطين أمر قسطنطيوس بأن يجتمع وزراءه ورجاله عنده في نفس الليلة.

لم يكن قسطنطين قد اغتسل منذ زمنٍ بعيد، فغيّر ملابسه التي فعلت بها المعركة الأفاعيل، واغتسل بالماء الساخن الذي كان بخاره يتصاعد فيجعل الرؤية ضبابية. كان يجد لذةً في النظر عند قدميه، إذ كانت المياه الساخنة تنزل ممزوجةً بالطين، مما أعطاه شعوراً بالارتياح والرضا عن النفس، ثم جفف جسده وارتدى ملابس ناعمة الملمس، وخلد بعدها للراحة لساعاتٍ طويلة وجد فيها لذة النوم الهانئ، ولم يوقظه إلا طرق أحد الحرس ليلاً على بابه:

- سيدي، الإمبراطور يدعوك للحضور بعد قليل.

نهض قسطنطين وطلب شراباً دافئاً لينعش ذهنه، ثم ارتدى حلةً أنيقةً وتوجه إلى القاعة حيث والده بانتظاره.

بداخل القاعة كانت القيثارات تعزف وكبار رجال الدولة يتضحكون ويشربون نخب انتصارهم، وكانت المأدبة تكتظُّ بأطياب الطعام، كان جوّاً بهيجاً افتقده قسطنطين منذ زمن.

طرق الإمبراطور بيده على الطاولة فانتبه الجميع، ثم قال:

- أيها السادة كلنا مدينون بالفضل لقسطنطين.

سكت قليلاً ثم تحامل على نفسه، وقال بأعلى صوتٍ رافعاً الكأس في يده:

- فلنشرب جميعًا نخب بطل الرومان.  
صاح الجميع:

- عاش الإمبراطور، عاش بطل الرومان.

مرت أيامٌ قليلةٌ ومرض أبوه يشتد بمرور الأيام، والموت يستعد للضغط على زناده، الإمبراطور يألم عندما يفكر في الإرث الذي ستركه لولده، فبريطانيا دُمرت وقبائل "البيكتس" يعبثون بها كيفما شاءوا، وفي الشرق جلايوس اللعين يتربص بهم، أرهق التفكير الرجل العجوز فرفع رأسه، فرأى قسطنطين يدخل من القاعة في أبهى صورة ابن يشرف به الرجال.  
دخل قسطنطين على فراش أبوه وهو في تلك الحالة، في حين كان أبوه يتبسم بصعوبةٍ بسمة تتابها عبسة الألم بين الفينة والأخرى، قال لابنه:

أنت الإمبراطور من الآن!

لقد كانت تلك هي الكلمات الأخيرة قبل أن يفارق الحياة بلحظات، صنع بهذه الكلمات جزيرةً نائيةً ووضع ابنه فيها، شعر قسطنطين بالوحدة وسط تيار الريح الذي سوف يواجهه وحده، هالهُ من ضوءٍ ورمالٍ تنهال على رأسه، غشاوةٌ أو غلالةٌ معتمَةٌ سدّت عليه بانسدالها رؤية الأشياء بوضوح!  
الآن بات العالم أخيرًا مفتوحًا أمامه، جاهزًا لأخذه بين أحضانه، لمنحه نصيبه من المتعة والألم.

لم يعد قسطنطين تلميذ مدرسة جلايوس التي كانت تكبح جماحه ليأتمر بأمر قوادها، ويحدّق إلى العالم من خلال نوافذها ليكون أسيرها، بل أصبحت تلك الأرض الشاسعة هي أرضه وسماؤها سماؤه، وتقلبات حالها تقلباته، أصبح العالم الغربي الآن تحت وطأته يأتمر بأمره وينقاد إليه، والآن أصبح الوقت مواتيًا ليُخرج إبداعه من مكنونات نفسه إلى واقع العالم المحسوس.

\*\*\*

ماكسيمانوس يتملق!

في جنح الليل تحركت الخيل منطلقاً إلى عاصمة الدولة الرومانية الغربية، كان الجميع منهكاً من الطريق الطويل الذي قطعوه، ولكن على رغم الإنهاك كانت الأبهة واضحة عليهم من الذهب والأحجار الكريمة في كل مكان؛ في لباسهم؛ وفي مقابض سيوفهم؛ وفي العربات الفخمة؛ بل وحتى في جيادهم. تحرك الموكب حتى وصل إلى قصر قسطنطين ببلاد الغال<sup>(13)</sup>، كان زائراً استثنائياً، زائراً يعرفه جيداً الحرس وكل رجال القصر، بل وحتى عامة الناس وبخاصة أهل إمبراطورية الغرب، زائراً كان له ذات يوم شأن كبير، وكان الجميع يأترونه حتى قسطنطين وأبوه، وصل الخبر إلى قسطنطين، وفوراً فُتحت الأبواب، وكانت مفاجأة لقسطنطين، كان الزائر هو ماكسيمانوس.

- الإمبراطور المعزول قرين دقلديانوس،-والذي عزله دقلديانوس من الحكم بعدما عزل نفسه بإيعاز من جلاوريوس، إنه هو وقد بدل القدر حاله، فبعد أن كان يحيط به ملء الأرض من الخدم والجند، وبعد أن كانت نصف الإمبراطورية ملكاً له راح ذلك كله، ثم زاد الأمر سوءاً تمرد ابنه مكسنتيوس في إيطاليا على جلاوريوس، ومقتل سيفروس على يد جند ماكسيمانوس السابقين، مما جعله هو وابنه أعداء للإمبراطورية.

دخل ماكسيمانوس ورجاله يحملون الهدايا النفيسة والنادرة، وتم وضع الهدايا عند أقدام قسطنطين.

ثم تكلم ماكسيمانوس، قائلاً:

- سيدي القيصر يسرني حقاً ما وصل إليه حالك، كثيراً ما كنت أنت وأبوك من خيرة القادة؛ ولكن ذلك الأحق جلاوريوس لم يعرف كيف يكسبكما في صفه.

نظر قسطنطين إلى الهدايا ثم رفع عينيه إلى ماكسيمانوس، قائلاً:

- سيد ماكسيمانوس الجميع يشهد بفراسيتي ومهارتي، ودون إطالة الحديث أنا أعلم سبب مجيئك، لِمَ لا تخبرني بطلبك مباشرةً.

ارتبك ماكسيمانوس ثم جمع شتات نفسه، وقال: يا سيد قسطنطين لا يخفى عليك أن ابني مكسنتيوس يجمع الجيوش في إيطاليا، وجلاوريوس عدو

لنا ولك، إذا وضعت يدك في أيدينا فسنملك الإمبراطورية كلها.  
قال قسطنطين:

- أنت تعلم ان ابنك مكسنتيوس لا يكره أحدًا أكثر مني، وكثيرًا ما سخر  
مني أمام جلاريوس ودقلديانوس من قبل، برأيك ما أول ما سيفعل عندما  
يستتب له الأمر؟

اضطرب ماكسيمانوس وحاول أن يقول شيئًا، ولكن قسطنطين قاطعه  
مناديًا قائد الحرس:

- خذ الضيوف إلى أفضل غرف القصر، واحرص على أن يتناولوا أطيب  
الطعام، وأعط أمرًا للخدم بأن يسهروا لتلبية طلباتهم، ثم أردف قائلاً:

- يا سيد ماكسيمانوس آمل حَقًّا أن تسرك ضيافتنا فلننل قسطًا من الراحة  
ولعل لنا غدًا حوارًا آخر.

انصرف ماكسيمانوس والضيق يملؤه، ولكنه لم يفقد الأمل فقد كانت هناك  
ورقة لم يلعب بها بعد!

\*\*\*

تسلَّل إلى غرفة قسطنطين ضوء الصبح الباكر، ضوء يميل إلى الصفاء، يخلو من أشعة الشمس التي لم تسطع بعد، فوجد نفسه مستيقظاً ونهض عن سريره على ألا يعود إلى الفراش، وتاقت نفسه أن يذهب إلى الإسطبل، ويُطعم الخيل بيده كما كان يفعل قديمًا في نيقوميديا.

كان القصر لا يزال نائمًا إلا من بعض الحرس، فدخل قسطنطين الإسطبل، وقام بنفسه بإطعام الجياد، وكان لدى قسطنطين جوادٌ يُدعى جوبيتوس من سلالةٍ نادرةٍ، مجرد رؤيته تأخذ بالعقل، وتعرفه من وسط الجياد جميعها، كان قسطنطين يحبه بحق، وأراد في هذا الصباح الباكر أن يغسل جواده بنفسه، فجهز دلوًا مملوءًا بالماء المعطر، وأخذ بعض القش، وبينما كان متجهًا إلى حصانه رأى ما جعله يتسمَّر مكانه.

في وسط الإسطبل كانت تقف تلك الفتاة بشعرٍ أشقرٍ ناعمٍ طويلٍ، وترتدي رداءً قصيرًا يكشف ما فوق ركبتيها وكتفيها، وكانت تخاطب جوبيتوس الجواد المهيّب، وعلى غير عادته مع الغرباء كان الجواد مستأنسًا كقطِّ أليفٍ يلاعب سيده، وكانت تُمرِّر يدها على رقبتها، وتحكُّ له ذقنه، فيطأطئ رأسه مستمتعًا أيما استمتاع، ثم التفتت الفتاة إلى قسطنطين فرأى عينيها الزرقاوين التي لم يرَ أجمل منهما يومًا، ولم يظهر عليها أي فزعٍ، بل قالت بابتسامة: - جوادٌ مميّزٌ حقًا، أنا أحسد صاحبه.

كانت قصص الجن التي تظهر فجراً شائعةً بين الناس، سكت قسطنطين وهو لا يدري أجيئةٌ هي أم بشرية، ثم استجمع قواه، وقال في فخر: - إنه جواد الإمبراطور.

فقال هي بحماس:

- كنت متأكدة من ذلك، فهو جوادٌ فريدٌ حقًا.

ثم نظرت إلى الدلو بيد قسطنطين، وقالت: - لا يبدو أنك السائس!

قال قسطنطين:

- وماذا يبدو؟

- من ملامح وجهك أقول إنك فارسٌ لا يعرف في حياته إلا الحروب

والحصون والقلاع.

ابتسم قسطنطين:

- لم أكن أعلم أن وجهي يبدو عليه ذلك، إذًا ربما أنا من فرسان الإمبراطور.  
ضحكت الفتاة ضحكة طفوليةً، وقالت بفرحةٍ بريئةٍ: - كنت أعرف؛ ذكائي لا يخونني أبدًا.

أشاحت وجهها عنه برفقٍ كحوريةٍ تتهاذى بين يدي سيدها، قائلةً: - سأتركك الآن لتقوم بعملك، على رغم أنني أتمنى أن تسنح لي فرصةً أخرى لرؤية جوبيتوس، وسارت لتخرج من الإسطبل، ثم توقفت فجأة وأشارت ملوِّحةً بيديها.

اقتلع أقحوانةً عطرةً من بين العشب، ورفعها أمام عينيه، وراح يمعن النظر فيها ثم دفعها إلى فوستا.

أخذت الأقحوانة، ثم مدت يدها وأزالت عودًا صغيرًا من القش على جبهته وغادرت.

غادرت وقد أخذت بعقل قسطنطين تمامًا، حتى إنه لم يسألها من هي، ولا من أين جاءت؟!

أحس قسطنطين بنشاطٍ عجيبٍ فقام يغسل جواده، ثم عاد فارتدى زيه الرسمي وانطلق في جولة بجواده، وعقله لا يزال مأخوذًا بتلك الفتاة التي رآها، تُرى من تكون؟

عاد قسطنطين إلى القصر وكان الجميع قد استيقظ، وجلس مع وزرائه لبعض الوقت ليطلع على أمور دولته، ثم استأذن ماكسيمانوس ورجاله بالدخول فأذن لهم، ثم تحدث قسطنطين قائلاً: - يا سيد ماكسيمانوس لو كنت مكاني، هل كنت ستدعم شخصًا وأنت تعلم أن دعمك له سي جلب لك المتاعب؟

أجاب ماكسيمانوس:

- كلا بالطبع، إلا إذا علمتُ أن نفعًا عظيمًا سيأتي من وراء ذلك.  
كان بإمكان قسطنطين رفض الأمر وغلق باب الحوار من البداية؛ ولكنه أراد أن يستمع لماكسيمانوس ليعرف ما بجعبته، سأل قسطنطين: - وما النفع من ذلك؟

ردَّ ماكسيمانوس:

- سنعترف أنا وابني بك إمبراطورًا (أغسطس).  
جذب العرض اهتمام قسطنطين إلى حدٍّ ما، فهو يعلم أن جلاريوس لن يعترف به مطلقًا بوصفه إمبراطورًا، ولولا الضغط عليه ما اعترف به كقيصر حتى، وبالتأكيد لن يهدأ له بال حتى يُدبّر له المكائد.  
قال قسطنطين:

- ولكن ما الضامن لي بوفاء عهدك؟

رد ماكسيمانوس:

- أنت محقٌ لذا سأدبّر لك موعدًا بعد أن تُنهي جلستك مع وزراءك مع شخصٍ ما سيعطيك الضمان الذي تريده، ثم قام ماكسيمانوس، واستأذن بالانصراف وترك قسطنطين متحيرًا.

وبالفعل بينما كان الوزراء يهمون بالمغادرة بعد مشاوراتهم مع قسطنطين، دخل أحد الحرس قائلًا: - سيدي هناك امرأةٌ ورجلٌ من الوفد المرافق لماكسيمانوس يستأذنان بالدخول.

أذن لهما قسطنطين وفتح الباب لتدخل فتاةٌ أنيقة الملبس، على جبهتها تاجٌ من الزهور، وتُغطّي وجهها بقماشٍ خمري اللون، وكانت شديدة الاستحياء فلم ترفع رأسها؛ بل كانت مطرقةً في خجلٍ شديدٍ ومن ورائها رجلٌ طاعنٌ في السن.

قال قسطنطين مخاطبًا الرجل العجوز:

- هل أنت من أرسلك ماكسيمانوس ليعطيني الضمان؟

رد العجوز:

- عفوًا يا سيدي لسئ أنا، بل هي!

ثم أكمل:

- يا سيدي القيصر مولاي ماكسيمانوس يعرض عليك الزواج بابنته الحبيبة وפלذة فؤاده، وأن تقيم في قصرٍ، ولا أظن يا سيدي أن هناك ضمانًا أقوى من ذلك.

ثم أشار العجوز إلى الفتاة فرفعت الخمار عن وجهها، وهنا هب قسطنطين واقفًا، إنها هي فتاة الإسطبل، نزل قسطنطين من على عرشه، ووقف على بعد خطواتٍ منها ولاحظ دمعًا تنزل من عينيها، فقال قسطنطين مُبتسمًا: -

يبدو أن الفرصة ستسبح لك مرةً أخرى لرؤية جوييتوس!  
رفعت عينيها لأول مرةٍ منذ دخلت وهنا تملكها المفاجأة: - أنت؟ أنت  
قسطنطين؟! تبسمتُ وشعرتُ بالخلج فأدارت وجهها إلى الرجل العجوز  
تارةً، وإلى أنحاء المكان تارةً وعلى وجهها ابتسامَةٌ امتزجت بالدموع.

قال قسطنطين:

- وأنا قبلتُ، حقًا قبلتُ!

قال الرجل العجوز:

- سأبلغ سيدي ماكسيمانوس بذلك حالًا، فهذا الخبر سيُسعده لا شك.

واستأذن بالانصراف، وعندما وصلا الباب صاح قسطنطين: - ما اسمك؟

قال العجوز:

- يا سيدي اسمها.. فأشار إليه قسطنطين فسكت.

تبسمت الفتاة، وقالت:

- (فوستا)، وانطلقت.

وظلت عينا قسطنطين معلقتين صوب الباب وهو يتمتم لا إراديًا: - "فوستا"!

\*\*\*

أما على الجانب الآخر وفي الجناح الخاص بماكسيمانوس، كان مكسنتيوس  
يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، والشرر يتطاير من عينيه، وقال لأبيه مُغضبًا: - بحق  
الآلهة! أنتم ستهدمون كل شيءٍ بهذا الزواج اللعين!

تدخلت فوستا وقالت:

- ولماذا كل هذا الكره لقسطنطين! إنني وجدته لطيفًا حقًا.

قال مكسنتيوس متهمًا:

- بل قولي إنكٍ أحببتهِ إدا!

- ولماذا لا أحبه، وأنا سوف أصير ملكةً؟

قال بلهجةٍ لا تحتمل نقاشًا:

- نعم! يجب أن تصيري ملكةً، في حين أنا أدير شؤونكما، وأنظف لكما

حظيرة الخنازير!

قال ماكسيمانوس وقد ارتسمت عليه حكمة الشيوخ: - وهل يسوؤك أن

تصير أختك ملكةً ذات يوم وأبناؤها يحكمون من الأناضول إلى بحر الظلمات!

ما السيئ في هذا الأمر؟ يا بُني لا تنسَ أن قسطنطين أصبح يملك الغرب الآن، وأنا بهذا الزواج، -وإن شئت فقل: بهذه الخطة- سوف ندخل في جلف مع قسطنطين في مواجهة أباطرة الشرق، وبعد ذلك سنتخلص من قسطنطين إذا أردنا، وننفرد وقتئذٍ بالإمبراطورية كلها.

قال مكسنتيوس في حلق:

- أنتما تتحدثان كأن قسطنطين طفل صغير، ولن يكشف تلك المؤامرات الساذجة! صدقني أنا لا أستريح أبدًا لما تصنعه!

- اصبر يا مكسنتيوس، اصبر يا ولدي، وكل شيء سيكون على ما يُرام!

\*\*\*

ولّى فصل الشتاء، وخفّت وطأة البرد، وعُقد في بيت آل ماكسيمانوس مراسم الزواج، كانت بنات الثبلاء ينظرن إلى فوستا نظرات غبطة على هذا الزواج المثالي، وأما قسطنطين فقد شرد يُفكر للحظات في منرفينا التي تركها في نيقوميديا، بمثل المرارة التي فكر بها عقب أن تركها، لا يدري لماذا تذكّرها في تلك اللحظة تحديدًا، هل هو تأنيب الضمير؟ أم ماذا؟

سرعان ما استفاق من شروده وجهّز نفسه للإبحار في بحر الواقع، كان أمله المنهار في بناء بيتٍ وإنشاء أسرةٍ يحز في قلبه. كان يحلم بالعيش النظيف، وكانت أحلامه بالزوجة الجميلة والأطفال تُداعب مُخيلته ولا تفارقه لمحةً واحدةً، إن السنين تمر عليه سريعًا وما زال بيته خاليًا من زوجةٍ تكون من سلالة الملوك يُفاخر بها الأمراء والنبلاء، زوجة تزهو فيه وتُشرق وتقلب جده وظلامه نورًا، وهدوءه ضجةً.

إن فوستا لم تكن تقل جمالًا عن منرفينا، كانت مُفعمّةً فتنّةً وسحرًا، وطربًا وسكرًا، ذات صوتٍ ينعش الأرواح، ويزيد برقته على البلبل الصداح، وإذا رقصت فضحت الغصون إذا ميلتها نسيمات الصباح، جامعةً بين الأضداد من رقةٍ وشدّةٍ، ممزوجة الدعابة بالوقار، والخلاعة بالحشمة، والطرب بالأدب، فلا يتغلب هيامٌ على قوة إرادتها.

وبمرور الأيام ازداد تعلق الزوجين ببعضهما، وتَمّت بينهما علاقةٌ فريدةٌ من نوعها، أقرب إلى جنونٍ منه إلى الحب، ولم يعلم الزوجان ما تحمله لهما الأيام القادمة!

\*\*\*

في قداس عيد العذراء مريم ابتهج الشعب الإسكندري؛ إذ فرحت القلوب بسيامة البابا بطرس تلميذه المشهود لهما: أرشيلالوس وألكساندروس، ومنحهما نعمة الكهنوت؛ إذ ساهما قسّين على كنيسة الله الجامعة المقدسية بالمدينة العظمى الإسكندرية، باسمي القس أرشيلالوس، والقس ألكساندروس.

وقد أقدم الإمبراطور ماكسيمان دايا على إلقاء القبض على البابا بطرس أسقف الإسكندرية بتهمٍ قد وُجّهت إليه، منها: تحقير البابا بطرس للآلهة، وتحريض الآخرين على رفض السجود لآلهتنا العظيمة، وتجرؤ البابا بطرس على إقامة الشعائر المسيحية جهراً، وشكوى الفيلسوف سقراطيس ضد البابا؛ لأنه قد عمّد ابنه دون رغبته.

وبعد أيامٍ قلائل، سمعوا جلبهً وضوضاء في فناء الكاتدرائية، أسرع القسس ليستطلعوا الخبر، وإذ بخمسةٍ من كبار الضباط مع جنودهم الرومان في الفناء، لماذا جاءوا؟ وماذا يريدون؟

واستفسر ألكساندروس، بلباقةٍ وأدبٍ جمٍّ من قائد المهمة عن طبيعة مهمتهم، فأخبره القائد بأنهم مُرسلون من قبل الإمبراطور "ماكسيمان دايا" لإلقاء القبض على "البابا بطرس" أسقف الإسكندرية.

وإذ بباب القلاية البطريركية يُفتح، وإذ بالبابا بطرس بلحيته البيضاء يخرج ويده عصا الرعاية، يرتدي ملابسه كأنه ذاهبٌ في مهمةٍ رسميةٍ، وتقدم بهدوءٍ ووقارٍ، فحيا قائد الجند، لم يسأله: لماذا أتيت؟ أو ماذا تريد؟ ولكن قال لهذا القائد: هيا بنا.

حلّت الدهشة والوجوم على الوجوه، وكأن على رؤوسهم الطير، فالكل فقد القدرة ليس على التصرف فقط، بل حتى على التعبير عما يعتمل من مشاعر داخل نفسه، فما دام البابا سلّم نفسه بإرادته، فمن يجرؤ أن يدافع عنه، وجالت نظرات البابا سريعاً بين تلك الوجوه، كأنها نظرات أبٍ يوّدع أبناءه.

تقدم البابا بطرس إلى أرشيلالوس، وقال بصوتٍ دافئ:

- لا تحزن يا سيد أرشيلالوس فإننا جميعاً ماضون إلى الملكوت، تذكر أنك

أكبرهم سنًا وأكثرهم حكمةً وروحانيةً، فاجعل الكنيسة في عهدتك!  
وما أن جلس البابا في العربة بين جنديين رومانيين مفتولي العضلات، حتى أطلق قائد المركبة العنان لجياده لتعبر إلى الطريق الكانوبي الذي يصل إلى السجن العمومي على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات، انطلقت الجياد تسابق الريح، وسط كوكبةٍ من الفرسان، وكأنه موكبٌ إمبراطوري، وأعين الجميع تتعلق بالموكب.

وسريعًا ما طارت الأخبار فعمّت الأرجاء وارتجّت المدينة العظمى الإسكندرية، منذ أكثر من مائتي عام وحتى البابا بطرس السابع عشر لم يُقدِّ أحد من الآباء البطارقة إلى ساحة الاستشهاد، ولهذا ارتجّت المدينة العظمى لهذا الحدث الجلل، وتباينت المشاعر.

ومرّت الأيام والبابا قايع في سجنه، والسجناء يلتمسون بركته وهو يُبشّرهم باقتراب نصر المظلومين، وسرّت موجةٌ عارمةٌ من الروحانية عمّت الشعب، فصارت السماء منفتحة على أرض الإسكندرية؛ لأنه لا يوجد حيٌّ من أحياء الإسكندرية يخلو من الشهداء والمعترفين، وصار أرشيلوس وألكساندروس وسيلة الصلة بين قداسة البابا وشعبه، يحملون له آمال شعبه وآلامهم ويحملون للشعب صلوات البابا ونصائحه الثمينة لهم.

وأرسل والي الإسكندرية إلى الإمبراطور يخبره بأن أوامره المقدسة قد تم تنفيذها بالتمام، وها هو ذا "البابا بطرس" أسقف الإسكندرية رهن السجن!

\*\*\*

في أوائل كانون الأول كان شيخٌ يبلغ الستين من عمره، يسير في حي بوكاليس بالإسكندرية على رغم المطر الغزير المنهمر، وهو يرفع رأسه بين وقتٍ وآخر، وينظر إلى الأبواب مفتحةً عن بيت آريوس، ببساطة طفل وتجهُّم فيلسوف، وكانت أمارات الحزن العميق المتصارع مع مزاج استبدادي ترتسم على وجهه الجاف الذي يُشبه رفاً يتلَوَّى في النار، أما شعره فكان يتدلى على صدغيه وجبهته أشعث أغبر. يرتدي زياً كنيسيًّا مميّزًا، كان الهواء البارد يتلاعب بنيران المشاعل التي أوقدها آريوس بجوار منزله القابع بجوار الأبرشية، وقريبًا من باب المنزل كان يقف أحد آباء الكنيسة ممسكًا بلجام حصانٍ أصهب، يتبادل الحديث مع أصدقائه أو لربما كانوا تلامذة هذا العجوز. أحس آريوس أن ثمة أصواتًا تحت منزله، نظر من شرفة منزله المتواضع، فوجد رجالًا يبدو عليهم هيئة الخدمة، فقال:

- مرحبًا برجال الله، هل تحتاجون إلى مساعدة؟

قال الأب ذو الثياب المتواضعة:

- نسأل عن الأب آريوس بن أمونيوس!

تبسم آريوس على الفور:

- لعلك قد وجدتِ ضالتك، من يحدثك هو آريوس بنفسه.

نزل آريوس للتوّ وفتح لهم بوابة المنزل المتواضع، وتعانق الرجلان عناقًا حارًّا، ثم أدخلهم المنزل.

كان الرجل متكئًا إلى الطاولة، يوحي أن صاحبه من سكان الجنوب يفوح برائحة مصر العتيقة، وثمة سبعة أو ثمانية متفرجين شكّلوا صفًا أمام الطاولة، ينظرون إلى آريوس.

كان الزائر هو الأب ميليتوس أسقف أسيوط، انتابت آريوس وقتها رعشةٌ سارت في سائر بدنه، وظل شاردًا في فكره للحظاتٍ يسيرة، لا يعلم هل يفرح بإرواء فضوله برؤية ذلك الأب الذي يتكلمون عنه ليل نهار، أم يخاف من استقباله ليُتهم بعدها بأنه من أنصاره وأعوانه! لم يطل آريوس التفكير ولم يجد -وقتئذٍ- بُدًّا من استقباله إذ أتاه إلى بيته!

استقبل الأب، ودخل وراءه جماعة يرفلون في أرديتهم الكنسية المزركشة.

الظلام يكاد يكون كاملاً في الغرفة الواطئة الضيقة التي تملؤها خزائن كبيرة من الكتب، وعلب كرتون، وملابس مبعثرة، وأسمال بالية، حتى ليتعذر على المرء أن يتحرك فيها من فرط ازدحامها بالأشياء.

وكانت بقية الشمعة المشتعلة في أحد الأركان تُوشِكُ أن تذوب كلها، فهي لا تبعث الآن إلا أشعةً باهتةً كابيةً. ففصّل آريوس أن يفتح الشباك لينفرش ضوء الشمس في المكان.

وفي هذا الجو الهادئ جلس الأب ميليتوس ورفقاؤه وعليهم أسارير البهجة والسرور:

غرفتكَ هي غرفة مُفكرٍ وقارئٍ منهوم يا سيد آريوس، فالكتب فوق بعضها بعضًا مبعثرة في الغرفة.

لا أجد وقتًا للترتيب يا سيدي، فأنا ألقى الدرس في المدرسة الإكليريكية، وأقوم بالقداس في الكنيسة، وأقرأ في بيتي أيضًا، إن حياتي كلها عمل، لا يتوقف عقلي إلا عندما أخلد إلى النوم. إن النوم هبةٌ إلهيةٌ لولاها لاجتاح العالم الجنون! كل ما في الكون ينام ويصحو، إلا آثامنا وذكرياتنا التي لم تنم قط ولن تهدأ أبدًا.

تنهّد آريوس ورأى أن الفرصة قد سنحت له ليروي غليل فضوله، فقال:  
- سيد ميليتوس! لو تحدثنا عن طبيعة خلافاك مع الأب بطرس، فإنني أسمع الكثير ولا أعلم ما الحقيقة!

تنهّد ميليتوس تنهيدةً طويلةً أتبعها بلحظات سكوتٍ وتأملي، ثم قال:  
- البداية يا بُني كانت عام أربعة بعد الثلاثمائة، حيث أقام الفاجر دقلديانوس حملة مدهمات رحّت أنا ضحيتها مع الأب بطرس، ووضع كبار القسيسين في الزنازين، وكنت أنا والأب بطرس في زنزانةٍ واحدةٍ.

أصدقك القول، وللمفارقة! لقد كان السجن قطعةً من الجنة، لقد كنا بين جنبات السجن في روحانيةٍ عاليةٍ، نستذكر وصايا المسيح المُخلص ووصايا الآباء الرسولين، وقد كنا في هذه الحال صابرين على ما ننال من أدّى، لكن حدث أن سمعنا بالقبض على أساقفةٍ ضعفوا وبخّروا للأوثان وعبدوها خوفًا من العقوبة.

- لكن يا سيدي، ليس كل الناس على مستوى إيمانٍ واحدٍ، فما تتحملانه

أنت والأب بطرس قد لا يتحملة غيركما من الأساقفة.  
- أستطيع أن أتفهّم أن الإنسان قد يضعف تحت التعذيب الشديد، نعم؛  
فالإنسان له طاقةٌ بحسب ما خلقه الله عليها، لكن لا أتفهم -أبدًا- يا سيد  
آريوس أن يضعف الإنسان دون تعذيبٍ، فقط خوفًا من دخوله السجن أو حتى  
خوفًا من الجلد!

سكت ميليتوس للحظات، ثم أطرق قائلاً:  
- لا مخرج مما هو محتوم يا سيد آريوس، فلتكن مشيئة الرب! حقيقي يا  
آريوس أنني سعيد أن قابلت أحد تلامذة القديس لوسيان، إن تلامذته لهم  
تقديرٌ خاصٌ لديّ، إذ قد سَلِمُوا من هرطقات السابلية.

تنحج رجلٌ طويل القامة، قوي البنية، شعث اللحية، غليظ الحاجبين وفي  
عينيه قوةٌ غير عاديةٍ، قائلاً:  
- "لو يسمح لنا الأب المُبجل آريوس بالاحتفاظ ببعض هذه الترجمات  
النفيسة".

- "هذا يوحنا أركاف أكبر أعواني وخليفتي من بعدي".  
قالها ميليتوس مشيرًا إلى الرجل القائل.  
تبسم آريوس، وقال:  
- بكل حبٍ أهبها الأسقف المُبجل يوحنا، خذ ما شئت من مخطوطاتٍ، فأنا  
أحتفظ بنسخٍ أخرى في الكنيسة.

خرج آريوس ليحضر واجب الضيافة للأب ميليتوس وأعوانه، ثم دار حديثٌ  
طويلٌ عن أحوال الكنائس والأبرشيات، بعدها خرج الأب ميليتوس ورفقاؤه  
من عند آريوس من البوابة، ووضع ميليتوس يده على رأس آريوس ورسم  
الصليب عليه داعيًا له بالبركة، في حين كان أحد خُدام الأب بطرس خارجًا من  
بوابة الكنيسة، فرآهم على هذه الحالة، فاختمًا للتوّ خلف الجدران إلى أن رحل  
ميليتوس ورفاقه!

\*\*\*

قرآن عاجل

في اليوم التالي تسلل الأسقف أرشيلالوس إلى حيث يقطن آريوس، على وجهه علاماتٌ قلقٍ غير عادي، شعورٌ ينتابه بين فينةٍ وأخرى على غير عادته، دق على باب آريوس دقاتٍ بطيئة غامضة، تُشعر صاحبها بالخوف والقلق من ذاك الطارق، فتح آريوس الباب الخشبي برفقٍ محدثًا أزيزًا وسط السكون الطاغي في الليل المظلم، لعله لم يكن ثمة أصوات سوى نقيق الضفادع مع همسات الهواء الليلية. من بعيد له عند عتبة الباب كان الأب أرشيلالوس الذي بدا متوترًا. وإذ دنا منه لاحظ أنه كان ينظر في كل الاتجاهات، ويتمتم بكلماتٍ لا ربط بينها، ثم يعود ليتقصى الشارع بعينه الحمراءوين، ولما سأله آريوس عما حدث لم يجبه فورًا، وسمعه سمعًا مبهمًا:

- "فلتكن مشيئة الرب.. فلتكن مشيئة الرب".

ترك آريوس الأب أرشيلالوس في الرواق، ثم عاد حاملًا مشروب زهرة الزنجبيل المحلى بالعسل. كان أرشيلالوس جالسًا على أريكةٍ وثيرة بالقرب من النافذة، مرتديًا ثوب الكهنوت الذي تزيينه رسومٌ مطرزةٌ كبيرة، ودلائل الحزن مطبوعةٌ على جبينه، وعلى وجهه الشاحب كزهرةٍ ذابلةٍ.

كان أرشيلالوس بهيئته تلك ساكنًا، جالسًا على الأريكة، تعجب آريوس من سكوته قائلاً له:

- ما الخطب أيها الأب المبارك؟

نظر أرشيلالوس إلى آريوس نظرة المشفق، وامتلأ بالإرباك جلوسه هكذا في مواجهة آريوس دون أن ينطق بكلمةٍ، بيد أنه لم يتمكن من إعطائه جوابًا فورًا، ثم صارحه بشكلٍ صادم:

- قد عزلك الأب بطرس من الكنيسة!

حينما سمع آريوس كلام أرشيلالوس أخذته رعشة خفية شاعت في كل بدنه، فكأنها صارت تسري في عروقه برملٍ حارٍ بدلًا من الدم. أدرك في لحظة إشراقٍ مفاجئٍ أن الصدام آتٍ لا محالة.

لكن صدّمته إجابة الأب أرشيلالوس بعدها:

- "انس الأمر حفاظًا على مستقبلك".

وأضاف في صوتٍ خفيضٍ:

- "تأكد أنني سوف أعيدك، فقط احترس ممن حولك".  
تعجب آريوس من قوله: "احترس ممن حولك"! فقال متعجبًا:

- وهل هناك حولي من يريد بيّ السوء يا أبتِ؟!  
قال أرشيلوس في كلماته المفاجئة:

- أنت تفهم، ولست بحاجةٍ إلى أن أقول إنه لم يسبق لأي شابٍ آخر، لا يحمل أي خبرةٍ مهنيةٍ سابقةٍ، أن أصبح معلمًا كما حصل لك، ولم يجتمع الناس حوله ويحبوه بهذه السرعة، كل هذا بفضل قدراتك، وذكائك غير المعهود، هذا يا بُنيّ لن يروق للكثيرين ها هنا، فلعل أحدهم حينما رأى الأب ميليتوس يزورك؛ اهتبل الفرصة وذهب إلى الأب بطرس في سجنه، وأبلغه بما رأى! تلك طبيعة النفس البشرية.

جلس آريوس يُحدِّق إلى الأب أرشيلوس مشدوهًُا، وفي غاية الإرباك، وقال بصوتٍ متهدجٍ وقد خارت قواه:

- إنني، إنني أتصرف بطبيعتي ولا أقصد.

ابتدره أرشيلوس، وقال:

- لا تشرح يا آريوس، أنا أعلم أنك لا تقصد، وهو أمرٌ عاديٌّ قد يحدث لنا جميعًا.

لما أحس أرشيلوس بخيبة الأمل التي على وجه آريوس، حاول مداعبته ليفك قائلاً:

- يا رجل لا تحزن، فمن حسن الحظ أنك لست تلميذي وإلا سأكون في غاية الإحراج وأنا أستفيد منك وأحضر دروسك!

ارتسمت على وجه آريوس ابتسامة خفيفة، وقال:

- هذا من تواضعك يا سيدي!

خرج أرشيلوس وهو يقول له:

- استقرّ في هذا العش الدافئ الآن، وسوف تعود إلى مكانك بعدما تهدأ الأوضاع.

مرت على آريوس أيامٌ مثقلةٌ بالهموم، وضاقت عليه الدنيا ولزم بيته لا يخرج منه ولا يرغب في رؤية أحد.

\*\*\*

في الظلام الدامس والنجوم تتلألأ في السماء كانت امرأة رثة الثياب أمام قصر قسطنطين في انتظار فرصة لتدخل. وجدت الأبواب الحديدية قد أسدلت، وأغلقت الأبواب بالمزاليح، وعليه اتجهت إلى الباب الجانبي. ضحك الحارسان اللذان يحرسان الباب هازئين عندما طلبت منهما السماح لها بالدخول، وقال لها أحدهما:

- "ارحلي أيتها المرأة العجوز! فُضالة المطبخ قد نَفِدَت، ونحن لا نسمح بدخول المتسولين بعد حلول الظلام".  
قالت:

- "لستُ متسولةً، إنني أسكن ها هنا".

ضحك الرجلان، ثم سدّد الأكبر سنًّا قبضته إليها كأنه يُعاقب كلبًا مشاغبًا، لكن المرأة رأت الضربة قادمةً فرجعت إلى الخلف خطوةً دون أن يمسهما أَدَى، ثم قالت كأنها تبصق في وجهيهما:

- "أنا هيلانة! زوجة قسطنطيوس كُرُّس، وأم الإمبراطور قسطنطين! وإذا مسَّ أحدكما شعرةً مني سيُعلق سيدكما رأسيكما على خازوقين!".  
خاف الجنديان من كلامها، فقائلة هذا الكلام إما أن تكون مجنونةً، وإما أن تكون صادقةً، وفي الحالة الثانية ستكون العاقبة هي الموت حتمًا، ففصلاً أن يتأكدا من الإمبراطور نفسه.

كان قسطنطين في غرفته جالسًا إلى منضدته ومصباح زيتٍ موضوعٌ عند مرفقه، يُرسل ضوءًا خفيًا عندما دخل بها الجندي، كان مائلًا على مجلِّدٍ ضخمٍ سميكٍ اصفرَّت صفحاته ذات الكتابة المعقدة. وقد أحاط به غلافان باهتان من الجلد. أغلق الكتاب للتوّ ولم يصدق عينيه أنه رأى أمه مرةً أخرى بعدما تركها وهو صغير، ما زال يتذكرها جيدًا. سرعان ما صرف الرجلين شاكرًا وقد اكتست ملامحه بالصرامة.

أما هي فقد كانت مبتسمةً، فسمع صوت ابنها أعادها عشرين عامًا إلى الوراء.

قالت:

- آه يا قسطنطين. ديارك في قلبي يا حبيبي. اخلع خوذتك، فأنا أرغب في

رؤية وجهك ثانية.

- أخشى أن الزمن لم يجعله أجمل! قالها قسطنطين مداعبًا.  
رأت عندما خلع الخوذة أن ما قاله ليس صحيحًا، فصحيح أن ملامحه زادت  
تقاسيمها، وسرق الزمن اللون المائل إلى الصفرة من شعره تاركًا الكستنائي  
فقط، لكن البسمة كما هي، والضحك في العينين الزرقاوين العميقتين.  
ثم قال:

- "هل تدركين يا أماه أني أرسلت الحرس الخاص ليبحثوا عنك، وسألت  
عنك جميع النبلاء، وكنت أصلي إلى الآلهة لترجعي، أحمد الرب أن ردّك إلينا  
سالمة".

- همتُ شاردةً يا ولدي، مُغلقة العينين، مُسترجعة ببطءٍ لذيذٍ صورتك في  
ثوب عرسك، وقد وضعوا الإكليل على رأسك، ابتهجتُ في رأسي، ابتهجتُ في  
سِرِّي، لما تذكرت لمعة عينيك.

استولت على روحه والدته، وملك عليه حضورها كيانه كله، كالريح العذبة  
التي تهب عبر الحقول، كنسمة دفءٍ، كنسمة حياةٍ ورقّةٍ وشجاعة:  
- آه يا أماه كيف أمكنتني أن أنساك؟

لقد كانت في وقتٍ سابقٍ راقصةً جميلةً في مواخير "الرّها"، وقد انتشلها  
والده -أو هكذا قال لابنه!- من حماة الفقر والعار، ولم يكن متأكدًا، لكنها  
أصبحت مسيحيةً مؤمنةً.

عادت أمه المنسية منذ زمنٍ بعيدٍ إلى الظهور من جديدٍ، جالبةً معها سعادةً  
غامرةً، ولكن إلى أين يغويه نداؤها المسيحي؟ إلى الانطلاق إلى عالم دينٍ  
مجهولٍ بالنسبة إليه، إلى الافتتان إلى الحاجة، أو ربما إلى الموت.  
كيف يصنع مع المسيحيين وهم كثيرٌ في المملكة المترامية، إن هذا الدين  
المجهول قد نال من أهل بيته: أمه هيلانة وأخته من أبيه! كيف يصنع إذًا،  
تساؤلات دارت في عقل قسطنطين.

صلوات أمه هيلانة أيقظ كل ما لديه من تقوى، رآها وقد أخذت بتكرار  
صلوات عجيبة لرب السماء، انفعالاً راقٍ ونبيلٌ، كل هذه الصلوات كانت تنتهي  
برؤية أحلامٍ مستحوذةٍ غريبةٍ ملؤها الفرح والانتصار على الأعداء، هل ينتصر  
ببركة أمه هيلانة! تلك القديسة النقية! أم بحنكته الحربية؟ أحلام يقظةٍ تتحقق

أمام عينيه بانتصاراتٍ ماديةٍ ملموسةٍ، فكيف يؤثر الدعاء غير الملموس في الواقع المحسوس؟ لعل العقل اللاواعي وما يحمله من الوثوق بتلك الصلوات له مفعول السحر!

كيف يؤثر دعاء أمي في الواقع! يقولون إن الأشياء اللطيفة غير الملموسة قد تؤثر تأثيرًا ماديًا، فالحسد مثلًا هو أمرٌ غير ملموس؛ لكننا نجده أحيانًا يؤثر بشكلٍ أو بآخر، لعل ثمة موجاتٍ نفساوية تخرج من عين الإنسان الحاسد تؤثر بشكلٍ أو بآخر، كذلك دعاء أمي هيلانة ومشاعرها لعله يؤثر فيّ وفي حياتي! إن النفس البشرية غريبةٌ ومعقدةٌ، وما زال الإنسان يستكشفها.

كان قسطنطين يحاول أن يفسّر كل شيءٍ تفسيرًا ماديًا بعيدًا عن الإيمان بخالقٍ واحدٍ يستطيع أن يفعل الأعاجيب!

كان قسطنطين يحيا في عالم الحلم حياةً أكثر واقعيةً من الواقع، قائلاً لنفسه:

- إن الحلم هو شيءٌ جميلٌ لا يجب أن نقول عنه ترهات أو خزين أفكار العقول كما يجزم الملاحدة والفلاسفة، وكذلك حياة الكنيسة هي حياة جميلة يجب أن نحترمها، رنين كلمةٍ يونانيةٍ وسط سياق الدرس الكنسي، نفحة عطرٍ تبعث من ذاك القسيس فتُشعرك بقداسته الغامضة، أو نظرةٌ إلى كتلة الأوراق الخضراء المتشابكة حول الأديرة، مثل هذه الأشياء يمكن أن تُبدد الوهم المسمى الواقع الذي نعيشه؛ لكنها قد تغير نظرتنا إلى ذلك الواقع.

يمكن أن تفتح نغمة ممدودة تُرتّلها أمي هيلانة في ترتيل السلام المريميّ الفريد بوابة الفردوس، ومن يدري؟ لعلّ المسيحيين على صواب، هل جاءنا أحدٌ من العالم الآخر ليخبرنا بحقيقة ذلك العالم الغامض؟ هكذا كان يُحدّث قسطنطين نفسه!

قرأت هيلانة إنجيل القديس يوحنا هذا المساء، في حين كانت كونستانيا تجلس بجوارها، كانتا دائماً تتجالسان وتتدارسان الكتاب المقدس مع القديس يوستانيوس، وكان الليل والصمت يضيفان السحر على هذه السهرة بما يضيفي على قسطنطين النشوة والفرح بوجودهما.

أما كونستانيا فنهضت من مكانها، وجعلت تداعب الأطفال -أولاده من فوستا- وتلاعبهم، صاح أحدهم:

- أريد أن أقبلك يا عمّاه.

وهتف الآخر:

- بل أنا الأول!

وصاحت هي والسعادة ترتسم على مٌحيائها:

- قبّلوني كلكم، في آنٍ واحدٍ".

واندفعت نحوهم فعانقتهم، وحملتهم وجعلت تدور بهم في مَرِحٍ وحبورٍ وسط الغرفة، وقد علت ضوضاؤهم، وارتفعت أصواتهم، وملاً المكان صخبهم، في حين يقف قسطنطين مائلاً ومستنداً بكوعه إلى الباب مبتسماً مما يحدث. هذه الأيام كانت من أسعد الأيام التي مرت على قسطنطين، فقد وجد أمه التي كان يبحث عنها، وعادت إليه أخته كونستانيا.

وتمت سعادته حينما عاد إليه صديقه القديم الفيلسوف لاكتانتوس الذي لما علم بأخباره أتاه -هو الآخر- مسافراً من شمال إفريقيا، ولم يكن ليصدق أنه سيلتقيه مرةً أخرى، آه يا صحبة نيقوميديا! هل يُمكن للأصحاب الالتقاء مرةً أخرى! تذكره بكل تفاصيل وجهه التي تبدلت قليلاً؛ لكن ما فاجأه أن تعابير وجهه قالت بوضوح إنه يتذكره هو الآخر على رغم أن ملامح قسطنطين الشكلية والجسدية قد تغيرت قليلاً عما كانت عليه منذ خمسة عشر عامًا، فأقبل عليه وتعانقا من جديد.

في تلك الأيام الربيعية أحس قسطنطين أن روحه قد عادت إليه بعد غيابٍ طويلٍ، فما أجمل أن تجد دفء العائلة، وما أروع أن تجد تلك الصحبة القديمة لتتذكرا معًا الأيام الخوالي.. حقًا إنه إكسير الحياة الذي أعاد إلى قسطنطين شبقه وسعادته من جديد، لكن هل يمكن أن تستمر الحياة وردية!

\*\*\*

كان ممن عبس القدر في وجوههم كذلك ماكسيمانوس والد مكسنطيوس وفوستا، فهذا الشيخ الفاني قد عادت له شهوة الحكم مرةً أخرى بعدما رأى انتصارات ابنه فذهب إلى ابنه مكسنطيوس وعرض عليه أن يشاركه الحكم، ولكن لم يكن من الابن إلا أن رفض، فغادر العجوز وهو يجر أذيال الخيبة، ولم يجد من يلجأ إليه إلا صهره قسطنطين، فعاد إلى بلاد "غالة" حيث يمكث قسطنطين ولا تزال شهوة الحكم تتأجج بداخله، وهناك لعبت الشياطين برأس الرجل وقرر أن يتخلص من قسطنطين ليحل محله، وبعد طول تفكير قرر أن يستعين بابنته فوستا في خطته لقتل قسطنطين.

لم يكن العجوز يعلم أن الأيام قد غيّرت ابنته، فقد صارت فوستا تهيم حباً بقسطنطين أكثر من أي شيء في دنياها، ولم تنسَ أن والدها كان ليزوجها لأي شخص حتى إن كان وغداً من أجل مصلحته وحسب.

دخل ماكسيمان وهو يؤجج عاطفتها نحو الملك الذي كثيراً ما حلموا به، ويذكرها بمساعيمهم القديمة التي من أجلها زوّجها قسطنطين.

يبدو أنها في بادئ الأمر تزوجت قسطنطين كنوع صفقة رابحة، لكنها في الوقت ذاته، قد تغيّرت كثيراً، ولم يعد قسطنطين بالنسبة إليها مجرد صفقة سياسية، بل يبدو أن الأمر تطور لديها إلى ما هو فوق ذلك.

- فوستا فوستا.

- نعم يا أبي!

- استمعي إليّ جيداً يا ابنتي، الآن قد سنحت الفرصة للانفراد

بالإمبراطورية!

تلكاً ماكسيمان في الكلام قليلاً، وارتسمت على شفثيه ابتسامة الثعالب، وعيناه تمثلتان مكرّاً، ثم قال:

- "إذا قتلنا قسطنطين وقتئذٍ لن يتبقى إلا ليسينيوس!".

قد اتفقت مع أحد الجنود أن يلبس ملابس الخصيان (الخدم)، وكل ما عليك فعله أن تمرري هذا الخادم ليدخل من البوابة كخادمٍ جديدٍ، والبقية اتركها لي، فقد جهزتُ كل شيء! قال هذا وعيناه تبرقان وكلتا يديه تفرك أختها!

استمعت فوستا إلى كلام والدها وهي هائمة بأفكارها تضطرب عينها يميناً

ويسارًا بشكلٍ قَلِقٍ، تتنازعها الحيرة بين جنباتها، فهي بين خيارين أحلاهما مُرٌ، بين طاعة والدها الذي يُدبّر لقتل زوجها، أو أن تخبر زوجها، وهو الأمر الذي قد يُفضي إلى مقتل والدها.

وكانت الغلبة لعاطفة الحب هذه المرة، وخبّبت رجاء أبيها بسذاجتها من حيث لا تشعر، فما كان منها إلا أن أخبرت قسطنطين بكل شيءٍ، وهي تُمّني نفسها أن قسطنطين لا يمكن أن يقتل والد حبيبته!

لكن الأيام قد غيّرت من قسطنطين، فجعلته شديد الحزم شديد القسوة مع أعدائه؛ فتظاهر أمامها بأنه لن يمس أباه بشيءٍ تكرهه، وانتظر اليوم الموعود، وجعل أحد الخصيان ينام في فراشه هذه الليلة. تم كل شيء في ميعاده، وفتحت فوستا الباب، وأتى الخادم الذي دسّه ماكسيمان في قصر قسطنطين.

ولما حانت اللحظة الحاسمة، ودخل الغرفة بخنجره المسموم! وجد الأنوار قد أضيئت -فجأة- ليجد نفسه محاطًا بالجنود.

أرسل قسطنطين على الفور للقبض على الشيخ الطاعن ماكسيمانوس، وما أن تم ذلك حتى قام بالقبض عليه.

اتسعت عينا ماكسيمانوس، ورمق الخَصِيَّ الذين أحضروه بنظرة ممتلئة بالريبة، في حين قال ماكسيمان معترضًا:

- أين ميثاق الشرف الذي بيننا؟

لم يحتمل قسطنطين سماع المزيد، وقال محتدًا:

- أترسل قتلةً مأجورين، وما زلت تتكلم عن الشرف!

دفع مقعده ونهض مضيقًا:

- سوف أكون منصفًا معك، ولن أقتلك يا ماكسيمان.

ارتسمت ابتسامَةٌ سريعةٌ على وجهه، لكن سرعان ما اختفت حينما قال قسطنطين:

- "افعلها بنفسك إِدًّا، ولتقتل نفسك بنفسك".

اندفع ماكسيمان عند قدميه ليتوسل إليه:

- بحق الآلهة!

هكذا زعق ماكسيمان والكلمة تنفجر من فمه إذ لم يعد قادرًا على

السكوت.

مدّ قسطنطين يده إلى إبريق النبيذ الموضوع، ولما وجده خاليًا قذف به ليتهشم على الجدار إلى ألف قطعة، قائلاً:  
- "لقد نفذ النبيذ ونفد صبري معه.. انتهينا!".

تم الأمر كما قد رُتب، وشنق ماكسيمان نفسه، وانتهت بذلك طموحات الرجل العجوز!

انتهى قسطنطين من الخائن العجوز، وبقي له ابنه مكسنتيوس الذي لما سمع بإعدام أبيه، هاجم جيوش قسطنطين، معلناً نفسه إمبراطورًا غربيًا.  
\*\*\*

معركة جسر ميلفيو "القنطرة الملفية"

بدأت المواجهة بين قسطنطين ومكسنتيوس ابن الشيخ الخائن، وجيش كل منهما الجيوش؛ للمواجهة الحاسمة، تلك المواجهة التي سوف تقرر من فيهما سيصبح إمبراطور الغرب!

وفي اليوم التالي كان قسطنطين وجيشه الجرار في طرف الوادي الغربي، حيث كان الطريق العالي يبلغ أقصى ارتفاع له، ثم يبدأ الانحدار الملتفّ إلى الأراضي السّفحية على بُعد ميلين في الأسفل، كان الوادي ضيقًا لا تتجاوز الرحلة عبره نصف يوم، وبدت الجبال الشمالية دانية للغاية، فرأى قسطنطين أن يرتاح قليلًا، وأمر بنصب الخيام العسكرية.

برقت عيناه ببريق غريب وهو يسترسل:

- إذا هُزمتنا هذه المرة فلسوف ينتهي أمر قسطنطين وأبيه قسطنطيوس إلى الأبد!

قال عبارته الأخيرة ثم أشاح بوجهه بعيدًا، وهو يتطلع إلى السماء وكأنما يطلب معونة الرب في هذه المحن، فلمح القمر في آخر النهار بدراً يتوسطها في ثقة، ويرسل خيوطه الفضية؛ لتضيء وجهه المكفهر، لم تمض لحظات حتى عبرت سحابة غريبة المنظر! وارتسمت على شكل "البرومة" X يتوسطها حرف الـ p اللاتيني<sup>(14)</sup>.

ظل قسطنطين مشدوّهًا وهو يتأمل تلك السحابة الغريبة، واستولت عليه الدهشة لما وقعت أنظاره على هذا المشهد الخارق، ثم ما لبث أن قرأ تحتها

عبارة:

- "بهذا سوف تنتصر"!!-

وحدثته نفسه: هل يمكن أني أتخيل؟! كنتُ أُكذِّب تلك القصص والأساطير وأجزم بأنها من وحي خيال الكهنة، أو الرحالة الحالمين في ضواحي نهر الدانوب، والقراصنة من قبائل البيكتس ممن يزعمون وجود حورية البحر! إن الإنسان الحالم يفسر كل ظواهر الطبيعة وفق تصوراته الحالمة.. ظل قسطنطين مشدوهًُا من منظر السحابة العجيبة، وتدافعت إليه الأفكار اللعينة. سرعان ما ارتدت السماء ثوبها الفضي الداكن كعادتها وقت غروب الشمس، الليلة قمرية، والضوء الفضي المتسرب من السماء ينير موطن قدمي قسطنطين.

ذهب إلى خيمته ليخلد إلى النوم قليلًا، تاركًا جيشه، وكان منهكًا فارتمى في فراشه، واستغرق في نومه، رأى أحلامًا كثيرة في نومه تلك، وأعظم من رآه هو السيد المسيح عليه شعاع من النور. كان السيد المسيح يقترب منه شيئًا فشيئًا، حتى غمره من هذا النور، ورأى نفسه يمسك سيقًا طويلًا والجيوش من تحته يخضعون له، وحينها شعر بالرهبة من هول ما رآه، إلا أنه شعر براحة وسكينة لا مثيل لها، وعلم قسطنطين أنها رسالة من العالم العلوي.

استيقظ قسطنطين وضوء النجوم فوق وجهه في الخيمة، وكانت تصله أصوات ريفية من القرى المجاورة، وتنعش صدغه روائح الليل وغربته، سكينة هذا الصيف الرائع تتسلل إلى دواخله، وفي هذه اللحظة، والليل يوشك أن ينقضي، دوت أبواق الرحيل إلى المعركة الموعودة، كانت الأبواق تعلن الرحيل إلى عالم جديد.. عالم ما عاد يشكل عنده فرقًا، فبعد الذي رآه قد أيقن بالنصر.

وعلى غير عادته خرج مُبتسمًا خارج الخيمة ونسيم الليل يداعب فروة رأسه الناعمة، العربات تُحمَّل، والرجال يزعمون، والخيول تُجهَّز، وتُشدُّ عليها السروج، وتُقاد إلى جسر ميلفيو، والجميع يتحركون بهرج ومرج مع تلهفهم للمغادرة.

التفت إلى كبار القادة وزعق:

- انتظروا.. انتظروا.. أضيئوا المشاعل واجلسوا حولي يا رفاق!

أمسك بعضا طويلة، وراح يرسم علامة اللبرومة على الرمال، وسرعان ما اندمج ودخل في نشوة، وقادة الجيوش لا يفهمون شيئاً. أمر جميع الجيش برسم هذا الرمز اللبرومي على دروع الجنود؛ لأنه أحس أن هذه علامة انتصاره.

تحرك قسطنطين بفرسانه وعساكره، متفقدًا حامياته العسكرية التي تمركزت بثلاث نقاط على نهر "التبير" اختارها بعناية، فلم يعد هناك معبر على النهر إلا جسر ميلفان "ميلفيو" بشمال روما. اتسعت ابتسامة قائد الجند فخرًا، ثم اكتسى وجهه بالجدية معلنًا: - الفرسان جاهزون يا سيدي كما أمرت.

عبس قسطنطين وفرك كلتا يديه في ضمت، مراقبًا حركات جيش العدو. عبر جيش مكسنطيوس جسر ميلفيو فوق صفحة النهر المتلألئ بأشعة الشمس، حينها ارتسمت عبسة مشوبة بحزمٍ من قسطنطين؛ استعدادًا للإشارة إلى رئيس الرماة.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى راح أكثر من ثلاثمائة رامٍ يشدون أقواسهم بمحاذاة آذانهم؛ ليمطروا قوات مكسنطيوس بوابلٍ من السهام خلخت الصفوف بعد أن سقطت أولها فتعثرت بقيتها، تعالت صرخات الألم من أفواه الجنود، وجزعت الخيول وقد برقت أعينها رافعة سيقانها الأمامية وهي تصلح عاليًا محاولة الحفاظ على توازنها.

كان قسطنطين في قلب كل هذا، يصيح بالأوامر في القواد، وفي حرارة هذا النزاع المسعور، يأمر جنوده برفع راية اللبرومة؛ فهو يرى أنه أينما حلت راية اللبرومة، سوف تمتلئ قلوب جنوده بشجاعة لا تُقهر.

ولم تمضِ بضعة ثوانٍ حتى كان رماة جيش مكسنطيوس يُنزلون دروعهم من فوق رؤوسهم، والتي كانت تقيهم من كرات اللهب التي يقذفها جيش قسطنطين، أما من نجا منهم فقد وقع في الأسر كذباة حامت حول خيوط عنكبوت في مكر، فلما حطت عليها بثقة سقطت في برائته ببسر وسهولة، وهو يتأمل بلاهتها في دهاء!

سرعان ما هاجموا راية مكسنطيوس، وقضوا على حامل الراية، فسقطت الراية، في حين علت رايات اللبرومة المتجمعة، ودوت صرخة النصر عاليًا من

بين كل صفوفهم، حينها شعر قسطنطين أنه بهذه الراية سيكون إمبراطورًا على العالم الروماني دون منافس.

تراجع أكثر جيش مكسنتيوس القهقري، عابراً الجسر مرة أخرى، حاول مكسنتيوس أن يخرج بنفسه وسط جموع الهاربين التي أثقلت الجسر، فوقع الجسر بالجنود ومعهم مكسنتيوس الذي غرق في النهر أخيراً!

خرج قسطنطين من معركة الجسر، ثم اعتلى صهوة جواده مُتجهاً إلى روما متبختراً، وصدرة منتفخ بزهو الانتصار، ضربت الأبواق ثلاث مرات، خرج سرب من الفرسان يسابقون الريح والغبار يغلفهم؛ جرّاء ركض خيولهم متجهين نحو القصر الروماني بروما، يتبعهم الجيش وعلى رأسه قسطنطين كالطود الشامخ، تعمد الإبطاء في سيره وسط فرسانه عند وصوله؛ ليتلقّى تحية العامة والدهماء الذين تجمعوا على مقربة، هاتفين وملوحين له.

\*\*\*

تباشير الزواج المرتقب!

بزغ في الآفاق فجر يومٍ جديد، وما فتئ قسطنطين يفرح بانتصاره في الغرب، حتى جاءت الأخبار السارة بانتصار صديقه ليسينيوس على مكسيمين دايا في الشرق.. وهكذا أصبح يحكم الإمبراطورية رجلان: قسطنطين، وليسينيوس.

مرّت الأيام هادئة مطمئنة بين الإمبراطورين الجديدين، تكتنفها برقيات التهئة وهدايا الانتصار المُتبادلة، ورأى ليسينيوس أن الفرصة قد سنحت له أن يطلب الأميرة "كونستانيا" للزواج، وهو الأمر الذي استقبله قسطنطين بالترحاب، حينئذ اتفق الرجلان على أن يجتمعا في ميلانو؛ ليُتمّ مراسم الزواج، وليعلنا -أخيرًا- سياسة التسامح مع المسيحيين، ورفض سياسة الاضطهاد والتعسف، في مرسومٍ رسمي يتضمن حرية العبادة.

انقلب القصر رأسًا على عقب، أما وصيفات القصر فقد أسرعن إلى جناح الأميرة يُبشرنها، وكان الخبر أشبه بطعنها في صميم قلبها! كانت شاردة في الأوهام والأمانى التي تتمناها، كانت تتمنى أن تتزوج نبيلاً قد تعمّد بالمسيحية للتو، لكن يا تُرى أين تجد ذلك النبيل؟!!

وأيقظها شرودها صوتُ الخادمة تهمس في أذنها:

- "هنيئًا لك يا سيدتي.. هنيئًا لك.. سنفتقدك كثيرًا".

أما على مائدة الإفطار في البهو السفلي للقصر، ومن خلف الزجاج تُرى الأشجار، وتُسمع زقزقة عصافير الصباح، جلس قسطنطين ينتظر ردة فعل أخته دون أن يُفاتها بأمر الزواج، فالقصر كله قد عرف بالزواج الموعود، ولا بد أنها قد علمت، لكن كونستانيا لم تُبدِ أي اهتمامٍ بالأمر.

في تلك اللحظات كسرت فوستا السكون الجاثم على المائدة، وهمست بفخر لقسطنطين وهي تداعب كونستانيا:

- "ليسينيوس معجب بأختك!!".

ثم قالت بلهجةٍ حاملة وهي تحتضن نفسها:

- "سوف يتزوجها، وتصبح كونستانيا ملكة بلاد الشرق كلها".

كانت كونستانيا تملك ما يكفي من حياء لأن يتضجّ وجهها، وقد بدت جميلةً حقًا وهي خجول.

قال قسطنطين:

- "ما رأيك بليسينيوس يا أختاه؟ فلقد أصبح إمبراطورًا للشرق، إنه رجل نبيل جدًّا، أليس كذلك؟".

قالت كونستانيا بنبرة مترددة:

- إنني مسيحية وأنت تعلم ذلك.

قال قسطنطين مُتبسّمًا:

- أختي الحبيبة.. وما الضير في أن تكوني مسيحية؟ إن الدين صلة بين الإنسان وبين ربه، فلتعتنقي ما تشائين من الأديان، لا أحد سوف يجبرك على التخلي عن دينك!

ثم أضاف في تَوَدّة:

- كونستانيا.. أرجوك، لا تكوني حجر عثرة في سبيل تحقيق أهداف إمبراطوريتنا العظمى.

حدقت فوستا فيها بعذوبة، وقالت:

- إن كونستانيا تملك كل شيء، فهي تجيد التطريز، والغناء، والرقص، وتكتب الشعر، وتجيد انتقاء الثياب المناسبة لكل مناسبة، كما تستطيع العزف على القيثارة الباسقة والأجراس كذلك، وفوق كل هذا هي جميلة حقًّا.

نهضت كونستانيا، وهي تعض شفيتها، وانحنت انحناءة متصلبة لقسطنطين،

وقالت:

- "أستاذنك بالانصراف سيدي".

صرخت فوستا بصرامة:

- "إلى أين تحسبين نفسك ذاهبة يا كونستانيا؟ أتحسبين أن أخاك سيزوجك أحد هؤلاء الرعاع المسيحيين الذين يعطف عليهم!! أنت أميرة! يجب عليك أن تفهمي ذلك جيدًا".

\*\*\*

أشرق على ميلانو صباح استثنائي، فالיום سيتوارث الأجيال ذكراه جيلاً بعد جيل، تزينت الشوارع كعروس في يوم زفافها، وتوالت الوفود من شتى أنحاء العالم، وانتظر القساوسة بشغف وصول الأساقفة العظام، واصطف الجنود في مشهد مهيب، والناس على جنبات الطريق يتصايحون في فرح وحبور، وفجأة دقت الطبول؛ معلنة وصول الأبطال المنتصرين؛ ليسينيوس أغسطس الشرق، وقسطنطين أغسطس الغرب، في موكب جليل، فارتفعت هتافات العامة بالنصر والفخر بمجد الأباطرة.

وقف قسطنطين أمام المعبد العام في ميلانو، ممتطياً جواده الأصهب، كان الجنود ثلاثة صفوف من خلفه كأنهم بنيانٌ مرصوص، المعبد من الخارج دائريُّ تعلوه قبة مكسيبة بالرخام، يتألف رواق الواجهة من عشرات الأعمدة التي يعلوها شكل مثلثي في منظر رومي بديع.

لحظات قليلة وأتى ليسينيوس وخلفه جنوده، حتى وقف أمام قسطنطين، وانتصب الجواد أمام الجواد في زهو وفخر، نزل الإمبراطوران من أعلى جواديهما، وقد التقيا أخيراً بعد طول فراق، فوق منصة ميلانو تأبط قسطنطين صديقه القديم وهما يسيران نحو المنصة، وتذكرا معاً مغامراتهما القديمة في أحراش أوروبا، وكل منهما يناجي الآخر ويهمس في أذنه، ثم تعلو ضحكاتهما.. وقد امتزج جنوده بجنود ليسينيوس يسلم بعضهم على بعض، وكان السلام بالذراع يقبض كف أحدهم على كوع الآخر كما هو التقليد السائد بين الجنود.

واجتمع الفلاسفة، والرواقيون، والوثنيون، والمسيحيون، وعاد آباء الكنيسة المعترفون من المنفى. جماهير الشعب مجتمعون في شكل متناغم، يستمعون إلى المرسوم، وقسطنطين يؤكد على منح المسيحيين الحق في التعبد، وإرجاع ممتلكات الكنيسة المصادرة، وبهذا المرسوم أصبحت الإمبراطورية رسمياً محايدة فيما يتعلق بالعبادة الدينية.

\*\*\*

راحت خيوط الشمس تنحسر ببطءٍ عن جناح الأميرات، معلنة استسلامها لبوادر ضوء القمر في ليلة يتوسطه فيها السماء بدراً مكتملاً، راح الطابق الثاني في الجناح يموج بالحركة منذ الصباح؛ استعداداً لمراسم الزواج، وقد

أصبح ذلك حديث ميلانو الكبير، فالعروس ليست كأي فتاة.. اليوم ستتزوج كونستانيا أخت الإمبراطور قسطنطين من أبيه.

وكانت كونستانيا تبدو بأبهى صورها، كانت قد مشطت شعرها الكستنائي الطويل إلى أن صار يلمع، وارتدت أفضل فستان حريري أزرق لديها.. كان ليسينيوس على وشك الوصول.. مجرد التفكير أنها ستترك بيتها وتمضي مع شخص لا تعرفه، كانت نبضات قلبها تتصارع بشكل غريب..

كانت حزينة لأنها شابة مسيحية، ولا تريد أن تتزوج من الوثنيين، وأخوها لا يكثر أن يزوجها بوثني، وكيف يكثر وهو وثني مثله؟! لكنها في النهاية وافقت؛ إرضاءً لأخيها الذي تحبه من أعماق قلبها.

مرّ اليوم جميلًا، وبسطت الفرحة رداءها على الجميع، وعلى الرغم من جلوسها وسط هذا الحشد الهائل من البشر، شعرت كونستانيا بوحدةٍ لم تختبر مثلها قط، كان أخوها قد قال لها أن تبتسم، فابتسمت حتى أوجعها وجهها وتجمعت الدموع رغماً عنها في عينيها، وبذلت كونستانيا قصارى جهدها كي تخفيها، جلست بثوب زفافها الحريري ترشف ببطءٍ من كأس نبيذٍ مُحلى بالعسل.

لحظات وتقدم أربعة عبيد ضخام الجثة إلى الأمام، حاملين صندوقًا ضخماً من خشب الأرز مزينًا بالبرونز، كل رجل من طرف، فتحته كونستانيا، فوجدت أكوامًا من الذهب وأفخم أنواع المخمل، والإستبرق.

ارتاحت قسمات ليسينيوس وهدأ خفقان قلبه، واصطحب كونستانيا واتجها معًا إلى العربة الملكية المُجهزة بالخيول، وبدأت الجحافل الملكية بالانصراف، في رحلةٍ طويلة شاقّة إلى نيقوميديا، ظلت العربة تقعقع وهي ترتفع وتنخفض بهما، إلى أن وصلا إلى الميناء الشرقي الذي سيبحران منه معًا إلى نيقوميديا.

لم تكن بتلك الرحلة المريحة، فقد كان فزع كونستانيا يزداد كلما عبرا أحد الأنهار أو البحار، لحظتها كانت تشعر بأن قلبها معلق بالفراغ، وهي تكتم في نفسها أحزانها.

\*\*\*

وسط انشغال الجميع كان بانتظار قسطنطين ضيف من نوع خاص.. ضيف لم يلاحظه أغلب من بالحفل، جاء من نيقوميديا مع المحفل الإمبراطوري، ولم يكن أحد يعلم أن أقدار من بالقصر سترتبط به يومًا ما، كان هذا الضيف المميز هو صبي نحيل بهي الطلة، شديد الخجل حتى احمرار الخدين، يرتدي ثيابًا عادية ليست كثياب الأمراء، ولكنها أفضل قليلًا من ثياب العامة، قاده الحراس من فوره إلى الإسطنبول، القريب من الميدان، وكان المكان وقت الغسق الرخي يفوح برائحة الجياد الحادة، وبرائحة الشوفان وروث الأحصنة، سأل هذا الفتى عن حصان قسطنطين فدلوه عليه، فعانق صدر عنقه بذراعيه بحرارة، وكأنه شغوفٌ بأن يرى صاحب ذلك الحصان!

لم يستطع الشاب الصغير الانتظار طويلًا، فانطلق الفتى صاحب الزي الروميّ الفريد، إلى أحد الحراس وهمس بكلمات في أذنه!

قصة هذا الشاب تعود لسنواتٍ خلت! حيث كانت منرفينا حبلى في نيقوميديا وحالت الأقدار والحروب بينه وبين أن يعرف أخبارها، وكانت قد وصلتته الأخبار بوفاتها فحزن لذلك، ثم وصلتته أخبار أن له ابنا يدعى "كريسبوس" وهو حي يُرزق، فأرسل قسطنطين في طلبه حتى ساقته الأقدار إليه، وبألها من أقدار.

حينما سمع الحارس كلام هذا الفتى جحظت عيناه، وانطلق ليخبر قائده الذي ذهب من فوره إلى قسطنطين، وما إن أخبره حتى تهلل وجه قسطنطين وصاح:

**- ابني كريسبوس.. ابني كريسبوس أدخلوه للتوّ.**

استقبله بحرارةٍ وشوق، ووضع يده على خدي ابنه، وظل يتأمل في وجهه المستدير مبتسمًا، وهو لا يصدق أن له ابناً في ريعان الشباب، تذكر منرفينا في تفاصيل وجه ابنه الجميل، وتذكر حياته القديمة في نيقوميديا.. لحظات وتجمّع سادات الأمراء والوزراء يسلمون على ذاك الشاب الواعد.. الذي أصبح أميرًا للتوّ!

كان قسطنطين في أوج فخره وهو يُوجه كلامه للاكتاتتيوس:

- إن كريسبوس ما زال صغيرًا، وسوف يصير رجلًا ذا شأن عمًا قريب، يجب

أن يتعلم شؤون الحكم، ولعلي لا أكون موجودًا لأعلمه، أشركه في مجالسك؛ حتى يتعلم منك الحكمة والفلسفة وحصافة الرأي.

سكت هنيهة ثم قال:

- يا لاكتانتيوس.. يجب أن يكون كريسيبوس مستعدًا عندما يحين وقته!

أجاب لاكتانتيوس وقد كسته ابتسامة مُشرقة:

- "بعد عمرٍ طويل سيدي بمشيئة الرب".

إن أخبار عودة كريسيبوس لم تكن بالأخبار السارة للجميع، ففي الجانب الآخر من القصر كانت إحدى الجوارى تُخبر فوستا بأمر كريسيبوس ولي العهد الجديد! لم يترق لفوستا ظهور وريث للإمبراطور من امرأةٍ أخرى، فما كان من فوستا إلا أن أطبقت بكلتي يديها على فمها، وأطلقت صرخة مكتومة، نظرت نظرة إلى أبنائها، وشرد عقلها في كريسيبوس الذي ظهر فجأة؛ ليسحب بساط العرش من تحت أقدام أبنائها، ولم يمض ليلها إلا وهي غارقة في الهموم.

كانت عودة كريسيبوس سببًا في رفع معنويات قسطنطين، وعلى الفور أسند تعليم كريسيبوس وتثقيفه لنديمه المُعلم لاكتانتيوس، الذي كان ذا معرفة باللغة والشعر والفلسفة، والذي كان يُعلم أولاده من فوستا -أيضًا- وكان كريسيبوس بمنزلة الأخ الكبير لهم، رأى المُعلم فيه ذكاءً حادًا وقريحة وقادة، فأحبه وزاد رغبة في تعليمه، والحقيقة أن هذا الغلام كان لفرط ذكائه ولطف خلقه لا يراه أحد إلا ويتعلق بمحبته، فإنه كان طويل القامة على صغر سنه، حاد العينين واسعهما، عريض الجبهة، رشيق الحركة، ساكن الجأش.

وعلى الجانب العسكري أوكل قسطنطين إلى أمهر قواده تدريبه، وتعليمه التكتيكات الحربية، ورغم أن الصبي كان خجولًا إلا أن ذلك لم يمنعه من المثابرة، وكان يحاول ويخطئ فلا يبأس، ويعيد المحاولة مرات ومرات بلا كلل ولا ملل، إن إصرار الفتى لم يكن غريبًا؛ فكريسيبوس كان يعلم في قرارة نفسه أنه في نظر الجميع هو ابن الجارية، وأن إخوته أعلى منه شأنًا، وكان ذلك واضحًا في نظراتهم المقيتة نحوه وإن لم يجهروا بذلك، فعلم الفتى من يومه الأول أنه لن ينال المكانة لنسبه، ولكن كفاءته هي أمله الوحيد للنجاة.

وكانت الأيام قد أكسبت الصبي كريسيبوس المهارة القتالية، والخبرات

التكتيكية، فقرر قسطنطين أن يصقل مهارات ولده في معارك حقيقية، فعينه قائداً على بعض الفرق العسكرية، وأرسله لمحاربة السارمانيين أحياناً، والقوط أحياناً، فكان الفتى يُبلي بلاءً حسناً، فانبهر به الجنود وزاد حبهم له. لكن الفتى الغرّ لم ينتبه إلى الأفاعي التي تحوم من حوله، فمن داخل القصر كان الغيظ والحنق قد تملَّك من فوستا، وهي ترى ابن الجارية يعلو شأنه يوماً بعد يوم.

\*\*\*

مع طلوع الشمس انطلق الشعب السكندري في الساحات والأزقة؛ فرحين بما تطاير لهم من أخبار ميلانو.. انطلقوا يملؤون الساحات والأزقة.. كانت المدينة مزدحمة فوق العادة، تعيش احتفالاً خاصاً وصاحباً، أصوات الدفوف والغناء تنبعث من خيامٍ كثيرة منصوبة في عرض الشارع، والساحات ممتلئة بالناس، كانت الوفود تجيء وتذهب؛ مرددة هتافات المجد ليسوع المسيح طيلة الطريق، من شارع الكانوبي الشرقي إلى ميدان الهييا-ستاديوم، مروراً بحي بوكاليس، كانت الخطى تصطدم ببعضها، وأربوس يسحب نفسه من الزحام إلى الأرصفة الجانبية، لم يكن يتوقع المسيحيون أن يأتي اليوم الذي يُرفع فيه الاضطهاد عنهم.

امتلاً المكان بنبضات الهتاف فرحاً، اهتزت الصفوف المتراسة، كانت عربات الجنود والأحصنة في كل مكان، شقَّ الصوت مظاهر الأبهة والغطرسة السائدة فوق الميدان، خرجوا كجيوش من النمل ارتفعت أصوات المئات من الحناجر، وكأنهم يغيظون الجنود الوثنيين، الذين كانوا يُنكلون بهم في السابق، الآن لا يستطيعون أن يفعلوا لهم شيئاً!

خرج آربوس على منصة الساحة وبدأ ينشد شيئاً من أشعار "ثاليا"، كان صوته يتردد في السماء، في سكينه وخشوع، وترتيل فائق الروعة، وطبقات صوته تتدرج بهدوء كتدُّج السلم الموسيقي، محدثةً إيقاعاً يدويًا كانت كصوت عزف سيمفونية رائعة، والجموع الهائلة من الناس تموج معه كأمواج البحر في منظرٍ مبهج وسار.

امتلات المدينة بالعداوى والحسناوات، ظهر الوثنيون والدهريون يتظاهرون بتهنئة المسيحيين، وإن كان يتملّكهم الغيظ والاضطراب مما يحدث. وفي وسط تلك الجموع الحاشدة ظهر رجل وقور، يترقب حركات الناس، ثم بدأ يتخطاهم بخطى مسرعةٍ يزج الأكتاف، وهو يحاول المرور من بين الصفوف المتراسة.

وبينما هو يتخطى الصفوف أمسك بذراعه بشدة مستوقفاً إياه الأب أرشيلوس، قائلاً بابتسامةٍ صفراء:

- أرجو ألا تفسد علينا فرحتنا سيد سقراطيس، لا سيما أنك تبدو عليك

علامات الغضب!

تلجلج سقراطيس متلعثمًا:

- أبدًا سماحة الأب أرشيلوس، ومن يغضب من الحرية والسماح لأي إنسانٍ بممارسة طقوسه التي يعتقدونها!

لكن -اسمح لي- ومن أجل تلك الحرية -أيضًا- أريد أن أقول كلمة لهذه الجموع الحاشدة، حتى يكون الناس في حريةٍ حقيقية وليست حرية مزيفة، أو مجرد حرية تفرضها عليهم معتقداتهم.

اضطرب الأب أرشيلوس وقد بدت عليه علامات الريبة مما قاله سقراطيس، أجابه سقراطيس على الفور:

- وهل ثمة تخوفات داهمت الأب أرشيلوس من ترك حرية الناس للاختيار؟! ألستم من كنتم تطالبون بالحرية؟! قال أرشيلوس:

- بلى، ولكن.. إن كان الأمر كذلك، فلتكن مناظرة جادة بيننا وبينك، فلتقل رأيك، ولنقل رأينا، ولنترك للناس حرية الاختيار، أظنني قد أنصفتك سيد سقراطيس.

دخل الأسقف أرسانيوس في الحوار بينهما، قائلاً:

- دعني أنا أناظره أبانا المُكْرَم.

وافق أرشيلوس على الفور، وللتواتجه الرجلان إلى المنصة الخشبية للبدء بهذه المناظرة المريبة!

بدأ بالتحدث السيد سقراطيس:

- أيها السادة تأتي قيمة الآلهة بقدر ما نصوغهم به من مادة، عندما يصنع البشر إلههم من خوفهم في مواجهة القوى الضاربة للطبيعة، يكون لديهم إله مُخيف، وعندما يصنعون إلههم من حيرتهم أمام غوامض العالم وغوامض الحياة، يكون لديهم إله بارع، عالم بكل شيء، وعندما يصنعونه نتيجة معرفتهم بالأشياء الطيبة التي يتمتعون بها، يكون لديهم إله كريم، لكن من الممكن أن يكون أيضًا إلهًا متقلب الأهواء، وعندما نستمد فكرتنا عن الإله من ينبوع أفضل ما فينا من صفات، فإن إلهنا يكون توكيدًا بأن أصل الأشياء لا بد وأن يكون مبدأ عاقلًا، محبًا، خلقيًا، هذا هو الإله الذي لا يطلب عبادة، ولا يعد

بجائزة، ولا يفرض عقابًا.

ثم قال بصوتٍ جهوري وارتفع صوته:

- الله هو فكرتي، أنا أخلق الله، وبخليقي الله أنا أصبح إلهيًا!  
وأصبحت لفظة "إلهيًا" تتردد في السماء... هنا اشتد البرق وأظلمت السماء  
واشتد المطر.

قال أرسانيوس:

- يا سيد سقراطيس، وماذا لو خلقت إلهًا طاغية، منتقمًا، قاسيًا؟  
تبسم الكاهن ثم قال:

- من ذاتي أخلق مثل هذا الفاسد! من آلهتهم تعرفونهم.  
بدأ الناس يتهامسون ويتمتمون بالدعوات، في حين كان "أرشيلوس"  
يرسم الصليب على وجهه داعيًا الرب.

حينها نظر آريوس إلى الأرض ووضع يده على ذقنه غارقًا في أفكاره، ثم بدأ  
يتحرك -وهو في هذه الحالة- بخطىً بطيئة نحو المنصة، كأنما يمشي على  
قشر بيض.. حينها عرف أرسانيوس أن عليه ترك ساحة النزال إلى آريوس.  
وقف آريوس على المنصة وبسط كفيه مشيرًا إلى الناس، قائلاً بهدوءٍ  
وسكينة:

- أيها السادة.. إن تخيل إليه لا يَعد بجائزة ولا ينذر بعقابٍ هو أمرٌ غير  
معقول، كما أن ترك كل إنسانٍ بارًّا كان أو فاجرًا يخلق هو إلهه المنبثق من  
كينونة نفسه، ولا يلتزم بقوانين تحكمه هو ضربٌ من العبث.

فليحدثنا حضرة الفيلسوف المُكرم سقراطيس، هل له أن يخالف قوانين  
الإمبراطورية العامة تحت ذريعة أنه إنسان حر.. عاقل.. رشيد، ومن حقه أن  
يفعل ذلك؟!!

قال سقراطيس:

- يا سيد آريوس قوانين الإمبراطورية المعظمة يقبلها أي إنسان، فهي  
بمنزلة الضوابط التي تضبط تصرفات البشر؛ حتى لا يحدث جور من أحدٍ على  
الآخر، مثلها يقبلها العقل الإنساني، وأي رجل سليم الطباع سيقبل هذه  
القوانين التي ترسي العدالة، فلا وجه للاستدلال بها.

أجابه آريوس مبتسمًا:

- الآن قد شارفنا على الانتهاء! السيد سقراطيس قال إن أي رجلٍ سليم الطباع سوف يقبل قوانين الإمبراطورية لأنها تُرسي قواعد العدالة، فهل يعني كلامك وجود من ليس سليم الطباع؟

سكت سقراطيس هنيهة، وقد فطن إلى ماذا يرمي آريوس، ثم شبَّكَ ذراعيه اليمنى باليسرى وأجاب:

- نعم يوجد فجرة وظالمون وآكلو أموال الناس ويجب معاقبتهم، أليس هذا قصدك؟! لكن ألا ترى أن ثمة فرقًا بين القوانين الدنيوية والأخروية.. فالإنسان -ككائنٍ عاقل- له أن ينظم حياته في الدنيا، أما الآخرة فموكَّلة إلى حرية الإنسان.

قال آريوس:

- ما وجه هذه التفرقة؟ وما دليلها العقلي؟ يا سيد سقراطيس أنت فيلسوف وقد درست علم المنطق، وتعلم المقدمات المنطقية جيدًا.. إذًا، حينما تقوم ببناء أي فكرة لا بد من أن تبنيها على مقدماتٍ، أليس كذلك؟

قال سقراطيس:

- بلى.

قال آريوس:

- جيد، والمقدمة المنطقية يجب -كما تعلم- أن تكون قطعية خالية من الاحتمالات والتناقضات، وفي حالتنا تلك فمقدمتك تفتقر إلى ذلك؛ لأنه لم يأتنا أحد من العالم الآخر ويخبرنا بحقيقة وجود عذاب أو نعيم، مقدمتك هي إذًا مجرد دعوى، أو رأي نابع من هوى، أو وُجِد أو عاطفة -سمِّه ما شئت- ومثل هذا يقبل الصواب والخطأ.

صفق الجميع بشدة لآريوس وظهرت ابتسامة مشرقة للأب أرشيلوس..

قال سقراطيس:

- هب أنني بنيت كلامي على مقدمةٍ ظنية وأن الحقيقة محتملة، فيلزم من هذا أن مقدمتك هي الأخرى ظنية؛ إذ لم يأتنا أحد من العالم الآخر ويخبرنا بوجود نعيم أو عذاب! فهل يروقك سيد آريوس أن تبني حياتك كلها على مجرد ظن وتعيش في خوف وقلق طوال عمرك من قوانين يدَّعي رجال الدين أنها جاءت من العالم الآخر؟!

- إن لم يكن ثمة ثواب وعقاب، فما الضير في ذلك؟! فنحن في كلا الاحتمالين آمنون، لكن في حال إن كنت أنت المخطئ، فقد وضعت مصيرك الأبدى لمجرد ظن قد يتبين خطؤه!

- هذا الأمر حريٌّ بأن يقال لك؛ لأنك من بنيت مقدمتك على الظن، أما نحن فقد بنينا مقدمتنا على يقين، له شواهد متوافرة.

- يا سيد سقراطيس، وجود هذه المنصة الخشبية التي تقف عليها دليل على وجود نجارٍ ماهرٍ قد صنعها، ووجود هذه الكنيسة الكبيرة، دليل على وجود مهندس بناءٍ ماهر، أيضًا -وسواءً بسواء- وجود كائناتٍ مخلوقة بإحكام، ووجود منظومةٍ كونيةٍ دقيقةٍ ومتكاملةٍ تدل على وجود الصانع، هل تتفق معي على هذه المقدمة؟

- هب أنني سلّمتُ بهذه المقدمة وهي وجود الصانع، لكن هذا ليس كل شيء! فما الدليل أن هذا الصانع قد أمرك بهذه الشرائع! تلك هي المقدمة الثانية التي بنيت عليها عقيدتكم.

- جيد، إذا اتفقنا على المقدمة الأولى وهي وجود الصانع، فهذه خطوة جيدة بالنسبة إليك، واختصرت على نفسك كثيرًا، وننتقل إلى النقطة التي تليها وهي (ما الدليل أن الله أمرنا بهذه الشرائع؟) يجب أن تعرف أن خالق الصنعة الحكيمة لا يمكنه أن يخلق خلقه، ثم يتركهم مهملين يظلم الظالم المظلوم، ويقهر القوي الضعيف وهو يعلم ذلك كله، ثم يتركهم وشأنهم، وإذا كان الإنسان يستاء من تلك التصرفات بطبعه المجبول عليه، فكيف بالذي خلق لهم هذه الطبائع والمشاعر المستقيمة؟ أتكون النظم الإنسانية أحكم وأرشد من صانعها؟ هذا غير جائز عقلاً، ثم وجود أنبياء ورسول متوافرة شهد لهم قومهم بالصدق، ولهم أتباع كثر من البشر، خير دليل على ذلك أيضًا.

صفقت الجموع بحرارة هذه المرة، فبدأ سقراطيس يتغير وجهه، ويكون أكثر جراءة وكشر عن أنيابه، فقال وهو كذلك:

- وماذا عن كل الشر الذي بالعالم؟ كل الكوارث، والمصائب؟ كل الأمراض والتعاسة، والألم؟! لماذا يوجد مؤمنون وغير مؤمنون؟ هل إلهكم عاجز عن إقامة الخير المطلق، ونزع الشر من العالم؟!

ظهرت تصفيقات حارة لكلام سقراطيس، لكن جاءت التصفيقات خالية من

عنفوانها.

سكت آريوس للحظات ثم تأهب قائلاً:

- السيد سقراطيس.. الشرور التي ذكرتها منذ قليل هي شرور بحسب ما يرى منها، لا بحسب حكمة الله التي أرادها، فالشر في مفعولات الله لا في أفعاله..

اعتدلت قسما وجه سقراطيس نوعاً ما، وهو يحاول أن يتأمل كلام آريوس، ثم قال:

- وصِّحْ مرادك أكثر سيد آريوس؟

قال آريوس:

- عندما تتأمل في قضايا الطبيعة: تجد أن الأسد حينما يفترس الغزالة ويقتلها يكون الأمر شرّاً بالنسبة إلى الغزالة، نعم إنه شر ظاهري، لكنه خير محض إذا ما حسبته بصيرورة دورة حياة الطبيعة، ودوامها.. أليس كذلك؟ إن وجود الحشرات والصراصير قد يظن الإنسان أنه شر في ظاهره، لكن إذا علمت أن هذه الحشرات تتغذى على كائنات أخرى قاتلة؛ ستعلم أن ثمة حكمة عظيمة من وجودها.

وكذلك الأمر في وجود الأمراض وصنوف الابتلاءات التي تصيب البشر قد نطن نحن البشر أنه شر في ظاهره، لكنه قد يحمل في طياته خيراً لا نعلمه؛ لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ولو أن الله نصر المؤمنين ومحا الكفر والشرك من الكون، فأى معنى للابتلاء، وأي معنى لامتحان البشر؟! هنا انفجرت الجموع بالتصفيق الحار وظل كثيراً.. كثيراً جداً.. وظل

التصفيق مع الهتاف:

- آريوس.. آريوس.. آريوس.

نظر سقراطيس إلى الأرض والجموع تُصقِّق بجنون لآريوس، وكأن منظرهم من أعلى، كأموج متلاطمة تنزل وتصعد في تناغم وسرور، واجتمعت العذارى للتويطُفن حول آريوس، يلتمسون الأسئلة اللاهوتية، وهو يمتنع بلطف حتى يمر سريعاً من هذا الزحام؛ ليلحق بالأب أرشيلالوس.

خرج آريوس من وسط هذه الجموع النسائية، والناس تُهلِّل له من كل اتجاه، وفتح الأب أرشيلالوس ذراعيه ليحتضن آريوس، مهناً له على حسن

بلائه في هذه المناظرة الحاسمة.  
ارتسمت على وجه أرشيلوس قسماث الارتياح والإعجاب، ثم خاطبه  
معجبًا:

- كل يوم يزداد حبي وتعظيمي لك سيد آريوس، وثبتت لي أن اختياري لك  
كان صائبًا، تعال سيد آريوس؛ أريدك في أمرٍ مهم.  
\*\*\*

وقف أرشيلوس، ثم قال لآريوس:  
- إن كل الفتيات أردن دخول الخدمة لأجلك أنت يا آريوس، ماذا فعلت لهن  
ليُحِبِّنَّكِ هكذا يا رجل.. طأطأ أرشيلوس رأسه مبتسمًا ووضع كفيه على  
المنضدة متكئنًا عليها للحظات كأنما يريد الترتيب لأمرٍ ما.. ثم قال:  
- هذه مهمتك! أجل.. أنت أصلح رجل لتلك المهمة.  
- أي مهمة يا سيدي؟  
- اختيار فتيات لتعليمهن الترانيم..  
تردد آريوس وقال متلجلجًا:  
- أنا...!! أعفني من تلك المهمة، فأنت تعلم خطورة هذا الأمر لا سيَّما ممن  
كرّس حياته للخدمة..

- يا سيد آريوس.. أنت رجلٌ حصيف.. وسوف تتعامل مع الفتيات بمنطق  
الأب لهن.. الراهبات عندنا لا يُحَسِبْنَ الترانيم ولا التقليد الشعري.. أنت رجل  
شاعر.. فيلسوف.. عالم.. وفوق كل هذا الفتيات يُحِبِّنَّكِ، وهذا هو جوهر  
اختياري لك! فالفتيات سيتعلمن سريعًا لأنهن يُرِدْنَكِ أنت.  
\*\*\*

وقفت العذارى كعصافير السماء.. تتقلب وجوههن استحياءً.. يغطين  
وجوههن بما انسدل عليهن من قماش المانتيل الذي يضعنه على رؤوسهن..  
ظل آريوس يراقب الموقف ومن برفقته عن كتب.. تقدمتهن فتاة قمراء  
تُدعى "ليندا"، بدت ليندا كعصفورة رشيقة وسط عشرات الطيور، فوجهها  
يتلألأ نورًا، وعيناها يظللها الحياء والخشوع، تنظر إلى السماء متأهبةً للإنشاد،  
كنظرة مريم البتول.. تناولت القيثارة، وبدأت ترتل أشعار "ثاليا" بصوت أشبه  
بصوت الكروان، وطبقات صوتها المترددة كانت كصوت عزف سيمفونيةٍ

رائعة تعلق شيئاً فشيئاً فتسمع رنيناً عند بلوغ ذروته، ثم تنخفض شيئاً فشيئاً فتسمع هديرًا كهدير الماء المنزلق بين الأحجار فيعطي شعورًا بالهدوء والسكينة.

لما أنهت غناءها، ساد صمتٌ عميق، بينما كانت تُعيد ستر رأسها إلى انسداله الأول على جبهتها، نظرت نحو آريوس وابتسمت، وابتسم لها آريوس ابتسامَةً رزينة ودقق النظر فيها، حينما أتى قط بري يجري نحو ليندا فالتقطته بيديها الناعمتين.. وقالت وهي تمسح بحنانٍ على رأسه:

- معذرة يا أبت، هذا قطي "ثوروس" يلازمني طيلة الوقت.

ثم ضحكت على استحياء قائلة:

- إنه لا يُفارقني أبدًا.

قال آريوس:

- يبدو أنه لن يفارقك طيلة خدمتك معنا في الكنيسة!

تفاجأت ليندا:

- أنا... أنا... هل قد قبلتني معكم في الكنيسة؟ هل سأكون بجوارك لأتعلم

منكم الحكمة!

قالتها ليندا بشعورٍ عارم، كادت أن تقفز من مكانها..

قال آريوس:

- أجل يا بُنتي، وتستطيعين الذهاب الآن لإخبار والديك.

لم تنتظر ليندا إلى حين انتهاء كلام الأب آريوس، فقد تلعثمت، جرت ناحية

باب الغرفة، ثم تذكرت أنها لم تستأذن قائلة:

- عفوًا عفوًا أبي، لقد انطلقت سريعًا من شدة فرحتي.

تبسم آريوس:

- لا عليك يا ليندا، هيا.. أسرع في إخبار والدين!

هرولت ليندا تحت وهج حرارة الجو الخارجي، التي تصيب بالدوار إلى بيت

أبويها؛ لتخبرهم باختيارها كراهبة مُكرسة بالدير!

كانت ليندا دائمًا سعيدة عندما تنتهي زيارتها الصباحية عند الأب آريوس، لم

تدرك ليندا السبب.. وسألت نفسها هل هي تحبه؟ أم وجدت فيه حنان الأب

وعطفه؟! لم تجد جوابًا إلى هذه اللحظة.

نشوة عارمة تجتاح ليندا على رغم الأعمال الصباحية التي كانت عليها في كنيسة الدير.. لمحت وردة برية مزروعة خلف السياج، اندفعت لقطفها.. اشتمّت الرائحة الحلوة القوية للوردة، ثم وضعتها على وجهها؛ لتندحرج بعدها على العشب المُشبع بقطرات الندى.

امتلاً قلبها بفرح مفاجئ، كان الفرح باطنياً في جمال الأرض، وطبيعة الأشياء ذاتها عندما كانت مقرّفة في الجو الرائع، والرائحة الحلوة وطنين الحشرات المُسبّب للنعاس، بدا لها كأنها تسمع نشيداً تبيح قوى الأرض، وكل الأشياء المخلوقة ترسله إلى خالقها بشكلٍ أبدي.

خُلصت لحظة بحماسة وسعادة، ناسيةً نفسها في فرح عبادتها، واضعة الوردة على وجهها.. لكن بعد أقل من دقيقة وبّخت نفسها فوراً وتراجعت للخلف.. وتساءلت:

- ماذا كنت أفعل؟! هل ما كانت تعبه هو الرب حقاً أم كانت تعبد جمال الطبيعة؟

انحسر الفرح من قلبها، وتلاه شعور بارد غير مريح بأنها خُدِعت بنشوة شبه وثنية، لامت نفسها.

قررت أن تسأل الأب الحنون آريوس، هل الفرح بالطبيعة يتنافى مع عبادة الرب الذي ينبغي أن يكون الحب والتعظيم له وحده؟! ظل السؤال يحيرها، وعرفت أنه يجلس وراء الكنيسة على الدكة التي تحت شجيرات العنب ذات اللوائف المميزة، فهذا هو المكان المفضل للأب آريوس صباحاً؛ حيث تروقه القراءة صباحاً قبل الدخول إلى الكنيسة.

حكّت لآريوس ما جال بخاطرها من هواجس شيطانية، ضحك آريوس ضحكة دافئة، وقال:

- لا يا بُنتي، حب الإنسان للطبيعة الخلافة، لا يُعدّ عبادةً لها، فتعظيمه لها، هو تعظيم لخلق الله.

سكت هنيهة وهو مشغول بنسخ بعض المخطوطات التي بين يديه.. ثم قال:  
- يبدو أنك حريصة جداً في إيمانك يا ليندا.. لكن لا أحب أن يتحول هذا الحرص إلى مجاوزة الحد.. الإيمان سهل وبسيط، يسمو بالإنسان إلى مولاه الخالق، وليس عائقاً يُسبّب له فزعاً أو قلقاً.

اضطربت ليندا وتحوّل لونها إلى القرنفلي، توقفت، كانت حزينة، وفي حالة أشبه بالإغماء، مرت لحظة لم تكن فيها حاضرة بجسدها مع آريوس، واستولى عليها خليط مبهج من التفكير والحيرة، دخلت في حديث نفسي داخلي، هل هي تحب الأب آريوس؟ أم هو لها بمنزلة الأب؟ ثمة أسئلة تنتابها، لكنها سرعان ما تذكرت أنها كترّست نفسها للخدمة، فليبقَ هذا الحب الطاهر يذهب أدراج الزمان ليكلل في سحائب الملكوت.

\*\*\*

فوق القصر العتيق بروما بدا القمر مُحاقًا إلى مُنتهاه، ليلة باردة على الرغم من أن لا نسيم ولا ريح فيها، كلاب تنبح في طرقات المدينة الجديدة، وبومة بيضاء تُحلق فوق الحصن؛ بحثًا عن عشاء، وبينما يغط الجميع في سبات عميق، قامت فوستا من نومها وهي مذعورة، ويداها ترجفان، وعلى رغم شعورها بالبرد القارس، فإن حبات العرق كانت تتحدر من جبينها، نهضت من فراشها وقدها لا تقويان على حملها، ونزلت من سلم القصر، وهنا انتبهت لها جارية عجوز فانطلقت تمسك يدها وهي تصيح: - سيدتي.. أنتِ على ما يرام؟

لم تنطق فوستا وأشارت بيدها إلى الأريكة، فأجلستها الجارية، وأحضرت لها كأسًا من الماء، فشربت وتمالكت نفسها، ثم قالت: - قد جاءنا الويل على يد ابن الجارية.

قالت الخادمة العجوز:

- كابوس آخر؟

فأجابت فوستا وعيناها شاردتان: - رأيت السماء وقد صارت دمًا وسمعت الصياح: مات قسطنطين.. مات قسطنطين.. ثم رأيت كريسيوس وهو يجلس على الكرسي فترتفع به الأرض كأمثال الجبال، وهو يشير بيده إلينا ويضحك بصوت يرنجُّ الأرض، ونظرت أمامي فإذا بحفرة عميقة تعلو منها ألسنة اللهب، والحفرة تقترب مني وأولادي بجواري وأحاول الصراخ فلا أقدر، وأحاول الحركة فلا أقدر، فلما بدأت في السقوط استيقظت من نومتي!

ثم نظرت إلى الجارية بعين يملؤها التحدي، وقالت: - فوستا السيدة الأولى، وابنةُ النبلاء، ابنة ماكسيمانوس! لن تقف أبدًا مكتوفة اليدين!!

وفي غمار هذا التوتر سمعت فوستا خطى مكتومة، وخطواتٍ بطيئة، كانت ثمة همهمات مُتخفية.. وصورة شبح من وراء الستار.. الضوء خافت لا يمكن تمييز من بالخارج به.. وأشارت إلى الخادمة لكي تسكت، فساد الصمت للحظات قليلة، تحركت فوستا ببطء شديد، وأزالت الستار فجأة! رأت ظلًا بعيدًا يتحرك بالأعلى لكن لم تُميز من هو.. تحركت بسرعة إلى الأعلى ونظرت يمنةً ويسرة فلم تجد أحدًا.. جاءت الخادمة وقالت: - ما الخطب

سيدتي؟

قالت:

- لقد شعرت بأقدام إنسان يستمع إلينا من خلف الستار.. إنني أشعر أنها هيلانة.. يا ويلتاه إن كانت هي!  
- اطمئني يا سيدتي، فحديثنا كان خافئًا ولم يلحق هذا المتصنت أن يسمع شيئًا.

زفرت فوستا زفرة يائسة وأغمضت عينيها، وقالت: - أرجو أن يكون الأمر كذلك!

لم تنتظر فوستا حتى يحين الصباح، وعزمت على اللحاق بقسطنطين قبل أن يخبره أحد بما سمع، وراحت تُكلم قسطنطين هذا المساء بشأن ابن الجارية الذي سيجلب العار على الإمبراطورية كلها.

نزلت الكلمة على قسطنطين كالصاعقة، فسكت متألمًا ولم يُبدِ أي اهتمامٍ لكلامها، ونظر إليها بعينين دقيقتين، في حين رُقَّ قلب فوستا وقد شعرت بأنها جرحته وتلجلجت، وقالت: - أنا آسفة.

أشاح قسطنطين عنها عائدًا إلى الليل وسكونه، ووقف في ظلام الشُرفة يُراقب القمر والنجوم، أو ربما الحرس على الأسوار، ثم قال: - كريسبوس يظل ابني، حتى ولو كان ابن جارية.. فهو قبل كل شيء ابن قسطنطين العظيم!

\*\*\*

مَرَّت السنون وتغيرت خريطة الإمبراطورية كثيرًا؛ فمن الشرق تمكن ليسينيوس من القضاء على كل خصومه، ولم يكن يتخيل يومًا أن القدر سيذهب به إلى ما وصل إليه، وكانت الأباطرة تتساقط أمامه حتى غدا ليسينيوس قيصرًا على الشرق بأكمله، ولا شك أن انتصارات صديقه القديم قسطنطين المتتالية في الغرب، وانشغال قسطنطين قد منحته الفرصة للظهور والسيطرة على مفاصل الدولة، أما في الغرب فقد كانت قوة قسطنطين باهرة، فبعد موقعة جسر ميلفيو والقضاء على مكسنتيوس، لم يعد يجرؤ أحد على مجرد التفكير في مجابهة قسطنطين، وأصبح إمبراطور الغرب الأوحى بلا منازع.

لاح في رأس ليسينيوس الانفراد بالإمبراطورية، ولاح في نفسه شبق التوسع، مرت بضعة أعوام، ومع مرور الوقت كان يزداد التوتر بين ليسينيوس في الشرق، وقسطنطين في الغرب، فخوف ليسينيوس من رفيقه السابق؛ دفعه لتدبير المكاييد له؛ فهو يعلم أن قسطنطين عاجلاً أو آجلاً سيحاول سحب البساط من تحت قدميه.. فلما علم قسطنطين بأمر هذه المكاييد انتهز الفرصة وجعلها ذريعة للهجوم على صاحبه، وصارت علاقتهما ببعضهما ما هي إلا حرب، ثم هدنة، ثم حرب، ثم هدنة، ومع كل حرب كانت إمبراطورية قسطنطين تتوسّع شيئًا فشيئًا على حساب أراضي ليسينيوس.

وفي إحدى الليالي الهادئة تسلل ليسينيوس من قصره مرتديًا لباس العامة متخفيًا، وقد تآقت نفس القيصر إلى التسكع في الحانات، كما كان يفعل قديمًا، وفي إحدى الحانات جلس ليسينيوس يحتسي الشراب، وينظر بشرود إلى النزلاء، كان باله مشغولًا، فعلى رغم ما وصل إليه فإن شيطانه كان لا ينفك يوسوس له: كانت الفرصة سانحة لك في عهد جلابيوس بالقبض على قسطنطين أو حتى قتله، قبل أن يصل إلى ما وصل إليه، أما الآن فقد فرغ قسطنطين من كل خصومه، ولم يبق أمامه غيرك، يا للحسرة!

جاءت الساقية بالشراب، فتبادلا النظرات، ثم قالت له بصوتٍ حانٍ:  
- ما قصتك أيها الغريب؟ لم تجلس وحيدًا شارداً الذهن، ولا تشارك رواد

رفع بصره إليها وإذ بها سيدة خمسينية قد أنهكتها الأيام، واضطرتها إلى العمل بهذه المهنة، ارتاح ليسينيوس للحديث معها فبادرها بسؤال:  
- ماذا يفعل صاحب الحانة إذا أجبره شخص على التنازل عن حانته؟  
تنهدت المرأة وهي تنظر إلى صاحب الحانة الأشيب، ثم التفتت إلى ليسينيوس، وقالت له:

- أخبرك بشيء عجيب؟

- وما ذاك؟

قالت:

- صاحب الحانة كان رجلًا صعلوكًا لا يملك من الدنيا شيئًا، ولكنه كان زوجًا لأخت صاحب الحانة السابق، فلما مات ولم يكن له ذرية، آلت الحانة إلى صاحبنا.

فهم ليسينيوس من كلامها أن كونستانيا هي ورقته الرابعة.

فنهض وهو يشكر المرأة، وهي تتعجب من حاله وفيمّ الشكر؟! وغادر المكان وهو يردد:

- كونستانيا.. كونستانيا.

\*\*\*

جمع ليسينيوس جيشًا هائلًا، واحتفى داخل أسوار بيزنطة، وكانت مدينة منيعة بحق، يحميها البحر ودفاعاتها القوية، فاحتار قسطنطين وجمع قاداته للتشاور، وداخل خيمة الاجتماع التي تم نصبها تعالت الأصوات واختلف الجميع، وبينما كان القادة مشغولين بنقاشهم، كان كريسيوس بخارج الخيمة يرسم بإصبعه على الرمال، ثم يتوقف مفكرًا، ويعاود مرة أخرى، أما داخل الخيمة فقد أتعب الضجيج رأس قسطنطين، فقام بفضّ الاجتماع، وبينما كان القادة يخرجون وقفوا متعجبين مما يرسم كريسيوس على الرمال، حتى خرج قسطنطين فلما رأى كريسيوس بادره متسائلًا:

- ماذا تفعل؟

فأجاب كريسيوس:

- لقد وجدتُ الحل!

التفّ الجميع حول الرسم وبدأ في شرح خطة لتطويق ليسينيوس، وما أن

انتهى من شرح الخطة حتى انبهروا جميعًا، أما قسطنطين فقد امتلأ فخرًا، وزاد حبه لابنه، وعلى الفور عيّنه قائدًا على القوات المتجهة لمحاصرة بيزنطة، ولم يخيب كريسبوس ظن أبيه، فسرعان ما حقق نصرًا عظيمًا على ليسينيوس، فقرر قسطنطين المسير إلى ابنه؛ ليشهد الفتح بنفسه.

تلاقت قوات قسطنطين وكريسبوس في نيقوميديا؛ لتطوق جيوش ليسينيوس المحصور هو وزوجته، شعر ليسينيوس دون أدنى شك أنهما الآن لم يعودا أخوين ورفيقين، ولا صنوبين، إن نمط حياتهما قد باعد فيما بينهما للتوّ، إنه العرش الذي لا يحابي فيه أحدٌ أبدًا.. وهذا الرجل الذي يواجهه ليس حاليًا، ويعمل -كما عليه أن يفعل- بما لو كان ليسينيوس مكانه لفعل به أيضًا كذلك!

أما كونستانيا فقد وجدت الشرفة خاوية تمامًا ممن سواها، ووقفت هناك مُطرفةً وهي تكافح لكبت عَبراتها، في حين جلس قسطنطين في الأسفل وسط جنوده ينظر إليها نظر المغشي عليه من الموت، ترك جنوده وهو يتململ في جلسته وشرّد تفكيره في أخته كونستانيا، ودارت في عقله طاحونة التساؤلات، هل ستكون أخته في صفه أم في صف زوجها؟ كانت أخته قد رأت أضواءً في غرفة قصر نيقوميديا وفي الأبراج المربعة من ورائها.

رفعت كونستانيا عينيها إلى أعلى وأعلى في انتظار جيوش أخيها الفاتحة، في البدء لم تر شيئًا.. نوافذ مضاعة كأعين برتقالية تحرق من فوقها، وأعلاه كانت الجيوش الجرارة قد وصلت إلى المدينة.

وهناك في الأعالي تحلق الصقور، كان الوميض الأبيض في نور القمر، انتابها الدوار للحظات، ثم أخذت قرارًا للنزول وتسلمت رويدًا رويدًا إلى الخارج بعدما أغلقت خلفها الباب بالمزاليح حتى لا يلحق بها ليسينيوس، ثم جرت إلى قسطنطين وهو جالس بين جيوشه، واحتضنته بكل قوتها، وهتفت في حرقه:

- الحمد لله أنك عدت إليّ..

أجهشت بالبكاء وهي ما زالت متعلقة برقبته، ضمّتها إلى صدره الحانية، تاركَةً زوجها وحده في القصر ليلقى مصيره المحتوم!

\*\*\*

توارت بالحجب أنجم ليسينيوس وهتكت ستر المشرق شمس قسطنطين العظيم، وتطلعت الدنيا تتسمع أجراس نصرٍ في نيقوميديا، تعلن في الملاء أن هذا قد أصبح للإمبراطورية العاهل الأوحد، وإذا بقسطنطين يخر ساجدًا يسبح بحمد قدرٍ قد واتاه من حيث لا يحتسب، وأغدق عليه نعمه ظاهرة لا باطنة، فإذا الإمبراطورية كلها طوع أمره، وإذا هو لبشرها سيد!

ومرت بمخيلته تلك الأحداث القديمة المتلاحقة، منذ نادى به جند أبيه ورفعوه مكائنًا عليًّا، وكيف حالفه ذلك الطاعن ماكسيمانوس، ثم كيف تألب عليه، وما كان من أمر مكسنتيوس وانحداره عند القنطرة الملفية، ثم دخوله مدينة الظافرين، وعهده مع ليسينيوس وحره ضده.

تذكر قسطنطين كل هذا في لحظات.. وأفاق من نشوة النصر على رنين تلك الأجراس؛ ليرى نفسه وقد غدا سيد الإمبراطورية الأوحد!

نفذ قسطنطين عن نفسه غبار معركة فرغ منها لتوّه، وراح يعود إلى ذلك الوراء البعيد وهو بعدُ على الناحية الأخرى لبحر الشمال، يخترق بصره البياب والوديان، تجاه تلك البقعة القصية التي يهواها فؤاده، الشرق!

وبعدما قضى على ثورة الدوناتيين<sup>(15)</sup> بشمال إفريقيا، تطلع إلى مدينة بيزنطة؛ لكي يقوم ببنائها من جديد، ويتخذها عاصمةً له وقد أسماها "القسطنطينية"، فبدأ بتعميرها، وبناء كنيسةٍ فيها؛ لتكون عاصمة الإمبراطورية الجديدة.

\*\*\*

مع مغيب الشمس بدا الإعياء واضحًا على الأب أرشيلوس، فهبط الأب وقد شعر بالإرهاق يزداد عليه، وقام يصلي في صحن الكنيسة، وأدى صلاته ثم نهض دون أن يشعر بالانتعاش، ومشى متقدمًا إلى داخل الدير على هدى عبير الورد الخفيف، ليتوقف هنيهة ويشتمّ الهواء العليل.

بعدها بساعاتٍ قليلة، عثر آريوس على الأب أرشيلوس متمدّدًا على بلاط الأرض فاقدًا وعيه، فأخذ يحدق إليه وقد تملكه الرعب والدهشة، من سكون الموت الذي بدا عليه، وشحوب وجنتيه، وكان جسمه الغضّ عادةً يَمُور بالحياة، هُرع إليه القسوس وحملوه مع آريوس إلى سريره.

استفاق أرشيلوس وفتح عينيه ببطء، فارتسمت البسمة على وجه آريوس:  
- لقد أرسلنا إلى الطبيب سيدي، وهو في طريقه إلينا.  
أجابه أرشيلوس بصوتٍ متهدج:

- لا ترسلوا إلى الطبيب، فالموت لا ينفع معه الطب، وقد حان أجلي ليستلم الرب أمانته، كم كنت أود يا آريوس أن تكون أنت من بعدي على كرسي الكرازة، ولكنها وصية الأب بطرس، ولا أحب أن أخالف المسيح مُخلّصنا إذ يقول:

- "كن أمينًا إلى الموت، فسأعطيك إكليل الحياة".

- وأنا أشهد لك بالأمانة سيدي، فلتكن مشيئة الرب.

أطرق آريوس برأسه متنهّدًا، ثم عبث بخصلات شعره الفاحم التي تهدلت على جبهته، وشرّد بفكره بعيدًا، وسأل في أعماق نفسه:

- ماذا أصنع بعدك؟! هل سيتركونني أقول ما أعتقد؟! أم عليّ أن أواجه ألكساندر وحدي؟! قال تلك الكلمات في نفسه دون أن يتفوّه بها.

تنحج أرشيلوس ثم قال:

- تذكر قول مُخلّصنا:

- "طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض.. طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض".

تفاجأ آريوس برده وفزّت الدموع من عينيه، وقد سرت قشعريرة خفيفة في جسده كله، مُتفاجئًا بتلك الكلمات التي كانت إجابة مُقنعة لحديث نفسه!

بدا أرشيلالوس وعيناه شبه زاعطين؁ واتجه برأسه ناحية الحائط؁ وخرج  
آريوس وقد ابتلّ رداؤه بالدموع.

وعلى إثره دخل ألكساندر؁ ودخل وراءه جماعة القساوسة يرفلون في  
أرديتهم الكنسية؛ للمثول أمامه ليتلقّى المباركة وترسيم الصليب.. وما أن  
اختفت الشمس وأسدل الليل شراشفه على العيون؁ أصبح ألكساندروس هو  
البطريك الرسمي بعدما لبّى أرشيلالوس نداء السماء!

\*\*\*

تقدم آريوس رويدًا رويدًا في صحن الكنيسة الذي كان صداه يُجيب حركة مشيه، وكان خاطره مقسمًا بين حنين الماضي، وحياة الحاضر.. يتذكر نيقوميديا بأيامها الجميلة، ويشتاق إلى الرحيل إليها، ثم سرعان ما يتذكر تلاميذه في الإسكندرية الذين يُمثل لهم كل شيء، فيطرد فكرة الرحيل من رأسه.

وفي أحد الأركان وقعت منه التفاتة نحو إحدى الأساطين، فأبصر حذاءها شبخًا ساكنًا جامدًا، حتى ظنه تمثالًا فوق ضريح؛ فدنا منه فإذا بشبابٍ غض الشباب جاثيًا على ركبتيه، يدها مشتبتان على صدره، والذي لم يؤثر فيه دنو آريوس، ولم يخلج منه طرف، فكان من استغراقه في الصلاة لا يلتفت ولا ينعطف، في حين يضع أغراضه بجانبه على الأرض ثابتًا على هذه الصورة بفعلٍ سحري، قال آريوس:

- لا بد أن يكون هذا الشاب ضارغًا إلى الله في استجداء بعض النعم.  
تحقق آريوس منه فإذا هو أحد مساعدي الأب ألكساندر يُدعى أثناسيوس، كان شابًا يافعًا يبدو في العشرين من عمره يشعُّ ذكاءً وإحساسًا بالذات وجرأةً أبهرت آريوس أيضًا، حاجبان كثيفان مثل عارضتين رُسما بفرشاة كبيرة، شفتان مثبتتان بين شارب رقيق ولحية قصيرة.  
العينان السوداوان حسمتا كل شيء في النهاية، فقد كانت الظلال تحدُّهما ليس بسبب التعب أو المرض أو الإرهاق كما يبدو، ولكن كان علامة على القسوة والحزن معًا.

وفي هذه النظرة الكثيبة كانت الرقة مشوبة بالجرأة والصلابة.  
- "لا بد أن هذا الشاب متقد الذكاء"، هكذا خَمَّن آريوس، بينما نظر إليه الشاب نظرةً عجلى وهمَّ بالانصراف، لكنَّ آريوس بلباقته ابتدره مُبتسمًا:  
- مهلاً أيها الشاب.. لقد رأيتك مع الأب ألكساندر مراتٍ عديدة، أنت أحد أقربائه؟

ضحك أثناسيوس وقال:

- كثير من الناس يظنون أننا أقرباء! لا يا سيد آريوس، فلقد وُلدت من أب وأمٍ وثنيين، ثم جاءت بي أُمي المسكينة إلى الإسكندرية كي أتعلم بالمدرسة

الرواقية، إذ كنت أتعلم وألعب مع الأطفال، لكنني ضقت ذرعًا من كلماتهم "أنت وثني لا تلعب معنا"، فقد كان وقّعها في نفسي وقع النار في الهشيم، ومع تكرار هذه الكلمة الأليمة، وفي لحظة غضب قلت للأطفال صارخًا فيهم: - بل أنا مسيحي! أنا مسيحيُّ مثلكم!

وشاءت الأقدار وكان الأب ألكساندروس في يوم من الأيام مُطَلَّاً من نافذة البيت الذي يقطنه على البحر، فرأى صبية يلعبون على الشاطئ، وبكل تأكيد لقد كنت أنا أحد هؤلاء الصبية، فلما تحقق من حركاتنا، وجدنا نمثل طقس العماد الذي تجريه الكنيسة، فأخذ يراقبنا بشغف فرحًا بنا، ثم استدعانا، وكان هذا بحضرة الإكليروس، ما زلت أتذكر هذا جيدًا سيد آريوس<sup>(16)</sup>.

ولما استجبونا علم أنني كنت ذاك الطفل الذي يقوم بدور الأسقف في العماد، فقد قمت فعلاً بعماد بعض الأولاد عن قصد، وبكل مستلزمات الطقس، وهؤلاء لم يكونوا مسيحيين بعد، أما البابا ألكساندروس فلم يأخذ الموضوع ببساطة، وبعد مداولاتٍ مع الإكليروس اعتبر أن هذا العماد ساري المفعول! وامتدحني كثيرًا، وأمر أن تُجرى لبقية الأولاد ما يلزمهم من الطقوس والتعاليم اللازمة لاستكمال الطقس! هرولتُ إلى أمي وحكيثُ لها كل ما حصل، ولما مات والدي أتت بي إلى ذاك الأب الحنون ألكساندروس، ومن يومها جعلني مساعدًا له وأقوم على خدمته، هكذا هي الدنيا سيد آريوس.. ورب صدفة خيرٌ من ألف ميعاد!

ظل آريوس ينصتُ إليه باهتمام ويتجاوب معه، وعينا أثناسيوس مطرقتان إلى الأرض، في حين أنه يقول له:

- أشعر يا آريوس أنه مقدر لي قبل كل شيء أن أعيش في هذا الدير، أعلم أنني سأصبح راهبًا أو قسيسًا أو ربما بطريركًا، إنني زاهد في المناصب الرفيعة، ولكنني أعرف أنها سوف تسند إليَّ يومًا ما.

ران الصمت على الاثنين للحظات، حتى سأله آريوس:

- ما الذي يمنحك هذا الاعتقاد؟ بغض النظر عن ثقافتك التي تبدو متواضعة،

ما الذي يسمح لك أن تقول هذا؟

- إنني أحمل في داخلي إدراكًا لعادات البشر وتقلبات أمزجتهم، ليس ما أتصف به أنا وحدي، بل ما يتصف به الآخرون، هذه الخاصية تُجبر الناس على

احترامي وتعظيمي، ولو لم يكن هناك نداء يجذبني إلى الرداء الكهنوتي لأصبحت قاضيًا، بل حاكمًا.. بل إن شئت فقل إمبراطورًا!  
تباطأ أثناسيوس في استكمال الإجابة، ثم أضاف:

- ببساطة لا يوجد حول الأب ألكساندر من يدافع عن اللاهوت غيري، حتى إنني أكتب له الحجج والأدلة على ذلك.. أقضي الليالي ساهرًا في الاستذكار لأكون ذراع اليمين، وأما الآخرون فقد يتحمسون لأفكاره لكني أصدقك القول، لم يشعر ألكساندر أن أحدًا يفهم هذه القضايا اللاهوتية من كثرة غيري!

ظل آريوس يسمع الكلام من هذا الشاب، وهو يتعجب من ثقته الكبيرة بنفسه وقوة يقينه.

\*\*\*

في اليوم التالي، وبداخل قاعة الدرس، التي تحتوي على عدد من المقاعد الخشبية مترابطة في تكديس فوق بعضها، دلف آريوس في مهابة ووقار أمام الجمهور الذي وقف له احترامًا، ثم سرعان ما انتظم جلوسهم على الأرائك، ليبدأ آريوس في شرح كلمات في علم اللاهوت، كان كلامه رصينًا تهوى إليه القلوب؛ فهو يستطيع التعبير عن فكرته بأحسن بيان وأبلغ عبارة، مستدلًا بأدلة العقل وأقوال الفلاسفة، ودلائل الكتاب المقدس.

بدت ليندا متشوقة وممتلئة بالحيوية، وهي تتشرب كلمات معلمها والأسئلة تنهال عليه، وهو يجيب في تودة ووقارٍ وسعة صدر، أما أثناسيوس فقد بدا في حالة توتر إلى حد ما، ربما في حالة استياء وعدم رضا، ومع ذلك، فقد أسر آريوس قلوب الجميع بضحكته المشرقة الصافية، وبذكائه الحاد، وبحضوره الرائع، لكنه لم يكن ليفعل ذلك قط بوصفه أستاذًا وقسًا مشربًا بهيبة مدرس، ولكن دون أن يحظى بمنصب أستاذ وسلطته، اعتاد على تعقل واحتراس خاصين، فحافظ على مسافة معقولة بينه وبين الطلاب الذين لا يصغرونه إلا بسنوات، كما أنه لو كان يكبرهم بعشرين سنة، كان يكبح وبكل صرامة أي إعجاب خاص يشعر به نحو أي تلميذ، ومع ذلك كان يقربهم منه بحدود، في حين أولئك الذين يمقتهم مقتًا فطريًا، كان يجبر نفسه إلى القرب منهم وعلى أن يعاملهم معاملة خاصة بعناية وإنصاف وكأنهم إخوته.

أما أثناسيوس مهما كان ما سيقدمه له آريوس من أي علاقة صداقة، فإن مثل هذا الارتباط سيكون على جانب من الخطر؛ فأثناسيوس شغوف بمعلمه ألكساندر يدور معه حيث دار، فقرر آريوس الابتعاد عنه إلا في حدود الدرس، وإلا سيعكر هو الآخر صفو حياته، حياة المرشد المتأمل الهادئ، الذي يقود تلامذته إلى مرامٍ أرقى.

عندما شعر آريوس بعدم رضاه بدرسه عن اللاهوت، استمر قائلاً بتواضعه مع الطلاب:

- هذا ما قرأته أنا في هذا الموضوع، لكن لربما يكون للسيد أثناسيوس رأيٍ آخر! أو إجابة أفضل فيما يخص التفسير الصحيح!  
قال أثناسيوس:

- يا سيدي! أليس وصف يسوع بأنه الابن دليل على المساواة في الجنس!  
تبسم آريوس ثم قال:

- قراءتك للمسيح قد تفهمها بوجوهٍ كثيرة، دعني أنبهك إلى أمرٍ مهم، يمكنك أن تقرأ كتابًا جيدًا وأنت صغير حيث لا يزال مجالك المعرفي محدودًا، ويمكنك أن تستمتع بالكتاب وتشعر عن حق بأنك تفهمه، ثم بعد عشر سنوات أو أكثر، تُعيد قراءة نفس الكتاب، وتكتشف معاني جديدة فيه، وتعجب في نفسك، كيف ظننت بأنني فهمت هذا الكتاب فهمًا كاملًا عندما قرأته لأول مرة؟! حقا، كيف كان يمكن أن أفهمه حينئذٍ؟ فعقلك الذي أصبح أعلى كثيرًا في تعقيده سوف يقرأ حتمًا في الكتاب معاني ربما تكون أقرب لما كان المؤلف يضعه في ذهنه، أو ربما لا تكون كذلك، لا يمكنك أن تكون متأكدًا من ذلك أبدًا، هذا جوابي المبدئي!

أما عن جوابي المباشر، فأقول:

- يا سيد أثناسيوس، البنوة هنا في رأيي وفلسفتي هي على سبيل الرعاية والتكريم، لهذا قال يسوع لمريم المجدلية: "اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إنني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم".

وفي نفس المضمار نجد في التوراة:

- "يقول النبي داوود، في المزمور واصفًا المؤمنين بالله بأنهم أبناء الله، بقوله: "قدّموا للرب يا أبناء الله، قدموا للرب مجدًا وعزًّا"<sup>(17)</sup>.

قال أثناسيوس:

- لكن إن جميع الديانات تحتوي على فلسفة المبعوث الذي هو من جوهر الأب.

قال آريوس ممسكًا بالكتاب وهو يمشي ببطءٍ في قاعة الكاتدرائية:

- أحسنت! الإله ميركريوس، ابن جوبيتير وزوجته مايا... فولكانوس هو ابن جوبيتير وزوجته جونو.. أبوللو هو ابن جوبيتير وزوجته لاتونا.

أضاف آريوس:

- أيضًا لعلك تعرف أن الزرادشتية لديهم ما يُعرف بـ"الثالوث الأهوري"، فإن الإله (أهورامزدا) يقسمونه ثلاثة أقانيم: ميثرا إله الشمس، وأنيتا إلهة الأرض، وهوما الثور المقدس الذي مات ثم بُعث حيًّا، ووهب الجنس البشري دمه شرابًا؛ ليسغ عليه نعمة الخلود، ونظرًا لأن لحم الثور كان صعب المنال، فقد اضطر أتباع الإله ميثرا إلى استخدام الخبز والنبيد مكان اللحم؛ يرمزون بذلك إلى لحم معبودهم ميثرا ودمه.

كذلك فإن **المصريين** يؤمنون بمجموعة مختلفة، المجموعة الأولى كانت مكوّنة من الآلهة: أوزوريس وإيزيس وحورس، أما المجموعة الثانية فكانت آلهتها: أمنون وكونس وموت، أما المجموعة الثالثة فلها: خنوم وسانيت وعنقت.

أجاب أثناسيوس:

- صحيح سيد آريوس، لكن في كل مجموعة من هذه المجاميع لا تكون إلهًا واحدًا، بل ثلاثة آلهة، وهذه الآلهة منفصلة بعضها عن بعض، لهذا فإن المؤمنين بهم كانوا يؤمنون بالثلاثة في آنٍ واحد، ثم هب أن جميع الأديان هكذا، فهذه حُجة لنا في أن فكرة ابن الإله ليست مستهجنة، بل لها أصول متجذرة في كل الشعوب والأمم!

سكت آريوس هنيهة وقد كان كلام أثناسيوس يحتوي على بعض المنطق

والحجة.. بعد تفكير قال:

- ما زال رأيي أن كون هذا الأمر ليس مستهجنًا عند الشعوب، لا يعني أن يكون صحيحًا يا سيد أثناسيوس، وأن الرسالة الأهم كانت: تحرير تلك الشعوب من ربقة الأساطير التي كانت جاثمةً على عقولهم، ولردّهم إلى

عبادة الخالق في نهاية الأمر، وإلا لما كان للدين السماوي مزية تميزه عن غيره من الديانات الوثنية.  
وكانت هذه الجملة هي خاتمة الكلام لدى كليهما.

\*\*\*

في يوم عيد الفصح وفي الجهة المقابلة من البحر، كان الناس يتوافدون أفواجا إلى الإسكندرية؛ طلبًا لحكمة آريوس.. ومع توالي الشهور والأيام اشتهر أمره في القرى المجاورة والمدن، وسافر الأساقفة طلبًا لحكمته ومشورته، لقد أصابهم نوعٌ من الشبق.. نوعٌ فريد من الانجذاب اللاشعوري لعظات آريوس... هم في الأزقة وفي الساحات ينتظرونه كل يوم، كان عددهم يقدر بالمئات فتيانًا وفتيات ونساءً وأطفالًا، العذارى من حوله المكرسات للخدمة، كعصافير تطوف في سماء الجنان.. يرددن أناشيد "تاليا" على سواحل مدينة الإسكندرية التي حفظوها منه.

قام آريوس في الجموع خطيبًا بهذه المناسبة، كان صوته جهوريًا، والكلمات تنساب منه كالماء المنزلق بين الرخام، استرعى الحديث انتباه أثناسيوس، وراح الفضول يحوم حول عقله، فاندفع إلى آريوس بأسئلة جدلية كعادته، فنال سبابًا لم يتوقعه من الناس وخرج مصحوبًا باللعنات.

نظر أثناسيوس في حيرة، ولم يعد يفهم ما يجري بالإسكندرية، وكان أهلها قد اتفقوا جميعًا على الولاء لآريوس والسماع لعظاته! وأسرع للتو إلى الكنيسة لإخبار الأب ألكساندر بما رآه، وما أن سمع ألكساندر الخبر حتى زَمَّ جبهته، وعبس وجهه، وقبض كفه وضربها على الطاولة، وراحت شفتاه المتدليتان ترددان غيظًا: - لن تطفئ كلمة الله الحي يا آريوس.. لن تطفئ كلمة الله!

ركب ألكساندر عربته الخاصة التي تجرّها الخيول، ووصل بحاشيته إلى الميدان، ووجد الأمر كما وصفه أثناسيوس تمامًا، فالناس يموجون في سعادة وحبور، وآريوس يقف خطيبًا فيهم.

- هل هذا مكانٌ مناسب للكراسة؟! (18) كان الصوت للأب ألكساندر.

ساد صمت رهيب المكان للحظات، قبل أن تبدأ الهمهمات ونظرات الاستنكار، تبسم آريوس بابتسامة مشرقة على وجهه الأبيض، وسط لحية سوداء تضيء له بهاءً، وبسط كفيه اللتين تتدليان منهما أكمام الرداء الكنسي الفريد، وقال: - مرحبًا بنيافة البابا، كم يسعدني حضور شخصكم الكريم!

لم يُبادل الباطن الابتسام وتجهّم في وجهه أكثر، وأعاد سؤاله بنبرة رجال

الشرطة الصارمة: - لا وقت لدينا للتراحيب! أجبني يا آريوس، هل هذا هو المكان المناسب للكراسة؟!

أطرق آريوس لثوانٍ، ثم قال جادًا هذه المرة: - في وقت المسيح كانت الكرازة وسط الشعب من الرجال والنساء والأطفال، لا وسط الجدران المغلقة!

- لم آتٍ للدخول في جدلٍ عقيم، فقط آمرك أن تتوقف عن تلك المهزلة، وتعود إلى الكنيسة.

- "ليس من حقك!!"

كان الصوت المفاجئ لقائد الفرقة العسكرية المخصصة لحماية الميدان. نزل القائد من على جواده وتأبَّط خوذته، ووقف فُباله البابا ألكساندر كصنمين مُتقابلين، ونظرات التحدي تتطاير من عيني القائد.

كانت مفاجأة بالنسبة إلى ألكساندر، الذي ظل يستمع لصدى صوت الكلمة تتردد على مسامعه، غير مُصدِّق ما اخترق أذنيه، ثم راح يُفصِّد عرقًا، مُحاولًا أن يجمع شتات تفكيره الذي هداه إلى مواجهة هذا القائد بصرامة: - أيها القائد! إنني هنا رئيس الكنيسة، وهذا الشخص الذي يخطب تابعٌ لكنيستنا.

- أتفهّم كلامك يا نيافة البابا، غير أنني مضطر إلى تنفيذ القانون، فبموجب مرسوم ميلانو الذي يكفل حرية الرأي، لا أملك أن أمنع أحدًا من الكرازة لدينه ما دام يحترم القوانين الرومانية.

- ولكن!!!

زمَّ القائد شفثيه، وقال بنغمة عسكرية: - إنه القانون!

أتم حديثه في عجالة، بعدها ألقى قائد الفرسان بتعليماته إلى الجند، وتفرقوا في الميدان، في حين استأنف آريوس كلامه البليغ، وبصعوبة تحامل ألكساندر على نفسه وغادر الميدان وهو يترنَّح، شعر أن كلمات القائد باتت كلهبٍ يحرق أفكاره، ثم عاد بعربته وهو يشتاظ غضبًا إلى الكنيسة.

سادت حالة من الفوضى في جنبات الإسكندرية في هذه الأيام، إلا أن الأيام لم تكن أكثر إنصافًا من الواقع، فقد بات كل اجتماع بين آريوس وبين ألكساندر انزعاجًا وتجهّمًا وصمًا.. وأخيرًا اجتمع ألكساندر بالأساقفة وألزمهم بحرمان آريوس من شركة الكنيسة، وهو يعلم خطورة ما أقدم عليه، لا سيّما

وأن الناس يصعب عليهم تقبل مثل هذا القرار.

شعر الناس بأنه حرمهم ولم يحرم آريوس، هؤلاء الذين يحبون سماعه: الفقراء، والمساكين، والخطابون، والدهاقون.. الرجال والنساء والأطفال.. الذين كانوا مستعدين لترك كل ما في أيديهم؛ لسماع ذلك الفتى المذهل، الشاب القوريني الوسيم ذي النطق الأنيق باليونانية، وحسن السلوك وقوة التأثير الخليقين بفارس، والعينين النفاذتين الهادئتين لمُفكر فيلسوف، والشفتين الرقيقتين المحددتين بصرامة، الذي كان يجذب منطقته الألمعي العلماء إليه.. أحبوه لصفائه ونبله. نعم! لقد فتن آريوس كثيرين! كثيرون لم يستأؤوا لكونه دائمًا شديد الهدوء وضابط النفس، وفائق الكياسة، إنما لصراحته وجرأته في بيان الحقيقة.

نظر ألكساندر من فوق الكنيسة إلى آخر نقطة تلتقي فيها السماء مع الأرض، وجد من بعيد ما يُشبه أفواجًا من الناس تشبه من بعيد أسراب النمل التي تتجه نحو الكنيسة، أو كأموج البحر التي ينج بعضها بعضًا.. يخرق الجموع جنود الإمبراطورية بالأحصنة، تُسابق الريح مثلما تشق السفينة صفحة البحر الرائق على حين غرة.

للتوّ تفرّق رجال الكنيسة شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا وأصدوا الأبواب بمزاليجها الحديدية الضخمة، ومن خلفها أقاموا المتاريس بالأخشاب والحدائد؛ حتى لا يستطيع أحد الدخول.

- "العالم أضيّق من ثقب إبرة".

هكذا قال ألكساندر في نفسه، حينما رأى حشودًا من كل المدن، والمذاهب، والطوائف، والفئات. خرجوا كجيوش النمل من الأحياء تجاه الكنيسة، حشود قررت الخروج من قمقمها لتجلس في العراء قائلة: - "لن نرحل حتى يعود أبونا آريوس".

لقد كان آريوس هذا الرقيق الطيب يشتعل غضبًا إذا سمع كلمة وقحة أو مزعجة تجاه الرب، فوصف الرب بالإنسان، أو بالمتألم، هي أوصاف غير تقية - كما يسميها آريوس - لا ينبغي أن تصدر من تقيٍّ عرف الرب حق معرفته.

يثور ثورة عارمة لا ينجح في إخمادها إلا بعد صراعٍ مرير، يعلوه شحوب الموت وهو مغمض العينين، حينما يميل بخده إلى جبينه ويتذكر كلمة معلمه

لوسيان: "إنك لو عرفت كل شيء قد تعيش مرتاح البال، لكن لن تكون سعيدًا أبدًا"، يجهش حينها بالبكاء من كل قلبه. هذا الألم كان يستحوذ عليه بشكلٍ بطيء، وأخيرًا أصبح ظاهرًا للجميع، فغارت عيناه وأصبحت غالبًا ما تُرى عيناه كليتين، والضحكة التي كانت تُبهج برنينها الجميع راحت مع الأيام.

في تلك الأيام العصبية اتجه آريوس ناحية المقابر في حزنٍ شديد، وحمل معه المصباح الزيتي المعلق على جانب الباب الخشبي المتهالك، دفع الباب ليعطي أزيزًا وسط السكون الرهيب، كان قبر أرشيلالوس قريبًا من الباحة القبلية للكنيسة، منحوتٌ عليه بخطٌ محفور "نياحة البابا أرشيلالوس.. في الملكوت ذلك أفضل".. أطرق آريوس رأسه إلى الأرض، وقال: - أيها الأب العزيز.. سامحني إن تأخرتُ عليك.. كنت أزورك بين الفينة والأخرى.. وانقطعت لانشغالي.. إن كان لأحد فضلٌ عليّ بعد القديس لوسيان، فهو أنت سيدي.. لقد افتقدتكما كثيرًا.. نعم لقد افتقدتكما.. لعل عزائي أنكما قد سبقتماني إلى ملكوت السماوات.. بجوار يسوع المسيح.. أفتقد طلتك البهية يا سيدي.. كنت أبحث عن الحقيقة التي أكون شيئًا في حقائقها، وألمسه شيئًا حقيقيًا داخل نفسي! أخرج من ضيق الأوهام والتفوق في وحل الابتئاس إلى رحب الأمل الذي كنت تعطيني إياه.. أتطلعُ إلى سماواتِ الرجاء!

بينما إشراقُ النور على قلبي، جعل من لفيح الألم حرارات أمل أنني يومًا سألحق بكم في الملكوت، متحررًا من ضيق الأفق، من ظلمة العذاب.. أضحى سعةً لا تكاد عيني تُبصر منتهى فُسحتها، غير أن الفُسحة في قلبي أجدها وهجًا تُروّض بهجة الآمال! بينما بطحاء قلبي أضحت بُسُطًا لا عُقَدَ فيها، أطرق به في بيداء الليل المعتمة.. بأنوارٍ وإشراقٍ!... ارقد في سلامٍ يا أرشيلالوس... ارقد في سلامٍ أيها الأب المتنيح.. صلواتك معنا دائمًا!

\*\*\*

عاش آريوس الكثير من المعاناة، وكثيرًا ما شعر في خلال هذه السنوات باضطرابٍ عظيم في فؤاده، لا سيما بعد موت أرشيلالوس، وتمزق عقله بين هذا وذاك، بحيث وصل إلى حد الإغواء الموجه بترك الدير والسفر إلى بلادٍ أخرى.. لكنه قرر أخيرًا مراسلة صديقه القديم بمدرسة القديس لوسيان "يوسابيوس النيقوميدي".

في البدء كانت العلاقة بينه وبين يوسابيوس في نيقوميديا مجرد رسائل تجيء وتذهب، لكنها سرعان ما فترت وتقطعت وصارت نادرة، لكن ذلك لم يوقف العلاقة التي نشأت بينهما، وظل كلُّ منهما يلتمس للآخر أعذاره في التأخر على الرد، حتى جاءت اللحظة التي يجب أن يرسل إليه مرة أخرى وبشكلٍ جديٍّ، لا سيما وقد عرف أنه أصبح الأسقف الرسمي بنيقوميديا، وعلى الرغم من الأعماق التي تسببت في تباعدهما إلا أن كلاً منهما تعلم الكثير من صحبة الآخر، وقد تكوّنت بينهما ببطء إلى جانب لغة العقل، لغة أخرى، لغة الإشارة، ولغة الروح وكأنهما شخصٌ واحدٌ.

فكتب إليه يقول: - إلى رجلٍ الله المحبوب، المؤمن المستقيم، يوسابيوس، من آريوس المضطهد بغير حق من الأب ألكساندروس لأجل الحق الذي تدافع أنت عنه أيضًا.. متذكرًا المحبة الراسخة بالفطرة والعاطفة التي لك تجاه الأخوة في الأب ومسيحه، إن الأب ألكساندروس يجتاحنا ويضطهدنا مثيرًا ضدنا كل شر، ويطردها من كل مدينة وكأننا رجالٌ لا إله لنا، فقط لأجل عدم موافقتنا على قوله إن الابن والأب يشتركان في الأزلية.

لسنا نستطيع أن نستمع لهذه الأقوال غير التقيّة حتى ولو هددونا بالموت عشرة آلاف مرة، وكما نقول ونتفكر وقد تعلمنا وما زلنا نتعلم بأن: الابن غير أزلي، وليس جزءًا من أي كيان أزلي، إلا أنه كان موجودًا بالمشيئة قبل الوقت، وقبل الأزمنة الإله الكامل ممتلئ النعمة، إننا نُضطهد؛ لأننا نقول بأن الابن مُبتدئ والله غير مُبتدئ، نُضطهد لأجل هذا؛ ولأجل قولنا إنه جاء من العدم؛ ولأجل أنه ليس جزءًا من الله الواحد الأحد، وأما الباقي فأنت تعلمه.

أستودعك الرب مُتذكرًا آلامنا؛ يا صديقي في مدرسة القديس لوسيان، يا من أنت كما تُدعى بالحقيقة "يوسابيوس" (19).

غمر الضوء يوسايبوس، وهو داخل قصر نيقوميديا إثر دعوة خاصة من الإمبراطور، استولت عليه الدهشة لما وقعت أنظاره على هذا المشهد الخارق: ثريات مثقلة بالشموع، وأزهار نادرة موزعة هنا وهناك بذوق وفن، وطاولة تتألق بالفضة، والذهب، واللؤلؤ، والأواني، مأدبة فخمة، شاهد أصدقاءه الأساقفة المدعوبين لحضور حفل انتصار قسطنطين.

وبينما كان الأساقفة ورجال الدولة يقدّمون فروض الولاء والقسم، ويقبلون يد أمه هيلانة، وينحنون تعظيمًا لها، انبسطت أسارير قسطنطين، لما سمع بقدم يوسايبوس النيقوميدي، وتذكّر أيامه القديمة في نيقوميديا، والأيام الخوالي التي قضاها مع منرفينا، كما تذكر صديقه الشهيد مارسيللوس الذي تعمد على يد القديس لوسيان، لحظات من السعادة والحنين إلى الماضي، أشرق مٌحياه وكادت دموع التأثر تطفر من عينيه، ولكنه كتم ما بداخله، وصاح بصوتٍ متهدج منفعل:

- "إيه يا نيقوميديا.. كانت أيامًا جميلة.. كانت أيامًا جميلة بكل ما حوته من فرح وسرور".

قال يوسايبوس:

- صديقنا السيد آريوس كان معنا في مدرسة لوسيان، وهو الآن يعاني من الظلم بالإسكندرية، ولقد عزله الأسقف المسؤول هناك، وكل ما أتمناه سيدي أن يتم إرجاعه ثانيةً إلى منصبه.

- لك ما طلبت يا يوساب، وسأرسل مستشارنا السيد هوسيوس للتوسط لصاحبكم آريوس، وأعدك بأن يرجع صاحبكم إلى مكانه بمعونة الرب.. ثم أطرق هنيهة وأضاف في سكينة:

- يا يوساب، إن عصر أباطرة الظلم قد ولى!

- أعلم ذلك سيدي، وبهذه العدالة قام كرسي الملك.

- إيه يا يوساب! كرسي الملك وما أدراك ما كرسي الملك! عمل متعب كما تعلم، والآلهة تعلم أنه لا يوجد مكان آخر يمكنك أن تريح مؤخرتك عليه في تلك القاعة اللعينة، فذلك الوحش الذي يسمونه كرسيًا غير مريح على الإطلاق! إنني يا يوسايبوس أشعر بالتعب حتى النخاع من الأسرار وشؤون

الدولة، ليس هناك غير عمل مُضجر كعدِّ العملات النحاسية ومتابعة حَرَاج الدولة، وتنظيم الجيوش، والسهر على أمن المواطنين!  
أقبلت السيدة هيلانة إلى يوسابيوس قائلةً:

- إنني سمعتُ الكثير عن القديس لوسيان الأنطاكي، وما تحمَّله من آلام في سبيل الرب ومسيحه، فلتحدثني عنه يا بُني فإنني شغوفة بسيدِّ القديسين.

أجاب يوسابيوس في تُوْدَة:

- نعم سيدتي، لقد كان لوسيان رجلًا فريدًا من نوعه، لم نر مثله قط، إذا تكلم في الديانة نطق كقديس يشع نورًا وروحانية، وإذا تكلم في العلم والكتب نطق كأعلم أهل المسكونة وكأن الكتب كلها بين عينيه.. لعله لا يوجد مخطوط فيه كلمة الرب إلا وهو يعلمه، وإذا تكلم في الفلسفة نطق كأحسن من أهلها.. ولما جاءت اللحظة الحاسمة وأرادوا أن ينالوا منه، أمرنا بالهروب لئلا يمسننا أذى وضحى بنفسه من أجلنا.. لقد زُجَّوه في السجن شهورًا عديدة ولاقى فيه ألوانًا من العذاب، قبل أن تصعد روحه الطاهرة إلى باربيها، ويجلس في الملكوت بجوار القديسين.. يا مولاتي بكلمة مختصرة أقول:

"إن لوسيان الحكيم لم يمت.. أجل لم يمت، هو باقٍ معنا بتعاليمه سيدتي."  
بكت هيلانة العجوز وانتحبت، وتقدمت ببطءٍ إلى النافذة ذات الستائر المخملية، ونظرت إلى السماء، وقالت:

- لَكم داعبني الأمل أن أرى وجه ذاك القديس الأنطاكي الطاهر.. لكم كنتُ أشواق أن أتعلم بين يديه تعاليم يسوع..  
ثم توجهت إلى قسطنطين قائلةً:

- وفاءً لهذا القديس وتلاميذه، فلتبنِ كنيسة في أنطاكية تحمل اسم القديس لوسيان.

قابل قسطنطين الفكرة بالترحاب وبالابتسام الرقيقة، فهو لا يرفض طلبًا لأمه التي كان يرى فيها الفطرة والنقاء، والتي ينتصر على أعدائه ببركتها، وانصرف يوسابيوس في مهابة وسرور.

أما السيدة هيلانة، فقد فتحت غرفتها، وُحِّيلَ إليها أنوار القديسين من بعيد تتراءى لها من وراء الستار، الهواء يتلاعب بالستائر المخملية، ونور الصباح

بالكاد ينير حواف النافذة.. تذكرت كلام يوسايبوس عن القديس لوسيان الأنطاكي، ووجدت من الوفاء للقديسين أن تبني كنائس تحمل أسماءهم. راحت تُكلم قسطنطين هذا الصباح عن بناء كنائس تحمل أرواح القديسين، كانت شغوفة بالقديسة أيا صوفيا المصرية التي سمعت عن عذاباتهما في عهد الإمبراطور هادريان، لا تدري لِمَ شغلها أمرها إلى هذا الحد؟! كانت تسمع قصتها من الراهب يوستانيوس، وتبكي حتى تبلَّ خمارها الحريري الوصَّاء. لقد بنت بالأمس القريب كنيسة للقديس لوسيان الأنطاكي، وها هي الآن أخذت قرارًا حاسمًا ببناء كنيسة صوفيا في العاصمة الجديدة التي بناها قسطنطين للتوّ، وكان لها من اسمه نصيب.

لكن ما أُرِّق فؤاده أنها قررت السفر إلى قيصرية فلسطين للبحث عن الصليب المقدس، وبناء كنيسة القيامة، تلك البقعة التي يهفو إليها فؤاده، لم يكن قسطنطين مقتنعًا تمام الاقتناع بما تفعله ولم يزد قسطنطين على قوله: - لن أجادلك أيتها الدوقة، فالسيدة هيلانة دومًا على حق!

وفي ظهيرة يوم رحيلها، وقف قسطنطين بالمرفأ للتأكد من تخزين المؤن المناسبة للسيدة هيلانة، ستبحر هذا المساء، لم تعد تطيق البقاء بعيدًا عن المكان المقدس، حثَّت الحُطى لتسبق الجندي إلى الميناء، قلبها كان ينتفض بقوة، يكاد يخرج من بين أضلعها؛ مهابةً مما سوف تقدم عليه، غادرت الميناء ببطء، ترافقها دعوات وصيفاتها، وراحت بضعة نوارس تتبعها وهي تُحلِّق في زرقة البحر نحو الغيم البعيد في الأفق، رائحة البحر وهواء الإبحار بددا كل ضيق في صدر هيلانة، أحست أن روح يسوع تجوب في أرجاء المكان، برودة سرت في أوصالها، وكلماته الدافئة تسري بوجدانها.

\*\*\*

في ردهة واسعة في الطابق الأعلى تتناثر فيها أشعة الشمس، كان يتمشى الأب ألكساندر متكئًا على عكازه، يترنح يمنةً ويسرة كبنءول الساعة، آتياً على عجل لمقابلة وفد السيد هوسيووس، الذي جاء للتو من سفره وفق توصية من الإمبراطور؛ لإيجاد حل للحيلولة من تفاقم المشكلة بين آريوس وألكساندر. وها هو ذا ينتظر على مقربةٍ من الباب، وبعد ذلك ولجوا باب قاعة مكسوة الجدران بالذهب، متألقة الأنوار داخل كنيسة الإسكندرية، حيث استقبلهم نخبة من أبرز شبان الكنيسة، وكانت القاعة تضم بين جدرانها خليطاً عجيباً من رجال الفكر واللاهوت.

ابتدر هوسيووس ما زحاً:

- أخبرني يا ألكساندر ما قصة هذا الشاب الذي يقضّ مضاجعكم؟!

ضحك الأب ألكساندر، وقال:

- إنه قسيس يدعى آريوس.. أحد الاتحاد اللوكياني كما تعلم<sup>(20)</sup>، له هيئة من أجمل ما يمكن أن ترى بين الوجوه.. عندما ينسى نفسه يكون لطيفاً هادئاً؛ أما عندما يفكر بهيئته فإنه يغض جبينه، ويقطب حاجبيه، ويغض ناظريه فيبدو متقشفاً، وعندما يناظر الهراطقة والوثنيين يبدو خطيباً مفوّهاً بارعاً في الكلام، له في ديرِه سُمعةٌ لاهوتي عظيم يفهم بالموسيقى، والشعر، والفلسفة، واللغات.

- عجيب أمرك! فلماذا عزلته إذًا؟!

- أيها الأخ هوسيووس أنت تعلم تعليم الكتاب المقدس القائل:

- "إن كانت عينك اليمنى تُحاربك فاقلعها وألقها عنك"<sup>(21)</sup>.

كنت أتمنى أن يكون مساعدي رجلٌ في علمه وذكائه، كلُّ منا يحمل أدلة على اتصافه بنعمةٍ خاصة، إلا أن أياً منا لم يعثر على الآخر! لقد أبى آريوس إلا أن يخالفني، على الرغم من بحثي عن مثله طول عمري، لم أستطع أن أتخلى عن تحفظي عليه، لقد كان أبونا أرشيلائوس يعامله بلطف جم، بكل مداراة رقيقة يوبخه كما يوبخ المرء أحمًا أصغر منه، ربما هو مبكر النضج جدًّا بشكل خطير يدعو إلى القلق.

ذكاء حاد، استحضر الكتاب المقدس والأسفار كأنها بين عينيه، يولي كل

أمر وكل نصيحة انتباهه، وبرضوخ تام، ولم يناقش قط أو يتهجم، وكل ما يؤرقه هو الكلام عن الله بوصف البشر.. مسكينٌ حقاً، إن هذا القس الفقيه آريوس على جانب من الخطر، لعله يكثر من التأمل والفكر وحده، لعله تأثر بالغنوصية. يقول إن الابن مخلوق، ينفي لاهوت المسيح كزهاد النصرانية القابعين في بوادي الشام!

قال هوسيوس:

- أجل! إنه تعلم في المسيحية الشرقية، فالمناطق الشامية تكثر فيها هذه الهرطقات سيد ألكساندر، لكن أخبرني عن بداية المشكلة؟

- وجدته ذات يوم يلقي درسًا ينفي فيه لاهوت المسيح، ويجتمع شباب المدينة ونساؤها حوالبه ليفسد عقائدهم، وحينما نصح لهم ما يفسده من عقائد، ينصرفون عنا، ويهرعون إليه، لقد شغفت العذارى به، يفعلن كل شيء للظفر بالأب آريوس.. ويوارين مشاعرهن ويكذبن، ويدرسن عندنا فقط لسماعه، ويستعددن لشغله أطول وقت ممكن، بل كل أهل الإسكندرية حتى الفلاسفة يحبونه.

سكت هنيهة، ثم قال:

- أرجوك يا سيد هوسيوس نريد حلًا شاملًا إزاء هذا الرجل المتعيب. في الحجرة المجاورة، كان آريوس منتظرًا في ملل، تمر الدقائق عليه كساعاتٍ طوال، ما لبث أن جاء الخادم يطلبه للدخول، وبمجرد دخوله شخّص نظر هوسيوس مُحدقًا فيه، فمجرد رؤية هذا العلامة الأنيق المهندم الذي أطراه ألكساندر على رغم من عداوته، كانت قد أنعشت نفس هوسيوس التي كان يعترها الفضول.

تضحك معه متوددًا إليه؛ ليكسر الجمود الجاثم عليهما، واستمر في تسوية القضايا مناقشًا بين المتخاصمين، داعيًا أحدهما إلى الاحتكام للعقل، موبخًا الآخر.

أبان آريوس عن وجهة نظره في تودة وحكمة شديدين، وأنصت إليه هوسيوس باهتمام.

وبعد انتهاء آريوس، امتعض ألكساندر قائلاً:

- إن رأسك يا آريوس محشو بكل ما هو مُسلٌّ وأحمق!

حين رأى هوسيووس مبلغ انزعاجه عاد ليضحك من جديد، ثم قال ساخراً: -  
وما المانع يا رجل؟ قد يكون للرجيف المسروق رائحة لذيذة لا قبل لك على  
مقاومة إغرائها، لكن لا مناص للاقتراب منه، كذلك الأمر في الفلسفة  
والتفكير الغنوصي الذي أنت مولعٌ به.. اتركه يا آريوس. أرجوك اتركه!  
شعر آريوس أنها سخرية، وأن هوسيووس يبطن موافقة ألكساندر، ويتظاهر  
بالحياد، فعاد ليقول: - وما دخل الفلسفة والغنوصية في ذلك؟ بل هذا ما  
تعلمته من الآباء وما يمليه عليّ تعاليم الكتاب المقدس "وليس رأياً غنوصياً أو  
فلسفياً".

- ربما يكون هذا فهم هؤلاء الآباء الذين علّموك، وليس الفهم الأرثوذكسي  
الصحيح.

- أنا على يقينٍ من أمري سيد هوسيووس.

ابتسم هوسيووس كثعبانٍ عجوز، ثم قال:

- يبدو أنك ترفض أن تنصت إليّ، وليس هكذا يكون الزميل الطيب!  
على أية حال، يا أخ آريوس، أنا لم آت اليوم مناظراً، بل أرسلني  
الإمبراطور للإصلاح بينكما، أو إيجاد حلٍ وسيط، وعليه: ليس من وظيفتي أن  
أناقشك في شيء.

تنهّد هوسيووس ثم أضاف:

- والآن أخبراني، هل يمكن لأحدكما أن يتنازل لصالح أخيه؟ أو ثمة شيء  
نستطيع أن نفعله لإيجاد حلٍ وسيط؟!  
قال ألكساندر في هدوء:

- العقيدة ليس فيها حلول وسطى يا سيد هوسيووس.

- إذًا، لقد أديتُ مهمتي التي كانت عليّ، ولعله لا مناص عن مجمعٍ  
مسكوني.

برقت عينا ألكساندر أكثر من المعتاد، وقال:

- مجمع مسكوني؟!

- نعم، مجمع يحضره أساقفة المسكونة، نحدد فيه صيغة الإيمان الملزم  
لجميع الكنائس.

قال ألكساندر:

- ولكن .....!

قاطعهُ هوسيوِس قائلاً:

- انتظر أنت أيها الأب المبارك "ألكساندر"، فأنا أريدك في أمرٍ ما، أما أنت يا سيد آريوس فتستطيع المغادرة، لقد أتمنا المناقشة، شكرًا لحضورك!  
مال هوسيوِس وهو يهمس في أذن ألكساندر وقال بصوتٍ خفيضٍ يُشبه فحيح الأفاعي: - استمع إلى أخيك هوسيوِس.. سوف نتخلص منه، كل ما أريد أن أقوله لك، لا تخف! فالإمبراطور رجل حرب وكل ما يملكه تجاه المسيحية هو "التعاطف"، وهو يفعل كل ما أمليه عليه من أمر الديانة، فهو وضعني لذلك.

- ولكن الجمهور يا هوسيوِس! إنَّ جمهور الأساقفة على خلاف قولنا.  
لوح هوسيوِس بيده بحركةٍ فاترة، وتألقت الخواتم على أصابعه السمينة، وقال: - أوكد لك أن المسألة منتهية، ثق بي.

- لكن يا سيد هوسيوِس أنا أرى ...!

- حسناً، يبدو أنه يسعدك أن تنفض يدك من الأمر كله، وتُضَيِّع على كلينا صيداً ثميناً! أخبرتك أن الإمبراطور يثق بي، وإن نجحت الفكرة ستكون ملزمةً للجميع، وإن لم تنجح فلتعد إلى ما كنت عليه.

اتجه هوسيوِس ناحية النافذة ببطء، ونظر إلى القمر بعمقٍ شديد، قائلاً: - صدقني سيأتي على آريوس يوم يضطر فيه إلى الانسحاب عائداً؛ ليحتمي خلف جدران الأمان، سوف يظل يشعر دائماً بأنه بلا مأوى، وأنه لا وجود لمكانٍ آمنٍ حقاً ومحمي تماماً، إلا في أكنافنا نحن.

ظل ألكساندر مقطب الجبين شارداً يفكر في كلام هوسيوِس، ثم قال: - سيظل العالم يمثل لغزاً حتى النهاية، لغز مبهم، لغز لا طريق لأي حكيم إلى فهمه! هيا، يا سيد هوسيوِس، يجب أن تأخذ قسطاً من الراحة؛ حتى تستطيع مواصلة رحلتك في الغد".

**السفر إلى نيقوميديا**

رأى آريوس أن وجود أنصار له خارج الإسكندرية وتحويل القضية إلى قضية دولية أدعى لنصرتها، فعزم عليه أمره، وأعدَّ عُددته، وأبحر من الإسكندرية، ومرت الفلك به بريح طيبة إلى المدينة المقدسة، أورشليم أولاً، ثم نزل مدينة

صور، ومنها إلى حيفا، وحصل له هناك من الأهوال ما سوف يحكيه بنفسه إلى صديقه يوسابيوس.

نزل أوكار أنطاكية؛ ليزور أطلال مدرسة معلمه لوسيان! وجرى نهر العاصي بلونه الأخضر والأزرق هادئًا وصافيًا، كمرور صفحة من الزجاج الأملس الشفاف، جلس آريوس ليرتاح على حاجز النهر عميقًا تحت طبقات من المياه الرقراقة، المائلة في لونها إلى الخضرة التي يبدو أن خضارها بسبب ما تحت الصخور من طحالب، السمك المظلل لا يزال ينزلق، أو هامدًا لا يأتي بحركة، وقد اتجهت أنوفه بعكس اتجاه التيار، كان لا يزال هناك شيء ذهبي باهت يتلألأ هنا وهناك وسط حمرة الأفق الشاحبة المحيطة بالمكان، واعدًا بالكثير مانحًا السلام.

عاد ليواصل الطريق، ومن خلال البوابة نفسها التي كان قبل سنين عديدة، قد حثَّ خطاه مائرًا من تحتها داخلًا للمرة الأولى إلى المدينة، كان كل شيء كما هو كما تركه تقريبًا؛ البوابات، النوافذ الدقيقة، كنيسة الدير، وساحة السوق الواسعة والجميلة، آه ما أحلى الإحساس بأن كل شيء كان بانتظاره! كادت تطفر الدموع من عينيه لدى مروره في الشارع، وهو يميز بيتًا بعد بيت، ربما يحسد هؤلاء المواطنين على معرفتهم الهادئة، العميقة، أنهم في وطنهم، يعيشون في أمانٍ وسلام، مستكينين داخل ورش أعمالهم وبيوتهم، مع زوجاتهم وأولادهم، وعمالهم المهرة وجيرانهم.

كان الوقت متأخرًا من بعد الظهر، ونور الشمس يمتد ذهبيًا على واجهات المنازل وأبوابها المحفورة، وصفوفها من أصص الزهور الموضوعة على الشرفات، كل شيء كان يبدو دافئًا، لم يكن ثمة ما يذكره.

\*\*\*

ولما شاهد آريوس عن بُعد أطلال مدرسة لوسيان، هاجت في نفسه بلايل الأشجان، وبلغ خفقان قلبه واضطراب أعضائه أن التزم الوقوف ببغلتة، وشخص بصره نحو البلدة الطيبة التي تعلم فيها أصول الديانة، وبهت حائرًا صامتًا، ثم رد يديه نحو عنقه، وخنقته العبرات، متذكرًا قول الأب لوسيان: - "صدقني لو عرفت كل شيء قد تعيش مرتاح البال، لكن لن تعيش سعيدًا أبدًا".

وهي الكلمة التي كثيرًا ما تكررت في وجدانه، لكنه لم يفهمها إلا في تلك اللحظة! فوقف الخادم الذي استأجره بوقوفه، وعرف أن آريوس قد قامت قيامته عندما رأى بلدة الأب لوسيان الأنطاكي، فهتف قائلاً: - هيا بنا يا سيد آريوس، اربط على جأشك، واستثر عزمك، بذلك جرى حكم الله، ثم رفع قلنسوته ورسم الصليب على صدره، وزجر بغله ومضى.

حط رحاله -أخيرًا- إلى باولينوس أسقف صور، وربط حصانه تحت شجرة الكستناء، رفع آريوس نظره إلى الأغصان العارية الساكنة للشجرة، التي تنثر ظلها البارد دائمًا، شعر حينها بسكينة وسعادة لم يشعر بمثلها قط، خرج البواب من البوابة للتو لمقابلته.

ابتدر آريوس قائلاً:

- أنا القس آريوس، وأنتمي إلى مدرسة القديس لوسيان الأنطاكي.  
فرح البواب العجوز ذو الوجه الشاحب المحدد بعناية بمجيئه، وقال: - حلت عليك بركات السماء أيها الأب المبارك، أعرفك سيدي، فشهرتك تغني عن التعريف!

وقاد القادم الجديد عبر البوابة، ومنها ارتقيا الدرج الحجري العريض، دخل آريوس الدير دون وجل، شاعرًا أنه هنا قابل مخلوقين كريمين، ويمكنه بسهولة أن يصادقهما: الشجرة والبواب، استقبلهما الأب مدير المدرسة، وقرابة المساء استقبلهما الأسقف باولينوس رئيس الدير، الذي وعده بأنه سوف يسري عنه برحلة خلوية إلى الراهب يعقوب، من رهبان الأسينيين.

\*\*\*

في اليوم الثالث، تهيأ باولينوس للمسير بآريوس إلى البادية للترويج عنه، أخذهم الطريق إلى قرية تسمى بلعوم، هي عبارة عن تلال بعضها فوق بعض، منطقة جدباء بصحاري أريحا بمحاذاة نهر الأردن، لم يكن يظن أن أحدًا يمكن أن يسكن هذه المنطقة القاحلة، التقيا بالشيخ الأسيني الزاهد الذي حدثه عنه باولينوس ليلة أمس، والذي يحفظ النبوءات القديمة، كان الشيخ يميل إلى السمرة، حفرت فيه السنون تجاعيد كثيرة تبدو خشنة الملمس، أنفه مستقيم وخداه أحمران، وأدلة البداوة والعزم والقوة تظهر في حركاته ونظراته، يده القويتان مكسوتان بشعر أبيض، وجلسته وأساليبه وتصرفاته تجعلك تعتقد بأنك أمام قديس.

نظر الشيخ إلى آريوس نظرة المشفق، نظراته كانت أقرب إلى المرتاب منه إلى المرحّب! ينظر إليه حينًا، وينظر إلى الأرض حينًا، كان الرجل هرمًا، لعله قد تجاوز المائة، أحس من نظراته أنه يخبئ كلامًا لا يريد أن يبوح به. ابتدره آريوس قائلاً:

- لماذا أنتم منعزلون عن الكنائس؟ بل منعزلون عن الدنيا تقريبًا؟!  
أجابه الأسيني:

- هكذا ينبغي أن نكون يا سيد آريوس، لقد كان أجدادنا هم حواريو المسيح ابن مريم، وقد بُعِثَ المسيح إلى بني إسرائيل خاصة، ولم يرسله إلى الأمم، ولقد أوصانا بالتمسُّك بالناموس، وحذرنا من المتنبيين الكذّبة الذين ادَّعوا الوحي من الروح القدس بعد مولانا المسيح، وادَّعى بعضهم أنه قد رأى يسوع بعد قيامته، وراح يُبشر بنقض الناموس.

كانت كلمات الشيخ الأسيني تنزل على آريوس كالصاعقة، لكنما الأسيني كان يتكلم بثقة كفرس يشقُّ طريقه، غير آبهٍ لرضا أحدٍ أو سخطه! ران عليهما الصمت للحظات، أحس آريوس أن الرجل مليء بالأسرار، ولديه كثير من الأسئلة عنه، وربما سنحت له الفرصة للمعرفة التي حرَّكَها فيه القديس لوسيان منذ زمن، ولم يشفِ غليله منها!

هبّت رياح خفيفة فمسحت وجه الصحراء الناعمة، مخلّفة وراءها أتربةً خفيفةً، كانت أوراق النباتات الصحراوية المتساقطة تدور مع الرياح، الجو

محمل بالسحب، أحس آريوس أن كلمات ذلك الشيخ قد هيّجت الرياح عليه،  
أو لربما مخلوقاتٍ غير مرئية تستمع إلى ذلك الشيخ معه!!  
لعلها أرواح القديسين مستائين بتجديف ذلك الشيخ العجوز، أو لعلهم  
فرحين بكلامه، ولكن، أليس حقيراً بالرجل أن يؤمن بالخرافات؟ أليست  
الخرافة رجاء في أكثر الأحيان؟ عصفت بآريوس الأفكار، وما عاد يعلم أين  
هي الحقيقة!

خواطر أنت في عقله لثوانٍ معدودة، ثم عاد ليسأل:  
- لكن أيها الشيخ، هل يمكن لله أن يترك دينه هكذا تدافعه الظنون  
والأوهام؟

تبسم الشيخ الهرم بسمة دافئة، ثم قال:  
- إن مولانا المسيح أخبرنا بأنه لن يتركنا هكذا دون مرشد، بل سيأتي من  
يدفع تلك الظنون والأوهام الكاذبة، ويبزئ المسيح من كل نقيصة، الحق أقول  
لك: إننا بانتظار مسيح آخر بعد مولانا المسيح ابن مريم، ذاك آخر الأنبياء  
والمرسلين (22).

قال آريوس في نفسه:  
- لا بد أن هذه من المعتقدات الأيونية والأسينية! ولم لا؟! لعل العزلة هي  
ما أورثتهم تلك الهرطقات، مساكين هؤلاء القوم! هل يمكن لأجل أنهم يريدون  
الخلاص، اخترعوا ظهور نبي آخر بعد المسيح؟!  
- هل مكتوب لديك في النبوءات القديمة من سيكون له الغلبة نحن  
الموحدون أم مؤلمي الآب؟!

نظر الشيخ نظرة المرتاب، وقد علاه الرُحَصَاء، وجحظت عيناه، ولم ينبس  
بنت شفة، فأقسم عليه آريوس راجياً إياه أن يبوح بما يعرف، لكن الشيخ  
ظل صامئاً، وصمته كان يزيد آريوس ألماً.

لما وجد الشيخ ما انتاب آريوس من ألم، قال:  
- يا سيد آريوس، افعل ما تستطيع فعله قدر طاقتك، فأنت مطالب  
بالسعي، وغير مطالب بالنتائج، يكفيك شرف المحاولة!

زادت الوخزات والأوهام في عقل آريوس، فجواب الشيخ مريب، فما معنى  
قوله: "يكفيك شرف المحاولة!!" فقد آريوس أعصابه، قام وتعلق بتلابيب ثياب

الشيخ، قائلاً له:

- أقسمتُ عليك أن تخبرني، برب السماء أخبرني يا سيدي.

وأما باولينوس فقد كان يسحبه إلى الخلف بقوة من كتفيه.

يومها لم يكن آريوس يدري ما يصنع! هو لا يدري لماذا فعل هذا الأمر الجنوني! ومع كل هذا ظل الرجل الوقور صامتًا، فقط أغمض عينيه، وقد نزلت منهما قطرات من الدمع ببطء كأنما تشق طريقها إلى طريق مجهول. رفع آريوس رأسه، فوجد حمامة ترفرف بجناحيها فوق رأس الشيخ الأسيني، ثم ما لبثت أن وضعت مخالبها الرقيقة تقبض على كتفيه، في مشهد غريب، سرت طمأنينة في نفس آريوس عندما تذكّر القديس لوسيان، وهو ينصحه بنفس النصيحة، لكن الطمأنينة تلاشت سريعًا عندما بدأ الشيخ الأسيني يغادر المكان؛ ليقترّب من النهر، ثم مشى على صفحته ليعبر الجانب الآخر، شعر بقشعريرة تجتاح جسده، تسارعت دقات قلبه أكثر فأكثر، كاد يقفز من بين ضلوعه، لكنه أدرك ساعتها أنه قديس!

\*\*\*

بعد مُضيِّ وقت طويل استعاد آريوس عافيته، وبات مستعدًّا للانطلاق على الدروب من جديد، فقد أسهم نومه الطويل ودفء كنيسة باولينوس، وحليب الماعز الذي سقاه إياه الخادم العجوز، في الإسراع من استرداد قوته، وكاد ينسى كل ما كان قد مرَّ به، سيره المجهَّد إلى جانب باولينوس، والليل الحزين المُصقع تحت أشجار الصنوبر، والأيام التي أمضاها في البراري، ولكن على الرغم من أنها تقريبًا نُسيَت إلا أن شيئًا منها بقي.

فكر لوهلة أن يترك كل شيء، أن يترك حياة الرهبنة، وتساءل هل يجب عليه أن يترك حياة الرهبنة ويتزوج؟! وهل كتب الله حقًّا على المتديِّن بأن يكون راهبًا طيلة عمره؟ أليس هذا ضد الفطرة التي جبل الله عليها الإنسان؟ حدّث نفسه بزفرات مكلوم: أليس كان من الممكن، في الزمن السحيق أن أظفر بتلك الفتاة التي دخلت قلبي لأول مرة رأيتها؟! أم إنني كبرت الآن على فكرة الزواج تلك؟! ثم يعود ويحدث نفسه:

- لعلها من جملة الأعراف الكنسية التي تم فرضها قسرًا!! ولمَ لا؟ وهذا الأسيني البسيط قد شككني في كل شيء، وطعنتني عدة طعنات لا تلتئم أبدًا!! ثمة تساؤلات لعينة كانت تدور في عقل آريوس، وتذكَّر السيد سقراطيس الفيلسوف وتشكيكاته في الله وفي فكرة الأديان، فكر أن يترك الأمر كليًّا ويعيش كواحدٍ من الناس، كإنسانٍ بسيطٍ مبدعٍ يستمتع بكل لذات الحياة، بعيدًا عن هذه السجون الضيقة، كانت تلك الأفكار اللعينة قبل أن يصل قُبيل شروق الشمس المزهرة إلى نهاية رحلته، إلى نيقوميديا حيث يقطن صديقه يوسابيوس.

استقبله يوسابيوس بالتراحيب الحارة والعناق الدافئ، وقَدَّم له طعامًا؛ ليطفئ لهيب الجوع الذي أمسك به منذ أتى إلى المدينة، قصَّ عليه آريوس رحلته إلى باولينوس، ولقاءه بالشيخ الأسيني، وعندما حكى له صعاب رحلته الشاقة، جرى بينهما خيل الكلام في كل مضمار، وتذكرا معًا مدرسة القديس لوسيان، وحياتهما القديمة لما كانا في ريعان شبابهما.

- يا ليت أيام مدرسة القديس لوسيان تعود! لكن هل يعود الزمان إلى

الوراء؟

- وددتُ أن لو كان الزمان يعود يا يوساب.. أكلنا معًا.. صلينا معًا.. درسنا معًا.. بل وهرينا معًا تحت برد الشتاء! ما انتهت الذكريات ولن تنتهي، غير أنني أراها على نحوٍ جديد كلما مضت السنون، وكلما استرجعتني من الماضي البعيد.. وها هو عَقْدُ التذکر ينفرط مني، ويكاد خيط التدبر ينقطع، أما حكايتنا مع كنيسة أنطاكية والقديس لوسيان لا تنقطع.. لا تنقطع أبدًا..

أتذكرُ رفقةَ قلبي وقد بيَّنت الدنيا بيننا الفرقة، وأبانت الأيام وداد لقيانا، وجافت عن لُطفِ أحاديثنا وتعاهدنا الكلام، أتذكرُ يا يوساب، أتذكرُ؟! آه يا يوساب بينما أضحى كلُّ منا في تيه دنياه مشغولًا؛ ينتابني الابتئاس ويحتاجني الشوق، تتآكل جدران الذاكرة بفعل الشَّطَفِ في خاطري، والجَدْبُ بدَّ بطحاء قلبي، بلا حيلةٍ يغتالني الشعور، وأنا في تيهٍ أسألُ عن تُودَّةٍ وسُكُونٍ.

منذ أن دخلتُ الإسكندرية، وأحسست بأن الدنيا قد انبسطت لي بزهاؤها وبهائها، واطبثُ على الدرس، أحبني الناس حبًّا جمًّا، وما زالوا يحبونني.

لكن بعد ما لاقيته من الأب ألكساندر؛ انقطعت منذ ذلك اليوم عن متعة حياة التنسُّك والدرس التي عشتها سنواتٍ طويلاً، يريد منا ألكساندر أن نقول إن الابن مثل الآب أبدي!! لا نستطيع أن نسمع هذه الأقوال غير التقية ونقف مكتوفي الأيدي!

تنحج يوسابيوس ممتعضًا، ثم قال:

- إنها الفلسفة!! هي الفلسفة يا آريوس.. لعائن الله عليها تترى!

- ولماذا نتهم الفلسفة يا يوساب؟! الفلسفة هي الحكمة، والحكمة هي أصل الوجود، ليس الخطأ في الفلسفة، إنما الخطأ فيمن يحاول توظيفها لخدمة آرائه وأهوائه، لقد أمسينا نعاني تلف الحياة لاضطهادٍ أنزله الأسقف ألكساندر بساحتنا، وما من حجرٍ إلا وقُذفت به وجوهنا، ولفظونا كملاحدةٍ خارج المدينة، وأما الشعب الذي يناصرنا فلم يعيروه أي أهمية.

لقد كنت في همٍ ونكد وضيق، ولقد زاد الشيخ الأسيني من همومي وضيقِي، ولم يرو غليل معرفتي! لقد خرجتُ من عنده والأفكار تدافعني، وعقلي يكاد أن ينفجر.

كان داخلي مضطربًا إلى حد فقدان الزمان والمكان كل معانيهما، أظن أنني لم أفهم أي كلمة من كلماته التي قالها بعد ذلك، حتى صارت الكلمات

جميعها فجأةً لا تزيد عن همهمات تسمعها أذني، كل ما فعلته أنني واصلت  
سكوني وجمودي في موضعي، حتى الدموع نفسها تحجّرت في عيني، وأبت  
أن تسقط، كان ثمة صوت فقط يعصف بداخلي.

بينما أنا كنت في عالم آخر منفصل لا يستطيع أحد أن يعرفه، صرت كالبناء  
الشاهق الذي انهار في ثانية، كدقات طبول سكنت فجأة، وبقي طنين صوتها  
يتردد في أذني.

أصرخ من مكنونات نفسي:

- آه يا إلهي.. آه يا ملاذي.. يا إله السماوات والأرض.. أنت تحكم بين عبادك  
فيما كانوا فيه يختلفون.. أنت المبتدأ فليس قبلك أحد، وأنت المنتهى فليس  
بعدك أحد، لا نهاية لمجدك.. لا بداية لملكوتك ولا منتهى.. أرسلت رسلك  
بالهدى ودين الحق؛ لتهدي الناس إلى طريق الخلاص.. واجتالتهم الشياطين  
عن ذاك الطريق النقي.

\*\*\*

صارت الشهور أعوامًا واللحظات أيامًا ثقيلة، الأوقات تمر ببطءٍ شديد، قبيل المجمع المرتقب، فالجميع ينتظره على أحزَّ من الجمر، وكان آريوس قد عاد إلى الإسكندرية، وعاد معه التوتر والقلق من جديد، إلا أنه كان يتجنب الحديث مع الأب ألكساندروس، فعند الاجتماع بينهما كان يواصل كلُّ منهما صمته وشروده، وعدم اكترائه بصاحبه، ويمر اللقاء دون أن ينظر أحدهما في وجه الآخر.

إلا أنه في إحدى الليالي المقمرة، تنهى إلى مسامع آريوس صوت ألكساندر الخشن الآتي من الأعلى، كان الأب ألكساندر يحاول النزول جاهدًا على السلالم الحجرية شديدة الانحدار، التي تلولت حول الكنيسة، فالدرجات كانت مُقطعة بحيث تكون مرتفعة وضيقة، ولم يجد آريوس بُدًّا من مساعدته، اندفع إليه وأخذ بيده إلى أن وصلا إلى مكتبته الخاصة.

شكره ألكساندر على حسن مساعدته تلك، وهمَّ آريوس بالانصراف، لكن استوقفه العجوز بصوت ودود قائلاً: - أنت حالم يا آريوس وصاحب رؤى خادعة، صدقني يا صديقي حتى الرؤى النقية الصافية يمكن أن تخدعنا، إنني لا أثق بها، نصيحة أب مشفق عليك ألا تحلم كثيرًا، والآن أيها الأخ الحالم، هل تستطيع أن تفهم كيف لي أن أشعر بكل هذا في قلبي تجاهك؟

لم يُجب آريوس بشيء، فقط فضَّل السكوت، حينها أشعل الأب ألكساندروس المصابيح الزيتية الكبيرة، ومن ورائها رأى الحجاب الحريري الشفاف الوامض الذي يتدلى عند الشرفة، ثم قال: - عفوًا سيد آريوس، كما ترى أنا رجل كبير ولا أحب هذا الجدل الفلسفي، دعنا نتكلم في الواقع الذي نعيشه، أنت رجلٌ ذكي، فيلسوف، متقد الذهن، شاعر، شرس المناظرة مع الوثنيين والدهريين، لكن يبدو أنك لا تمتلك خبرة كافية لتعلم كيف تسير الأمور.

التقط ألكساندر أحد الكتب من مكتبته، ثم عاد ليقول: - يا سيد آريوس، إن السفن عسيّر أن تبحر بغير أشرعة، والأمور ليست دائمًا تسير كما نحبها نحن أن تسير، ثمة أمورٌ قد تغيّرت في الكنيسة، فالبابا أرشيلالوس الذي كان يساندك قد تنيح.

وقف آريوس قبالة ألكساندر ثم قال: - إن تنيح أرشيلوس، فمعنا معظم الآباء يساندوننا في شتى بقاع المسكونة.

ضحك ألكساندر ضحكاً دافئة وقد بدت عليه هيبة الشيخوخة، قبل أن يغلق كتابه الذي يقرأ فيه، قائلاً: - ظننتك أذكى من هذا، إن السياسة لا تعترف بجمهور الناس، إنما تعترف بمراكز القوى، ألم أقل لك أنك تفتقر إلى الخبرة! يا سيد آريوس ليس في هذه اللعبة إلا ستة أقانيم: - أنا وأنت ويوسابيوس النيقوميدي، ويوسابيوس القيصري، وهوسيوس، والإمبراطور، وفقط! أما بقية الآباء فوجودهم مثل عدمه.

وقف ألكساندر وظل يمشي ببطءٍ بخطىٍ مكتومة حول آريوس، واضعاً يده على كتفه، قائلاً: - أما أنا وأنت فنحن أطراف النزاع، وأما قسطنطين فهو رجل حرب وثني لا يعرف شيئاً عن المسيحية، وأما القيصري فهو دمية في يد الإمبراطور، إذا أمره أن يسجد لجوبيتير سيسجد، وأما هوسيوس فهو مع كنيستنا وقسطنطين تابع له.

قال ذلك بينما كان آريوس في ذهولٍ تام مما يسمعه، استدار الأب ألكساندر بعدها نحو المينورا يحدق في مصابيحها المتألقة قبل أن يغمض عينيه تدريجياً وكأنه يدخل في نشوة، أصبح الصمت حولهما أعمق وأثقل، ثم قال بصوتٍ صارم: - يجب أن تعلم أن كنيسة الإسكندرية التي بناها "ثؤناس" ليست مرتعاً للهرطقات الغنوصية، عليك أن تخلع ما تعلمته من القديس لوسيان على باب كنيستنا!! كنيسة بوكاليا!

\*\*\*

تعاقت الأيام، وولّى الصيف، وتصرّم الخريف، وانقضى جانب الشتاء... شهوّر متوالية مترعة بالتوتر، وتجهّز الجميع إلى السفر إلى مدينة نيقية، فنداء الإمبراطور لا محيص منه، ابتهلت الأيدي المؤمنة بالدعاء إلى مولاها، واكفهرّت صفحة السماء، وهبت ريح رطبة، كانت السفينة تتهادى على صفحة البحر بدلال تحت أشعة الشمس اللامعة، والأساقفة واقفون عند المرفأ ينتظرون صعود السفينة على شواطئ الإسكندرية.

وقفت ليندا تراقبهم مع زميلاتها الراهبات وهم يركبون من الميناء الشرقي، شدّت على أيديهم وتمنّت لهم رحلة موفقة، ثم اتجهت نحو آريوس، ووقفت قُبالة وراحت تتأمل في تقاطيعه النبيلة، ونظرته التي تنم عن شهامة وشجاعة ورجولة، شعرت بالحنين إليه، وبحبّ جارفي لم تشعر بمثله قط، وشبكت يدها في يده، وضغطت على يديه بولاء، في حين هو تركها حينما سمع ناقوس السفينة، وأصابها تنزلق من يده شيئاً فشيئاً، لترك يدها معلقة في الهواء، ليلحق بهذه الرحلة ويُلَبّي نداء الإمبراطور.

وبعد أسبوع من الإبحار تقريباً بدا الساحل كشرطيّ داكن يفصل الأفق، وشرع الربان في تجهيز السفينة للرسو، وسرعان ما وصلت بقية السفن المُبحرة من شتى بقاع المسكونة.

فيحاء القداسة تجلّت تحت سماوات نيقية، روائح قساوسة وقديسين انتشرت في الأرجاء، فقد جاء الأساقفة من كل حذب وصوب من بقاع الدنيا براً وبحراً، ولعل الأرواح الطاهرة وغير الطاهرة قد أتت مسافرة أيضاً من كل الدنيا؛ لتشهد هذا الحدث المشهود، كل عظيم في قومه سواء كان فقيراً أو غنياً، كل رجل مملوء بالنعمة، كل قديس يقرأ كلمة الرب.

بعضهم تُحنى لهم الجباه؛ تقديرًا لعلمه وفصاحته ووعيه للكتاب المقدس، وبعضهم تعرف في وجوههم مسحة الزهد وجلال الخشوع، وآخرون جمعوا هذا كله، ومن الرجال من مهر في الجدل وبرع في النقاش.

ولكن هذا لم يحلّ دون ارتحال بعض الأساقفة إلى هناك؛ لقضاء حاجياته وشؤونه الخاصة بعد أن وجدها فرصة سانحة؛ ليتخلص من حَيْفٍ نزل به أو ظلمٍ قد آلمه، وغيرهم راح يلتمس أخطاء الآخرين ليقدمها في شكاية إلى

الإمبراطور؛ طالبًا منه العدل والقصاص، في حين راح آخرون دون أن يعوا من أمر ما ذهبوا إليه شيئًا.

أما يوسايبوس القيصري وهو الأسقف الذي كان يحتل المكان الرئيسي عن يمين الإمبراطور، نهض وخاطبه شاكرًا حسن صنيعه الذي أسداه للدين القويم، مثنياً على فضائله وعظيم خِلاله وسجاياه.

انتهى يوسايبوس من إلقاء كلمة الافتتاح والترحيب بالإمبراطور، وظلت القاعة هنيهة من الصمت تعلقت فيها كل العيون بالإمبراطور، فقد كانت تلك هي المرة الأولى منذ بَشَّرَ المسيح بدعوته التي يحظى فيها رجال الدين المسيحي بالمثل جماعَةً في حضرة الإمبراطور، وما لبث قسطنطين أن قطع هذا السكون وراح يردد في نغمة هادئة:

- "أعزائي.. لَكُمْ داعبني الأمل من أمدٍ أن أحظى برؤياكم، والكل متحد، والآن قد تحقق الأمل! أشعر لزامًا عليّ أن أتقدم بالشكران لإله الكون، فقد أنعم عليّ بخيرٍ جديد، ومنحني من البركات ما فاق ما سبق، فها أنذا أشهدكم وقد جمعكم على الوحدة وئام عاطفةٍ واحدة، إلى الله أبتهل أن يكف أيدي السوء والفحشاء عنا، وألا يسمح لخصمٍ أن يُعكر صفو سلام بلدنا السعيد، وإليه أضرع بعد أن زالت بيد الرب مخلصنا، بغضاء الأباطرة الطواغيت الآثمين، ألا تقدم نفس أمارة بالسوء تحيك المؤامرات الدنيئة؛ من أجل تعريض شريعة الله للتجديف والزيغ، فالصراع الداخلي في الكنيسة -يُعد في رأيي- أشد خطرًا من أي حربٍ أو نزاع.

أيها السادة! إن خلافتنا هذه تبدو لي أكثر فاجعة إذا ما قورنت بأي خطرٍ خارجي، وعليه لما كنت بمشيئة الرب وعونه قد قهرت الأعداء، قدرت أنه لم يعد باقياً إلا أن أقدم فرائض الشكر لله والثناء، وأشارك بهجة هؤلاء الذين رد إليهم الله الحرية بي.

والآن قسطنطين يحدثهم عن الأسباب التي حفزته إلى توجيه الدعوة إليهم للاجتماع، وأمله الكبير في أن تلتقي آراؤهم على قولٍ واضحٍ لا خلافٍ عليه، حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام. وعلى رغم أن الحضور كان جلّهم من الشرق الذي يتحدث اليونانية، فإن قسطنطين اهتبل الفرصة وبدأ يُحدّثهم باللغة اللاتينية؛ ليؤكد رسمية اللاتينية كلغة للإمبراطورية.

أعطى قسطنطين بنهاية حديثه إشارة البدء لرجال الكنيسة في عرض قضاياهم، ولكنهم بدلًا من أن يبحثوا ما لأجله دُعوا، راح بعضهم يكيل الاتهامات للآخر، مقدمين أوراق الشكاوى ضد كنائسهم، وتحولت القاعة إلى ميدان يتبارى فيه المتخاصمون.

فوقف الإمبراطور بذلك على حقيقة لم يكن يتمنى رؤاها، وتبين له أن أمل وحدة الإمبراطورية عقديًا، ليس بالسهولة التي طواها به سياسيًا وعسكريًا. وبات له أنه كفارس مغوار استطاع انتزاع الإمبراطورية، أسهل بكثير من البت في مسائل فكرية، وأحس بأنه قزم صغير أمام هذه المسائل التي ظن أنها لن تصعب عليه.

مرت الساعات الطوال والإمبراطور يشهد كل ساعة مزيدًا من أوراق الشكايات التي تأتيه، فلما هاله ما رأى وفاض به الكيل، حدد يومًا وأمر بالاتهامات وردودها فجيء بها، ثم راح يتفَرَّس وجوه الحاضرين ويرقبهم واحدًا واحدًا مخاطبًا ضمائرهم:

- "تُرى.. ما كل هذا؟! هذه الشكاوى يؤتى بها يوم الدينونة للعرض والحساب، يفصل فيه القاضي الأعظم، أما أنا فلستُ إلا بشرًا مثلكم، وإنه لشُرُّ لي أن تشملني في كل الأمور صلاحية! فما بالكم وكل الخصوم رجال الله!! ما كان لهم أن يقفوا وإياهم طرفي نقيض، فلتقتدوا بالمحبة السماوية ورحمة الرب، وليحلَّ بينكم وئام، إذًا... لُطرح على التو شكاياتنا، ولتُعْطِ كل اهتمامنا من أجله، ذلكم الإيمان".

أصدر الإمبراطور أمرًا، فتقدم أربعة ضخام الجثة إلى الأمام، حاملين صندوق الشكاوى، فجمعت حصيلة الأيام من الاتهامات وأطعمت للنيران التي ظلت تتراقص إلى أعلى، أما قسطنطين فقد أغمض عينيه، وكأنه يستجمع قواه واستنشق أنفاسه، ثم فتح عينيه ببطء مستقبلاً الآباء قائلًا:

- لنناقش بالغد في قضيتنا التي جمعتكم من أجلها.

\*\*\*

في اليوم التالي بدأت مراسيم المجمع، والنيران المشتعلة من الشمعدانات المعلقة على جنبات البهو؛ تنذر بانطلاق نيران التصادم المتوقع أن يكون، وبعد مرور نصف النهار ابتدر قسطنطين قائلاً:

- أيها الآباء المُكرمون! أنا على يقينٍ أن منبع الجدل المائل هو ذلك: أنت يا ألكساندر عندما طلبت من القسيسين إبداء رأيهم حول أمرٍ بعينه يخص الناموس، أو بالأحرى يحسن قولِي، عندما سألتهم عن قضية لاهوتية ليس من ورائها طائل!! فإنك حينها يا آريوس أصرت بطيشٍ وتهور على أمرٍ ما، وها هو بينكما الخلاف قد نشب، بعد أن أغلقتما حق الأخوة بينكما، ووقعت الرعية المقدسة في تمزق حزبي ولم يعد للجسد الواحد وجود.

والآن.. أكلكما على استعدادٍ لثُبديا من الرفق والتحمل قدرًا واحدًا، فتقبلا نصح رفيقٍ لكما يقدمه بارًّا قويمًا؟!

هكذا ألقى قسطنطين على ألكساندر وآريوس تبعة الأحداث، وحمّل إياهما دوافع صراع كان من الممكن تجنُّبه لو أن آريوس أغلق على الرأي الحر فكره، ويتساءل الإمبراطور:

- "كيف يا ترى يكون نصحي"؟!

ثم تابع قسطنطين قائلاً:

- "خطأ في البدء أن تُطرح القضايا على هذا النهج، والخطأ الآخر في نقاشها، فمسائل الجدل هذه هي وليدة فراغ أسيء استغلاله! حتى ولو قُصد منها رياضة الذهن، ينبغي أن تظل حبيسة الأفكار، بعيدة عن آذان الجموع، أليست القلة هي التي تعي تلك القضايا؟ فهي أمور علوية إدًّا! ذات طبيعة خفية، ولنقل إن واحدًا قادر على إدراكها، فكم يا ترى من العوام يستطيع أن يلم بها؟ وحتى هذا الذي يعيها، تراه لا يحيد عن سويِّ الصراط؟! يتحتم علينا من ثم أن نقصد القول؛ لأننا لا نقوى وطبيعة الحال على أن نفسر تلك المسائل، ولئن استطعنا إلى ذلك سبيلا، فمَنْ مِنَ السامعين عساه أن يفهم؟ فالرعية لسببٍ أو لآخر قد تُلحد، أو تنشق عن سويِّ الإيمان".

ثم أفصح الإمبراطور عن دفين غيظه، وراح في لهجةٍ خالية من كل وقار يكيل للرجلين أقذع العبارات، يحملهما تبعة الفوضى ويحذرهما من مغبة ما

ورطاً فيه نفسيهما والجموع، قائلاً:

- "ولنر هل أصبنا حيث اختلفنا في كلمات العيث والغباوة أن نعادي بعضنا بعضاً، وتمزقت جماعتنا لخلافٍ أصابنا بكما!! أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاطٍ كم هي تافهة! كم هي وضیعة! سوقیة هي! وخلة حمقٍ صبياني، هي ضد حصافة الأكليروس والعقلاء!! ذلك حديث أقوله لكم دون رغبةٍ في قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كان كُنه طبيعتها، وفيما يختص بشجاركما على أمور لا جدوى منها، فعليكما إن صعب الوئام، أن تقصرا تلك على دواخل فكركما والعقل، أعيدوا إليَّ أيامًا خوالي، وليالي غفت فيها جفوني، حتى ينالني بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينه الحياة".

\*\*\*

ألقى يوسابيوس القيصري مطران القيصرية خطبة الافتتاح، وياشر الآباء عقد جلسات العمل، وطلبوا آريوس لسماع كلمته.

وصعد بخطى وقورة درجات المنصة القليلة ووجه إلى أنصاره إشارة تحية ضافية منذرة لإسكات الهمهمات، كان آريوس مُنتصبًا، جامدًا، ثابتًا، كنجم في وسط سحابة من النور، وعيناه الخضراوان مملوءتان لا تدري بأي خبثٍ هادئ، فكأنهما تضيئان العالم الأخلاقي، بل تضيئان هذه القاعة العجيبة.

وذلك قبل أن يُلقى أعجب الخطب التي لم يُسبق إليها، بكلامٍ طويل ذي بلاغةٍ وحكمة، لم يسأم من حديثه أحد، فهو لطيفٌ دمث، وهو مُحدّث ذلق اللسان، يعرف من أين تؤكل الكتف، وفضلًا عن ذلك، فالجميع يعرفونه ويحبونه..

في ظل هذا التطاحن كانت الأميرة "كونستانيا" وإشبينها الكاهن "يوستانيوس" في الشرفة العليا يستمعان باهتمام إلى خطبة آريوس وشعرت بشعورٍ جارف تجاه آريوس التي شعرت بصدق كلماته التي كانت تنزل على صدرها كالماء البارد فيروي غليلها، وكان يوستانيوس واقف بجوارها تعلوه ابتسامة مُشرقة وهو يستمع إليه، أما هي فبدت كزهرة الأقحوان التي تضيء القاعة كلها.

لم يلاحظ أحد وسط هذا الصخب، أن كاهنًا يُدعى نيكولاس كان يتسلل الصفوف كثعبان أرقم يزحف وسط حشائش كثيفة في حذر، حتى وصل إلى

آريوس ثم صفعه على وجهه بأقوى ما يمكن للإنسان أن يفعل، ثم أطلق ضحكة عالية وكأنه يُكافئ نفسه بما فعل، كان ما حدث كافيًا لينطلق أربعة رجال مسلحين صوب الرجل ليقبضوا عليه بعدما أشار إليهم قسطنطين. زفر آريوس في ضيق ولمعت دمعة رقيقة في عينه كأنها آتية من أعماق نقيّة لم تتلوث بعدُ:

- أيها الامبراطور العادل: أمن العدل أن أُضرب وأنا أمام عرشكم المُبجل؟ إذا كان له قول فليتكلم بكبيرة الآباء، وإذا كان جاهلاً فليسكت كما سكت الذين قبله، لماذا يضربني أمام عرشكم؟

شعر قسطنطين بالخجل مما حدث، ورقّ قلبه لآريوس، فضرب الطاولة التي أمامه وقال للآباء:

- يا رجال الله، إن القانون الروماني يأمر بقطع يد كل من يضرب أحدًا أمام الإمبراطور، وأما أنا فأترك هذا الأمر لما تأمره محبتكم. أجاب هوسيوس:

- فليأذن لي الإمبراطور ألا تقطع يده بل ليخرج من المجمع ويبقى في السجن حتى نهاية المجمع وتتم المحاكمة فيما بعد. هدأت القاعة، وانبسبت أسارير قسطنطين رضاءً بما قال هوسيوس، ثم أشار إلى آريوس لاستكمال كلامه.

استأنف آريوس كلامه ببلاغته المعهودة، وصفق له الجميع بحرارة، كانت المجادلات الحامية قد بدأت بعد انتهاء آريوس، والوجوه الشاحبة تسلل إليها الاحمرار، والأنوف اكتست بلون أرجواني، فتهللت الوجوه ولمعت العيون، وفي بدء هذه النشوة لم تتجاوز المجادلات حد الأدب والأنس، ولكن بعض كلمات السخرية أخذت تنطلق من أفواه الحاضرين، وبوداعة رفعت النميمة رأسها الذي يشبه رأس الأفعى، وأخذت تسمع صوتها، كان بعض المرآئين يستمعون بانتباه إلى الأحاديث، ليثبتوا وجودهم.

وقام الأب ألكساندروس بطلب التماس أن يتكلم مساعده الشمساس أثناسيوس نيابةً عنه، فهز قسطنطين رأسه مُشيرًا بالموافقة، كذا كان المشهد الغريب الذي أذهل الشاب أثناسيوس الذي لم يتعود على الخطابة، وقد كُفَّ بمسؤولية خطيرة، وفي أهم مجمع كنيسي، والجميع الآن ينتظرونه،

ويرمقونه بأعينهم ذات النظرات الحادة.. وكلهم يتساءلون: كيف لشماسٍ صغير أن يتكلم في حضرة الكبار.

صعد أثناسيوس المنصة بعدما كانت تهدده فكرة الموت وصور أخرى مخيفة، يا لها من لحظاتٍ عصيبة!، لكنه وفي النهاية تمالك نفسه وأغمض عينيه، وتنفس الصعداء ، ثم انطلق لسانه كفارسٍ انطلق يشق طريقه وخطب خطبة لا تقل بلاغة عن خطبة آريوس، وتعجب الجميع من ثباته على رغم حداثة سنه، ولم يُخيب آمال الأب ألكساندر فيه، الذي انفرجت أساريره للتوّ رضاءً بما قال.

حل صمْتُ قصير بدا فيه يوسابيوس القيصري غارقًا في أفكاره ثم مد الإمبراطور يده، قائلاً:

- إلى ماذا توصلت حتى الآن؟

أجاب القيصري:

- لست واثقًا أن لديّ الكثير لأضيفه، فإن كلام الطرفين له عندي وجهة....

قاطعهُ قسطنطين في غضبٍ شديد:

- يوسابيوس!! يبدو أن اختياري لك كان في غير محله! إن الوضع لا يحتمل إمساك العصا من المنتصف، يجب البت في هذا الأمر الليلة، وإلا سأضطر أن أحكم أنا بينكم.

في تلك اللحظات الحاسمة قال هوسايوس أسقف قرطبة:

- فليسمح لي سيدي الإمبراطور بالحديث معه على انفراد.

أحس قسطنطين من نبرة كلام هوسايوس أن لديه حلًا ناجحًا، لذا تحرك على الفور مصطحبًا هوسايوس إلى مكتبته الخاصة، وبينما هما يعبران الردهة شبه المظلمة ذات الأعمدة المضيئة، أفصح قسطنطين عن فراسته تجاه هوسايوس قائلاً:

- يبدو أن مستشارنا المجلّب السيد هوسايوس يُفكر في حيلةٍ ما لحسم المسألة لصالح أحد الطرفين، وإلا لكان الكلام أمام الجموع وليس على انفراد.. هل صدق حدسي سيد هوسايوس؟!

أحس هوسايوس بالاضطراب قليلًا من المفاجأة، لكن سرعان ما أبدى صمته ليستجمع قواه، قائلاً:

- لا أشك للحظة فيما يتمتع به سيدي الإمبراطور من حسن دهاءٍ وفراسة،  
وقد تفكرت قليلاً فيما يحدث الآن من نقاشٍ حاد.. إنني أفكر في..  
قال هوسيوس وهو في غاية السكينة:  
- الحل يكمن في " الهموسية " (23) .  
قسطنطين متعجباً:  
- " الهموسية " !  
أجل هموسية تعني الاتحاد في الجوهر، وقد تعني التشابه في الجوهر، هذا  
أنسب حل لفصل النزاع.  
واطمئن يا صاحب الفخامة، سنعمل الليلة كخلايا النحل مع الآباء الحاضرين  
ونكتب الصيغة المقترحة، ونقترحها على فخامتكم غدًا بمشيئة الله.  
ابتسم قسطنطين، وقال:  
- على كل حال؛ أنا أثق بك.

\*\*\*

الحكم بين آريوس وألكساندر

"أحسستُ وخزًا في روحي، وبدا لي أن الأمر ليس بقليل في الأهمية، ومن ثم حدثني الرغبة في تقديم حل لهذا الشر، وعليه فقد دعوتكم للحضور، وإني إذ أشعر بارتياحٍ عظيم وأنا أشهد مجمعكم، لعلى يقين بأن آمالي ستغدو حقيقة إذا ما قُدر لي أن أرى وحدة قراركم.

يا رفاقي الأعزاء يا رجال الله.. يا أتباع من هو المُخلَّص والمسيح! بالله لا تتباطؤوا عن الوحدة.. لا تتوانوا ولتبدأوا على التو في نبذ دواعي فرقة شاعت بينكم، ولتمحوا ركائز جدالكم، وما ذلك إلا بأن تحتضنوا أغصان السلام، فإن فعلتم كنتم في ذات الوقت تسلكون طريقًا رضي عنه الرب العلي، وتقدمون لشخصي فضلًا كبيرًا!".

### بهذه الكلمات ابتدأ قسطنطين خطبته لليوم الثالث.

تقدم كاتب الإمبراطور يسير بخطواتٍ بطيئةٍ مُتكاسلة كأنما يسير على قشر بيض، ليتلو على مسامعهم بشكلٍ رسمي صيغة الإيمان المُقترحة، ووقف على المنصة مُمسكًا بيده رِقًا ملفوفًا من الجلد البنيّ الفاخر الذي ينسدل، ليكاد يلامس الأرض كلما أدار الملفوف ليقرأ المزيد، وابتدر في طرح الصيغة التي كتبها الآباء ليلة أمس، وظن قسطنطين أن هذه الصيغة ستلقى قبولًا من جميع الأطراف كما قيل له، وراح يقول: - مَنْ سيوافق على هذه الصيغة فله مكافأة مالية كبيرة وسيبنى له بيت، وستُسدد ديونه كاملة؛ جزاء ما ضحى وترك الأنانية، ونظر إلى مصلحة الجماعة من أجل الوفاق.

أما آريوس فلم يكن يعني المال له شيئًا؛ لأنه نادرًا ما عرف قيمته، لعله ما كان يحسن عدّ النقود يومًا ما، وما كان يعني له النفي شيئًا في سبيل الدفاع عن فكرته.

لذا فقد اعترض على الصيغة بكلامه العلمي المعهود.

قال قسطنطين: - هدوء.. هدوء أيها الآباء، هذه الإضافة يا سيد آريوس لا تعني أية صفاتٍ جدية أو تحول فكرة الابن لم يشتقَّ وجوده من الآب بانقسامٍ أو انبثاق، وأنتم تعلمون معشر الآباء، في الفلسفة الميتافيزيقية أن الطبيعة اللامادية المجردة من اللاجسدية لا يمكن بحال أن تخضع لصفات الأجسام من تحول وانقسام، يا إخوة هذه أمور ينبغي إدراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية

يصعب فهمها. وبهذا الشكل يُحل الإشكال بينكما.  
تباطأ آريوس وهو يحاول أن يستجمع قواه، ثم قال: - سيدي الإمبراطور  
هذا تلاعبٌ بالألفاظ، وظاهر الكلام لا يفيد هذا المعنى أبدًا.  
- أنت مجادل يا آريوس، هذا القرار لا رجعة فيه، وستكتب صيغة الإيمان  
الآن، ومن لا يوقع على صيغة الإيمان هذه، سيُعزَل من شركة الكنيسة،  
وسوف يُنفى بعيدًا.

قال يوسابيوس القيصري: - أعطه وقتًا للتفكير سيدي الإمبراطور.  
راح الإمبراطور يقرر قرار المجمع فيما يخص قانون الإيمان، وفيما يخص  
الميلتيين، أتباع "ميليتوس" فقد كان قسطنطين أكثر عقلانية، وقال: - فليُقبل  
في شركة الكنيسة ولتبنَ كنائسهم جنبًا إلى جنب كنائسكم. ولتكن الكنيسة  
الأم هي كنيسة الإسكندرية تحت الأسقف ألكساندروس.  
أما آريوس فقد ذهب حزبيًا، وهو يُجرر وراءه ساقية المُرتعشتين.

\*\*\*

خرج الآباء لمأدبة العشاء، واحتفالًا بالوحدة بين المسيحيين... أنارت  
المشاعل جنبات القصر وممراته، الستائر الحمراء الجديدة زينت الأروقة  
ومدخل مجموعة من القاعة الكبيرة، حيث حفل العشاء للنبل، ضاع شدو  
القيثارات وسط الصخب، وتمايلت الحسنات في دلال في ملابس تكشف  
أكثر مما تُخفي، يتبادلن الضحكات مع أصحاب الموائد العامرة.. بصنوف شتى  
من الطعام، وكؤوس كلما فرغت مُلئت من أباريق، وسرعان ما لعب الخمر  
برؤوس النبلاء والأمراء، فمنهم من يتأبط فتاة وآخر يحتضن إحداهن.  
كان قسطنطين حينئذٍ يحتسي الخمر بجوار سقراطيس الفيلسوف، وهو  
يتمايل وسط الوزراء والأمراء، في حين قال مستشاره المسيحي السيد  
هوسيوس مُبتسمًا، وقال: - سيدي قسطنطين.. الإمبراطور الأعظم... مُنقذ  
الحيارى.. مخلصنا من التيه.. لقد آن الأوان أن تتعمد بالمسيحية..  
وجد هوسيوس سكوًا تائمًا والجميع مشغول بنغمات الموسيقى الهادئة،  
وقسطنطين يمسك الكأس ويضع رأسه إلى الطاولة.. نظر إليه قسطنطين  
بطرف عينه، وقال: - اجلس يا هوسيوس، فنحن في راحةٍ واسترخاء تام بعد  
ضجيج مجالسكم تلك.

- عفوًا سيدي إن كنتم أزعجت جنابكم المعظم، فقد ظننتك ستفرح بالعماد بالمسيحية.

ضحك قسطنطين ضحكاً دافئة تملؤها الحيرة والميل إلى البكاء، ثم قال:  
- أصبح مسيحيًا؟! وهل أنتم متفقون على إلهكم سيد هوسايوس حتى أو من بدينكم؟! نعم قد أكون احترمت فيكم تمسككم بإيمانكم ونضالكم عنه حتى الموت، لم أستطع أن أخفي إعجابي بكم حينما كنتم تقدّمون إلى الوحوش الضارية بقلبٍ صلب، وبإيمانٍ ثابت، إلا أنني في الوقت ذاته لا يمكنني أن أو من بدينٍ لا أعرف إلهه حق المعرفة، إن خلافكم هذا يا هوسايوس قد سبّب لي قلقًا كبيرًا.. صدقني يا هوسايوس إنني أحب حياتكم تلك.. ما أروعها من حياة! لا أريد أن أعيش في عالم خالٍ من الكاتدرائيات، كم هو جميل هدوؤها البارد وصمتها المهيّب، في حاجة إلى الألحان المتدفّقة من الأرغن، وإلى دعاء المصلين المُقدس، في حاجة إلى قدسية الكلمات، إلى جلال هذا الشعر العظيم، ومع كل هذا أحتاج إلى الحرية.. إلى الثورة ضد كل أشكال القسوة؛ إذ لا قيمة لواحدة دون الأخرى، أحتاج إلى الانعتاق من كل إكراه على الاختيار! أخذ قسطنطين يهذي وقد اكتسى وجهه بإمارات مضحكة: - لم أعد أعرف أين أضع قدمي بين معبد جوبيتير وإله الشمس و... "أبانا الذي في السماوات... ضحك قسطنطين ببلاهة، وقال: - اشرب يا هوسايوس.. اشرب.

- "ولماذا ألوهية المسيح"؟...

### كان الصوت مُفاجئًا.

بدد السؤال المفاجئ الأجواء الماجنة التي كانت تحف المجلس، نظر هوسايوس إلى السائل باستنكار أشعره بالحرّج، ولاذ الجميع بالصمت..  
كان السائل هو "سقراط" الفيلسوف الذي ألح عليه بالجواب.  
تنهد هوسايوس ثم قال: - إن الله نزل إلى الأرض وتجسّد في جسد يسوع ليُعذّب ثم يُصلّب، كل هذا فداءً لهذه البشرية التعيسة التي أخطأ أبوها آدم وأكل من الشجرة.

قال سقراطيس: - تمثيل مسيحي للوجود الأزلي المتجسد في الجسد الفاني! أظن أن من قدم هذا التمثيل كان يحاول التعبير عن رؤية ميتافيزيقية، والآن تتخاصمون فيما بينكم حول ما إذا كان هذا التجسد واحدًا أو اثنين، أو

اثنين هما واحد، أو واحدًا هو اثنان.  
أجاب هوسايوس في غضب: - ومنذ متى كان الوثنيون والفلاسفة لهم الحق  
في إبداء رأيهم في الدين السماوي!  
ضحك سقراطيس ضحكة ملؤها الدعة، ثم قبض على لحيته، قائلاً: -  
دوغمائية ميتة!

ترك هوسايوس مزاح سقراطيس الثقيل! ثم توجه إلى الإمبراطور بالسؤال  
مرة أخرى!

- سيدي أنا لا أهدّي... لماذا لا تؤمن بالوهية يسوع؟  
قال قسطنطين وقد لعبت الخمر في رأسه وثقل كلامه، نظر إلى زجاجة  
الخمر، وقال: - إني أؤمن بالوهية هذه الزجاجة، وأصغي إلى أحاديثها أكثر  
وأكثر، نحن مدينون لأبينا الذي في السماوات بفنوننا، وروائعنا، وعلومنا، وقد  
نكون مدينين له ب.....

تنهد قسطنطين، وقال: - إيه يا هوسايوس! وددت أني لو رجعت إلى الأيام  
الخوالي في شبابي حيث الهدوء والسكينة!

\*\*\*

أرواح طاهرة في نيقية!

حانت من كونستانيا لفتة، وسنحت لها فرصة القول، لما جدت آريوس وحده في قاعة الاستقبال هائمًا في أفكاره، أقبلت عليه، ونظرت إليه بعينين متضرعتين، وكأن ناظرها نطقًا بإعجابها بثباته وتعاطفها لقضيته، فراحت تُخاطب آريوس، قائلةً له:  
- لقد أبليتِ بلاءً حسناً.

أما هو فقد تململ في مكانه قلقًا مُضطربًا، وسرت قشعريرة باردة في جسمه، وقال بصوتٍ متهدج:  
- فليحفظك الرب من كل مكروهٍ سيدتي.. فلتكن مشيئة الرب.. فلتكن مشيئة الرب.

همّ آريوس بالخروج، لكن دخول الأم هيلانة والكاهن يوستانيوس في تلك الهنيهة، واقترابهما منه، جعله يتريث مُستمهلاً ويتماسك مُتجلدًا.  
قالت هيلانة:

- ما الذي جعلك لا تصنع صنيع زملائك؟ لا سيما أن الإمبراطور سيكافئهم بأموالٍ طائلة.

أطرق آريوس في حزنٍ، قائلاً:

- يا أماه.. أصدقك القول، لقد كنت صلبًا على رغم كل هذا الحضور داخل القاعة المغلقة، نظرت إلى القاعة مرة أخرى، ولم أتعرف أي وجه من الوجوه، وأعتقد أنني في البداية لم أستوعب أن كل هؤلاء الناس يتزاحمون لرؤيتي.. لرؤية هذا الشاب الذي كان سببًا في عقد هذا المجمع.. وقد تطلب مني الأمر جهدًا كي أدرك أنني سبب هذا الهرج كله، للحظة قبل المجمع كان كل الناس معي، فما الذي حدث.. ما الذي حدث؟!

بيد أنني ما وجدت الوقت للتفكير؛ إذ بادر القيصري بالكلام، قال إن المداولات الفعلية ستبدأ، وإنه يعتقد أن ما من حاجة إلى تذكير الحضور بالتزام الهدوء وعلى حد قوله، إنه هنا ليُدبر المرافعات، دون تحييز إلى أي طرف، حول قضية يريد أن ينظر فيها بموضوعية، وسيتم الأخذ بالأغلبية في توافق وروح العدالة!!

فيا الله على عقيدة يتم التصويت عليها.. ما قيمة المال يا سيدتي إذا باع

الإنسان ما يؤمن به؟ إن قيمة الإنسان في الدنيا هي ما يحمله من أفكار سامية يؤمن بها ويناضل عنها، فإذا تخلص عن إيمانه، فكأنما قد باع نفسه بثمنٍ بخس.

حل الصمت للحظات، ثم ابتسمت هيلانة، وقالت:

- آه يا آريوس.. كم هو جميلُ الثبات على تلك المبادئ التي نؤمن بها، هنيئًا لك أيها الأب المبارك، كلنا معك بقلوبنا..

أما كونستانيا فقد ألجم الكلام لسانها، وشلَّ حركتها وكبَّل إرادتها، هذه الكلمات الراسخة التي تدل على ثبات قائلها، أما معلمها الراهب يوستانيوس فقد كان يقف بجوارها ممسكًا بكلتا كفيه، وقد أشرقت على وجهه ابتسامة قد أنارت وجهه، فرحًا بكلام آريوس.

- "وأنا معك أيها الأب آريوس".

كان الصوت للقائد كريسيبوس الذي دخل على حين غرة!

تبسم كريسيبوس نصف ابتسامة، ثم أضاف:

- حقيقي يا سيد آريوس لقد أعجبنى صمودك، ونضالك عن فكرتك، لم تخف من البطش.. لا أعرف شيئًا عن خلافاتكم تلك، لكن لقد أعجبنى عدم تخليك عن فكرتك.. ولقد سقط من نظري الكثيرون ممن تخلوا عن آرائهم فجأة لما علموا بتلك الامتيازات.

- أقدّر كلامك سيدي كريسيبوس ومشاعرك تجاهي.

قالت كونستانيا وجعلت تتردد في مكانها متململة:

- يا سيد آريوس.. إنك إنسانٌ حقيقي!

أحنى آريوس هامته باحترام، وتحوّل عنهم، والأفكار تدافعه، فرحٌ بهذه الأرواح الطاهرة التي شدت من عزمته، وحزين على إخوانه الذين قبلوا تلك الصفقة!

هكذا انتهت مهلة التكفير التي أعطاهها له الإمبراطور.. وقد حُكِم عليه بالنفي إلى مدينة تريف بفرنسا، والغمُّ يعتصر فؤاده، وهو يجرُّ أذيال الإخفاق والخيبة والخذلان.. ولكن إلى حين!

\*\*\*

حزن وألم!

اجتاحت كونستانيا موجة عارمة من الحزن، وانهمرت الدموع من مقلتيها غزيرة، وهي تفكر بالمظلومين.. طغى عليها في هذا الحزن سرور مفاجئ لما تذكرت موعود الرب، لكنها شعرت في قراراتها بأن سرورها هذا يشوبه ألمٌ غامض، كأنه دس السم في الدسم، فما هو هذا الشيء يا تُرى؟ لا تدري.

لمحت كونستانيا الإمبراطور فانتصبت واقفة واهتمت بإشعال القنديل بيديها الشفافيتين الورديتين، فانعكس ضوءه يتلألأ على وجهها الجميل التقاطيع الذي توحى كل جارحةٍ من جوارحه بالبراءة والمثالية.

اتجهت إليه لم تستطع أن تخفي ما يختلج في صدرها تجاه ما حصل في نيقية، ولم لا؟ وهي المؤمنة التي تعلمت على يد القسيس يوستانيوس.. لقد حدّثته بكل شيء وهو يسمعها، وطلبت منه أن يعدل عن قراره!  
قال قسطنطين:

- بأي حقٍ تطالبين هذا مني؟! هل شكاك آريوس وأتباعه؟ لا تضطرينني إلى حبسك في هذا القصر!

ارتطمت كلماته على نفسها كالسكاكين، كان أول مرة يكلمها هكذا. إن الشعور بالخوف والشعور بالكرامة الجريحة سرعان ما حلّا على وجهها. وهو لا يتوقف عن إهانتها، حاولت مرارًا أن تنهض وأن توقفه عن الاسترسال في الحديث، لكنها حين أنهى كلامه قد انتبهت إلى الأقوال المهينة الجارحة التي تفوه بها، وإلى الجهد الرهيب الذي كان يبذله في صدّه لها.

بدا على المسكينة انصعاق كامل على أنها وثبت عن كرسيها ومدت إليه ذراعيها، وهي ترتعش ارتعاشًا شديدًا دون أن تجرؤ على الاقتراب منه بعد. شعر قسطنطين بقلبه يذوب عندئذ في صدره، ثم قال في نفسه:

- كم لاقت هذه المسكينة الكثير بسببي، فقد زوّجتها لمصلحتي السياسية.. ثم قتلّت زوجها.

كان يشعر بالذنب والمسؤولية تجاهها، انتشل نفسه من تلك الأفكار وهُرع إليها وأحاط عنقه بذراعيها برفق وأخذت تبكي صامتة.

تحشج صوت قسطنطين واغرورقت عيناه بدموع ظلت تتلألأ بكبرياءٍ وتحبس نفسها بمقلتيه كي لا تنهمر، ثم ابتلع ريقه بصعوبة، وقال في مشقة

وجهد:

- لا يُتاح لي يا كوستانيا لا أستطيع أن أكون طيبًا! صدقيني إنها السلطة..  
إنني لا أستطيع أن أشعر بكم معشر المسيحيين.. لا أستطيع أن أحيأ دون أن  
أمارس سلطتي على أحد.. دون أن أستبدَّ على أحد.. هكذا خُلقت!

\*\*\*

مرّت عدة شهور وظن قسطنطين أنه قد أنهى الخلاف القائم، لكن ولسوء الحظ، قد عاد الوضع إلى ما كان عليه، فبعد عزل يوسابيوس من منصبه، تنامت إلى مسامع قسطنطين أن جماعات من العوام، والأعيان وبعض الدهاقين من نبلاء قرى نيقوميديا ما زالوا على قوله في اللاهوت، وطلق القوم يتبادلون صيغة مخالفة للإيمان النيقاوي.

عندئذ عاد قسطنطين لشروده وتفوّس في كفه لفترة طويلة وكأنه يبحث فيها عما يطمئنه، فلم تعد الخطوط المتعرجة كافية وحدها لبث الطمأنينة في قلبه، لاحظ القيصري وجومه وشروده فراح يقترب منه ببطء ليخبره وهو في غاية الأسى بخبر وفاة البابا ألكساندر بابا الإسكندرية!

استقبل قسطنطين خبر موت ألكساندر بنوع من اللامبالاة، فقط اتسعت عيناه البراقتان، وظل يُدير خنجره الذهبي اللامع بين يديه، وهو يقول:

- الآن المعادلة أصبحت واضحة أيها السادة! لقد انتهز النيقوميدي موت بابا الإسكندرية ليقوم بتلك الفوضى. إنه يتحداني!

حاول القيصري تهدئة الإمبراطور من ثورته العارمة، إلا أن الإمبراطور أصر على مثل يوسابيوس النيقوميدي بين يديه فورًا.

أما النيقوميدي فما أن علم أن مزاج الإمبراطور لا يوحى بالود حتى تردد في زيارة القصر؛ خوفًا من البطش به، غير أن الجنود كانوا قد أرغموه على الحضور، ولا ريب أن وجود صديقه وسميّه "يوسابيوس القيصري"، قد أضفى جوًّا ملائمًا من الترويح عن النفس، فحضر وقد تدافعت الأفكار اللعينة.

كان قسطنطين يجوب القصر ذهابًا وإيابًا وهو يشتعل غضبًا، ثم توقّف إثر دخول يوسابيوس، وأخذ يحدق فيه بعينين صارمتين تطلان من وجهه المتجهّم. وبصوت كله تصميم صافٍ ومنخفض قال:

- من تراه لَقن الرعية البريئة هذه العقائد؟

- من الواضح أنه يوسابيوس شريك الطغاة في جبروتهم.

أشار إلى القيصري قائلاً:

- انظر إلى سميك القيصري؛ فإن اسمه يوسابيوس أيضًا.. لكن شتان

بينكما، هذا القيصري كان يرى رأيك فيما مضى، ثم وقّع على قانون الإيمان

لثلا يحدث الشقاق داخل الإمبراطورية.

قال النيقوميدي في غضب:

- عفوًا سيدي! تريد مني أن أترك مبادئني؟ تريد مني أن أتنازل عن إيماني!  
كلا وألف كلا، صدقني لو أمرتني بأن أترك كل ما أملك لأطعتك طاعةً عمياء،  
لكني لا أستطيع أن أخون الرب ومسيحه، لا أستطيع أن أخون إيماني من أجل  
حفنة مال.

ثم علا صوت يوسابيوس:

- لا طاعة لك أيها الإمبراطور في هذا الأمر.

لم يتم النيقوميدي الكلمات، حتى هُرع إليه القيصري، محاولًا إسكاته؛ لثلا  
يُهلك نفسه، إلا أن النيقوميدي مضى في الكلام، وقال بصوتٍ جهوري قد تردد  
صداه:

- "الله ربكم ورب إبراهيم وموسى ويسوع المسيح".

فُصفت هذه الكلمات على قلب قسطنطين كقصف المجانيق، وعاد به  
شريط الذكريات إلى الأيام الخوالي في أنطاكية، متذكّرًا القائد مارسيللوس،  
عندما قال نفس الكلمات في وجه دقلديانوس ولم يَهَيْئُهُ، وكادت الدمعة أن  
تفر من عينه، لما تذكر صرخات مارسيللوس وهو يضربه بالسياط.  
ساد الصمت المكان للحظات، وشعر قسطنطين للحظة باحترام  
يوسابيوس، وشعر أيضًا باحتقاره لنفسه، كان الحراس على أهبة الاستعداد  
لإراقة دم يوسابيوس، ووضعوا للتو أيديهم على سيوفهم، إلا أن قسطنطين  
أشار بكفِّه لهم، فسكنوا وتراجعوا..

شهق يوسابيوس شهقة ألم، ثم قال:

- سيدي أرجوك! إنها عقيدتي التي لا أتخلى عنها ما حييت.

وقعت كلمات يوسابيوس موقعًا أليمًا في نفس قسطنطين، على رغم أنه  
يستطيع أن يطير رقبتة بإشارةٍ منه، فإنه لم يحب أن يتهاوى كبرياؤه أمام  
جنوده، ولم يقوَ على كتمان تلك اللهجة الجافة، والنظرة القاسية عنه، فكبح  
جماح نفسه وقال في جِدّة:

- اغرب عن وجهي الساعة.

انصرف النيقوميدي والحزن يملؤه، في حين اقترب القيصري من

الإمبراطور، قائلاً له:

- أراك قد قسوتَ عليه سيدي.

- وصلتني أخبار أنه يريد الانقلاب على الإمبراطورية.. ألا تذكر أنه كان مقرَّبًا

من ليسينيوس!

- سيدي، إن يوسابيوس النيقوميدي أعرفه جيّدًا، هو رجلٌ صالحٌ تقي، وهو

يدين بالولاء التام لشخصك المعظم.

كانت تلك الكلمات القليلة من القيصري وقعت موقعها في قلب

الإمبراطور، ودبَّ الشكُّ في قلبه تجاه كلام هوسيوس الذي حذره منه مُسبقًا!

\*\*\*

كونستانيا على فراش الموت

كان القمر غائبًا، لكن النجوم تتألق في السماء، أغلقت أبواب القلعة ورفعت الجسور على الفور؛ لعبور موكب قسطنطين الذي أتى بموكبه المهيب، بعدما علم أن أخته كونستانيا قد اشتدَّ عليها المرض.

تماسكت كونستانيا وتمتت بصلواتٍ طلبت فيها الغفران، في حين كان الأسقف يوستانيوس مُعلمها الخاص يذكِّرها بوصايا المسيح، وعيناه تتابعانها بقلق وهي على فراشها تصارع الموت، وكان الطبيب يُمسك قارورة المشعل بيده ليضيء الغرفة بثبته المظلمة.

قالت بصوتٍ خافت:

- قسطنطين.. قسطنطين.. أريد أن أرى أخي قسطنطين قبل أن أفارق الحياة.

قال يوستانيوس:

- الإمبراطور آتٍ في الطريق سيدتي.. تماسكي أيتها الأميرة.. ستكونين بخير حال بمشيئة الرب.

كان قسطنطين قد صعد السلالم بشكلٍ مسرع يصحبه يوسابيوس القيصري، وعبرا الردهة الطويلة المؤدية إلى غرفة كونستانيا، وكلما مر على حراس القصر انبطحوا له ركوعًا، إلى أن وصل إلى الغرفة التي يقف عليها حارسان.

قال الحارس بصوتٍ جهوري:

- صاحب الفخامة الإمبراطور قسطنطين!

وعند دخول قسطنطين حاولت كونستانيا أن تقوم لتستقبل أخاها، إلا أن قسطنطين حاول أن يمنعها من القيام، وجلس على سريرها مُمسكًا يدها ومطمئنًا لها: - أحمد الرب أن رأيتك! استريحي أيتها الأميرة سوف تصبحين على خير حال، ثم تملئين القصر بهجةً وسرورًا..

أما هي فقد قالت بكلام متقطع ورأسها يتحرك ببطء على الوسادة: - لا داعي للكلام الكثير.. إن الأجل قد حان يا قسطنطين، وأنا الليلة أريد أن أحدثك في أمر مهم، وأحب أن تستمع إليّ وتلبي طلبي الوحيد ولعله يكون الأخير.

أجابها قسطنطين:

- أما زلتِ غاضبة مني من قتل زوجك ليسينيوس؟ إنه كان رجلاً خائئاً للدولة ودبّر المؤامرات على أخيك، كما أنه كان يعادي المسيحيين.  
- لا يا قسطنطين لست غاضبةً من هذا الأمر.. صحيحٌ إنني حزنت وقتها، لكنك كنت محقاً، وهو قد أخذ جزاءه.  
- إذًا، علامَ أنت غاضبة مني؟ هل أسأتُ إليك؟ لك أن تأمريني وأنا أنقذ على الفور.

أجابت كونستانيا وهي تسعل من المرض:

- لم تُسئ إليّ أنا، بل أسأت إلى الإله الواحد.  
اندهش قسطنطين وجحظت عيناه.. ثم أكملت قائلة: - أسأت إلى الله حينما ظلمت رجال الله في نيقية.  
تلعثم قسطنطين، وقال:

- أختاه إنك مريضة، فلا داعي إلى مزيدٍ من الكلام...

ولكنه لما رأى وجهها المُتعذب المتألم، واستمع إلى نبرة صوتها المستسلم للقدر، المُفعم بالحزن واليأس، شعر كأنه يختنق، وأحس بشيءٍ ما يقف في حلقه حتى ليكاد يكتم نَفْسَه، كما أن العَبَرَات لَمَعَت في مُقلتيه، وكأنها توشك أن تسيل من عينيه.. وصار يهتف من بين ضلوعه: - "كونستانيا.. ناشدتك الله أن تسامحيني؟"

قال الكاهن يوستانيوس:

- هل يسمح سيدي الإمبراطور أن أتكلم؟  
- تفضل.

قال يوستانيوس:

- سيدي الإمبراطور، إن الله ما أرسل الرسل إلا ليوحدوه ويعبدوه بنعمة اللاهوت الأعظم، ولم يرسل الله رسولاً من أجل أن يكون إلهاً مع الله، كائناً من كان، بهذا جاءت جميع وصايا الأنبياء في الناموس. الحق أقول لك سيدي إن القول بالاتحاد الذاتي بين الآب والابن والذي عُرف مؤخرًا بالهوميسية، هي هرطقة طارئة علينا إثر الاختلاط بالفلاسفة، ومخالف للتقليد الكنسي الذي تعلمناه من الآباء الأقدمين.

ساد الصمت المكان ونار المشاعل تتراقص مُحدِثَةً ظللاً للموجودين في الغرفة أشبه بالأشباح على الحوائط.. أحس قسطنطين بنسيمٍ عليل يأتي من النافذة الزجاجية شبه المغلقة.. فقام نحو النافذة وفتحها على مصراعها.. ونظر إلى القمر وقد اكتمل بدرًا.. وزاد تيار الهواء العليل الذي اشتَمَّه قسطنطين ليحيي فيه روحًا جديدة، وقال وهو يتأمل القمر: - أعدك يا كونستانيا أنني سأنظر في الأمر من جديد<sup>(24)</sup>.

قالت كونستانيا:

- حلّت عليك بركات السماء أن عرفت الحقيقة، ووصيتي لك أن تنصر المظلومين في كل مكان.. وصيتي لك هو آريوس وأتباعه، أرخ قلبي ولو مرة واحدة!

إنني أراهم الآن.. نعم أراهم ينتظرونني بالخارج لأخرج معهم إلى الملكوت.. اشتد السعال عليها، فاستدار قسطنطين وتوجه إلى كونستانيا وأمسك بيديها، وقال لها: - كل شيء سيكون على ما يرام حبيبتي.. وسأنفذ طلبك، استريح الآن يا أختي استريح.

نظرت إليه وهي مبتسمة الآن أستطيع أن أستريح.. أستريح إلى الأبد وأنا مطمئنة.

صَبَّ الطبيب نوعًا من العقاقير، قائلاً:

- والآن قد أحضرت لك الدواء تفضلي يا سيدتي..

لكن كونستانيا اتجهت برأسها إلى الجدار ببطء، ولم تُجِب نداءه..

أمسك الطبيب يدها هنيهة، ثم أغمض عينيها، ونكس رأسه إلى الأرض، قائلاً: - لقد سبقتكم سيدتي الأميرة إلى الملكوت!!

جحظت عينا قسطنطين ثم صاح بصوت ارتجّت له جنبات القصر واحتضنها،

قائلاً: - كونتسانيا.. أختي... لا.. لا تفعلها وتتركيني!

- أقسمت لك ألا أرد لك طلبًا.

ذرفت عيناه بالدموع، وأمسك يوساييوس القيصري يد الإمبراطور، محاولًا

تهديته وتذكيره بوصايا الأنبياء بالصبر على المصائب.

أما كونستانيا فقد سلمت الروح لبارئها ولسان حالها يقول: - الوداع يا أخي

الوداع، تذكر المظلومين.. إن لديك الكثير لتفعله لأجلهم!

\*\*\*

"عالم الأباطرة لا يعرف إلا لدغات الأفاعي أو ضربات الأسود".  
بهذه العبارة اختتمت فوستا مجلسًا سرّيًّا مع كبار القادة للإطاحة بكريسيوس. هذا الشاب الذي ظهر لها فجأة على غير ترتيب، ليخطف من أولادها الصغار حلم الإمبراطورية من بعد أبيهم، لم تُرقها قط انتصارات كريسيوس الباهرة على بلاد الغال، وخاب ظنها عندما عيّنه قسطنطين قائدًا عامًا على الجيوش، فأدركت أن كل محاولاتها مع قسطنطين قد ذهبت سدىً، وأيقنت أنه لا بد من المؤامرة لتغيير ذلك القدر المحتوم.  
قررت فوستا تصعيد خطتها لمستوى أعلى، فأرسلت إلى القادة الذين يدينون لها بالولاء التام، والذين كانوا ذوي مناصب عند أبيها ماكسيمانوس، وعقدت معهم اجتماعًا سرّيًّا للغاية، واتفقوا على خطةٍ مُحكمة للإطاحة بكريسيوس.. وهكذا في عالمٍ لم يعرف البراءة، لم تكن الأيام لتضحك لهذا الشاب المسكين.

فما أن فرغ كريسيوس من انتصاراته في بلاد الغال، حتى رُفعت الأعلام باسم "الإمبراطور كريسيوس"، وأغدقت الأموال الطائلة على الجنود، وأصبحت المدينة ترتج هتافًا باسم "الإمبراطور كريسيوس"!  
استرعى ذلك انتباه الحرس الخاص لقسطنطين، فانطلقوا لإخباره بذلك، وأدّت حيلة فوستا مفعولها هذه المرة، فقد انتابه القلق والشكوك تجاه كريسيوس؛ حيث ظن أنه يريد الانقلاب عليه.  
وعلى رغم محاولات كريسيوس في الدفاع عن نفسه، فإن الأدلة المادية والشواهد الأخرى كانت محبوكة بشكلٍ عجيب، وفشل في إنقاذ نفسه من براثن شكوك أبيه.

على الفور أمر قسطنطين ابنه بالإقامة الجبرية في القصر، وكان مسموحًا له أن يحضر دروس الفيلسوف لاكتانتيوس فحسب.

مرّت الأيام محملةً ومترعةً بالقلق والتوتر، إلى أن جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، فقد علم قسطنطين أن كريسيوس قد تسلّل إلى غرفة فوستا ليعتدي عليها جنسيًّا، وحينها أخذ قسطنطين قرارًا لا رجعة فيه!!

ما هذا الطيش الذي فعله كريسيوس؟! لعلها نزوة! أو لعلها!!

آه.. إنها لدغات الأفاعي والحيات، إنه صراع بين الخير والشر.. صراع بين البراءة والخطيئة.

\*\*\*

ولما جاءت اللحظة الحاسمة.. هل سيقتل ابنه؟  
أو من مُقَدِّم على ندمه!

رأى الجنود المُكلفون هذا الشاب المسكين، ووقعت في قلوبهم رجفة للحظات.. لا يجب أن يكون المرء ضعيفًا كي يتحرك العطف في قلبه، أو هيئته، متقشفًا ليجعل النفوس ترتعد في هذه القاعة، حيث على الألم أن يكون أصمَّ، وعلى الشقاء أن يكون فرحًا، وعلى اليأس أن يكون محتشمًا، كان مزيجًا من كل هذا الشعور الذي حرَّك القلوب الباردة لدى دخول الشاب.

دخل كريسيبوس بسذاجة تامة، وهو لا يعلم أنه سوف يُقتل ويُغدر به! من النظرة الأولى قرأ الجنود على وجه هذا الشاب سرًّا مخيفًا، فقد كانت تقاطيع وجهه موسومة بسمة الطيبة والسذاجة، المألحة الغائمة، ونظراته تدل على قوى مهدورة، وعلى ألف أملٍ قد خاب! قائد محنك نعم.. لكنه شاب صغير.. قلبه في براءة الأطفال.. يمهر جبينه بشحوب باهت مضنٍ، وابتسامته الحزينة تسطر حول فمه تجاعيد خفيفة، احمرار يكسو خديه.. ومظهره يفصح عن استسلام يؤلم منظره، وفي أعماق عينيه تكمن عبقرية غامضة، وقد اكتنفهما، ربما تعب ارتكاب الملذات.

وماذا عن قسطنطين؟ هل وسم المجون بخاتمه المتسخ هذا الوجه النبيل الذي كان مشرقًا طاهرًا وأضحى ذليلاً؟

وكما يستقبل السجناء مجرمًا شهيرًا بالاحترام، عندما يدخل إليهم في سجنهم، هكذا استقبلت هذه الشياطين البشرية التي أصبحت خبيرة في فنون القتل، هذا الشاب المسكين، وأكرمت فيه ألمًا جديدًا وجرحًا عميقًا حاولت نظراتها سبر أغواره، وعرفت فيه أميرًا من أمرائها في جلاله استهزائه الصامت وفي أناقة ثيابه الرثة.

كان لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره أو ربما أقل، وكانت طهارة شبابه تناضل بقوة ضد ميله الناشئ إلى الفسق، والظلمة والنور والعدم والوجود تتطاحن في قلبه، فتسفر المعارك عن مزيج من الرضى والخوف.

كان يبدو ملاكًا بلا أشعة ضلَّ طريقه، أو لربما ضلَّ طريقه لما رجع إلى أبيه الذي تسيطر عليه الشياطين!

كان شعور هؤلاء الأساتذة العريقين في الرذيلة والتعاسة شعور عجوز شمطاء حركتها الشفقة لدى رؤيتها فتاة جميلة.. فأوشكوا أن يصرخوا في بادئ الأمر:

- "اخرج... اخرج من ههنا فنحن مأمورون بقتلك! ومِمَّن؟

- من والدك قسطنطين.. آه!!

لكن قلوبهم الآثمة لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، فقد نفذوا الأوامر على مضض، وأراحوا هذه النفس الطاهرة من دنس الدنيا... نعم لقد قتل الإمبراطور ولده البكر!!

\*\*\*

أنفقت فوستا كثيرًا من وقتها وهي تتزين وتتأنق فرحًا، فقد ضمنت -أخيرًا- العرش لأولادها، وأخذت تتأمل في المرأة، وتنظر إلى خلقها القويم، وحسنها الخالص، ولفتتها المدللة، حتى إذا رضيت عن نفسها، وقنعت بقوة سحرها، خرجت من حجرتها تميمس دلالةً إلى قسطنطين.

وقفت أمامه، تسمر قسطنطين أمامها، لم ينظر في عينيها، بل نظره تخطاها كأنه شارد، قال لها قسطنطين وهو في هذه الحالة:

- قتلك كريسبوس!

على الرغم من أنها دبّرت كل شيء، فإن الخبر للوهلة الأولى كان شديدًا عليها.

- وهل هانت عليك نفسك قتل كريسبوس؟!

قالتها فوستا وهي ترتعش!

قال قسطنطين:

- إنه العرش.. من أجل هذا العرش يا فوستا تخلينا عن كل شيء! وفعلنا

أشياء لم يكن علينا أن نخجل منها.

كانت كلماته حزينة ومؤلمة، ولكنها حقيقية، لعل فوستا لم تكن تنفر منه بقدر ما تنفر من نفسها، كأنها فعلت فعلًا مشينًا تخاف أن تبوح بها.. كان قسطنطين متعجبًا من تصرفاتها هذه الليلة، التصقت به وهي ترتعد، قالت:

- مهما كان الأمر، لا تتركني وحدي، لا تتخلَّ عني!  
احتضنته بقوة، وكانا قرييين لدرجة لا تسمح لها بالقبلات أو بتبادل الكلمات،  
كان الاثنان يرتعدان، أحاط شعرها الكثيف بوجهه!

\*\*\*

جاء الفجر من خلف غابات تغطُّ في الظلال والسكون الرهيب، وهبَّت الريح كزفرة أخيرة من الليل البهيم، رجعت السيدة هيلانة من سفرها الطويل من أورشليم، جالبةً معها مزيجًا عجيبًا من السعادة الغامرة وشعور القلق والحزن في آنٍ واحد.. فما الذي كان يُسعدُها، وما الذي كان يُقلقها؟! دخلت على قسطنطين وهو مُتكى على أريكته، وتمعنّت في وجهه وكأنها تروم سبر غوره، واستشفاف ما يُربكه ويُقلقه، في حين حاول قسطنطين أن يجاهد نفسه ويخرج من غياهب أحزانه ليستقبل أمه بعد سفرها:

- نحمد الرب على عودتك بسلام يا أماه. اقترب منها وحاول تقبيل يديها، إلا أنها أزاقتها عنه بقوة، قائلةً:

- لا تستحق يا ولدي.. لا تستحق.. لا تستحق، أبهذا تستقبل أمك بعد عودتها؟!!!

لقد سافرت إلى أورشليم وحدي.. ووجدتُ الصليب المقدَّس وحدي... وعرفتُ البقعة المباركة وحدي.. وشرعتُ في بناء كنيسة القيامة وحدي.. روحانية المكان كانت تجذبني يا ولدي.. كم كنت أتمنى أن أبقى بجوار يسوع والبتول مدى الحياة.. كم كنت أتمنى أن تكون معي لتأخذ بركات هذا المكان الطاهر.. أمنيات كثيرة يا ولدي كانت تجوب بخاطري، حتى فُجعت بخبر كريسيوس وأنا هناك، فكذَّبْتُ نفسي، وأنكرتُ الخبر، حتى آتيتك لتخبرني أنت بالحقيقة!

طأطأ قسطنطين وجهه إلى الأرض، ولم ينبس ببنت شفة:  
- إداً قتلت ابنك يا قسطنطين؟ هل أتممت رغبات فوستا على الوجه الأكمل؟

- أماه! كريسيوس أخذ جزاءه، إنه أراد الانفراد بالإمبراطورية، وأبوه ما زال حيًّا، هذا الولد عاق.. فقد تعلم بعيدًا عن النبلاء.. لعله قد تعلم هذا الخبث في حوارى أنطاكية..

- إنني يخالجنى الشك أن ثمة شيئًا من تدبيرها، فلقد سمعتها يومًا مع خادمتها تتكلم بشأن كريسيوس.

قاطعها وقد حنق أشد الحنق من هذا التلميح، وأجابها بخشونةٍ لازعة،

وأفهمها أنه يثق بزوجته ويربأ بها عن المُنكر، ولا يشك في تصرفاتها.  
أشاح قسطنطين بوجهه بعيدًا والعبرات تخنقه، قائلاً:  
- اسكتي اسكتي.

مصت هيلانة، قائلة:

- إنني سمعت فوستا ذات يومٍ من وراء الستار وهي تتأمر على كريسبوس.. أجل سمعتها بأذني، وكنت في جنح ليلٍ بهيم، وسط سكونٍ طاغٍ، فنزلت السلم لأتفقد أحوال الخدم، وسمعتُ أصواتًا.. لم أُميّز ماذا يُقال، إلا أنني سمعت زفرات فوستا... وسمعت اسم كريسبوس.. أجل سمعته.  
ما زلت أذكر هذه الليلة جيدًا يا ولدي، حاولت اختلاس بعض الكلمات، لكن فوستا ليلتها يبدو أنها أحست أن ثمة أحدًا يستمع من خلف الستار، فصعدتُ للتو بالأعلى، وصعدت خلفي هي والخادمة، في حين تواريت أنا، ورأيتها مذعورة خائفة مضطربة.

حاول قسطنطين أن يُقاوم ويُخفي عبراته ويعود إلى حسمه، قائلاً:

- ما هذه القمص الدرامية يا أماه؟ أتفهم أن تكون هناك وحشة بينك وبين فوستا كسائر ما يكون بين الحماة وكنّتها، لكن لا أتفهم أبدًا هذا التحامل الذي يدعوك إلى حكاية مثل هذه القمص الخرافية..

- حبك لفوستا أعمى قلبك يا ولدي، الأيام كفيلة بأن تُظهر لك الحقيقة، قف وقفة صدق مع نفسك وخبرني هل وجدت الخلاص الذي تسعى إليه؟ هل وجدت السعادة؟ هل استطعت أن تُبشّر بكلمة الرب؟  
- لا أظن أن الرب يابه إن كانت صلواتي واعترافاتي في الكنيسة أم في نفسي.

- كيف لا يابه الرب وأنت لم تتعمّد بعدُ يا قسطنطين؟

- اسكتي يا أماه.. أرجوكِ اسكتي ودعيني وشأني!

شعر لوهلة أن كلام أمه صحيح، داخلته الشكوك وحاول أن يقاومها ويُكذّب نفسه، ولكن كيف ذلك وأمه لا يخيب إحساسها؟ كيف يشك في هيلانة وهي التي ينتصر ببركتها؟

إنني يزعجني كثيرًا أن أرفع رأسي وأن أنظر إلى أمي وجهًا إلى وجه. لا أدري ما الذي كان يخلجني.

رباه! إنني أحسدها حقًا، أحسدها على إيمانها.. أحسدها على يقينها.. لا أدري ما الذي أصنعه؟ إنني لم أحلّ مسألة الديانة بعد، واضح أنني كنت عاجزًا وأعجز عن حلها الآن أيضًا.

نام قسطنطين في تلك اللية وما هي إلا لحظات حتى غطّ في نومه العميق، وبدت له منرفينا أم كريسيوس وتراءت كأنها وردة بين حشائش خضرة، وكل شيء سطع حولها، فكانت كالابتسامة التي أضفت النور على من يحيط بها.. شعر في نظراتها بالشوق والحنين إليه، كما شعر هو بالشوق والحنين إليها.

لكن سرعان ما تحولت نظراتها شيئًا فشيئًا إلى نظرات عتابٍ وتأنيب، وكأن نظرات عينيها تؤكدان كلام السيدة هيلانة، شعر بأنها تريد أن تقول له: - "كسررتني قديمًا يا قسطنطين، والآن تفجعني في ولدي!" ولم تنبس ببنت

شفة.

\*\*\*

بعد أسبوعٍ تقريبًا تنامى إلى مسامع قسطنطين مرض صديقه القديم الفيلسوف لآكتانتوريوس، الذي طلب مقابله، فوجد قسطنطين أنه من الواجب أن يأتيه هو، فذهب ليعوده.

تذكرنا معًا حياتهما القديمة في نيقوميديّة، واشتكى له قسطنطين من سوء الحياة وآلامها.

راح لآكتانتوريوس يفصح عما بداخله:

- لا أثقل كثيرًا على مسامعك فإني طلبت مقابلتك لأمرٍ مهم، وأنا أعفك من الكلام عن الفترة الأولى من حياتنا فقد بقيت مثلك ومثل ألوف غيرنا، أحياء حياة تؤلف آلامها الوهمية وملذاتها الحقيقية عذوبة ذكرياتنا؛ هذه الذكريات التي غالبًا ما نسترجعها ونحاول إيقاظها ما دمنا لا نملك غيرها: حياة جميلة كانت أعمالها تبدو لنا محتقرة بينما...!!

لم أكن لأحب أن أتكلم يا سيدي، ولكن أما وقد قتلت ابنك كريسيوس، فلا بد لي أن أنطق بالحقيقة حتى ولو نالني من الأذى بعدها ما سوف أنال؛ فلم يعد شيء ذا أهمية في هذه الدنيا، سيدي.. كما ترى فأنا رجل مريض، وأشعر بأن نهايتي قد اقتربت، ولأن يكون الإله عني راضيًا خير من أن تكون عني ساخطًا.

اعتدل قسطنطين في جلسته، وقال:

- قل ما عندك يا لآكتانتوريوس واكسر حاجز الخوف، فالعلاقة بيننا تسمح بذلك، فأنا لم أعرفك البارحة!

بدت على لآكتانتوريوس علامات الإرهاق والمرض وزاد سعاله، وأخذ قسطنطين يساعده لوضع الوسادة تحت رأسه.

تنفس لآكتانتوريوس الصعداء، ثم قال:

- الحق أقول لك: لم يفعل كريسيوس أي شيءٍ مشينٍ مما في رأسك، ولم يُدبّر للانقلاب عليك، إنما كل هذا من تدبير فوستا، ولسوف أخبرك أنا بالسر الذي كثيرًا ما أتمنني عليه كريسيوس.. في يومٍ من الأيام وعلى غير العادة جاءني كريسيوس يزورني، وليسألني عن بعض مسائل الفلاسفة الرواقيين، على غير عادته، فإنني لم أعهده يأتيني ليسألني، بل كان ينتظر ميعاد الدرس

ثم يسأل.

على كل حال قد أحبته، ولكنه بعد جوابي إياه ظل ساكتًا، ولم ينطق ببنت شفة، فعرفت حينها أنه قد أتى لأمرٍ آخر، وعرفت من تعابير وجهه أن ثمة أمرًا قد حدث، فقد كان مفزوعًا قلقًا، ولك أن تصدقني يا سيدي أنني حاولت أن أستخرج منه هذا الأمر المُدْلهِم الذي يقلقه من بين ثناياه، لكن دون جدوى، فأجلسته على هذا الكرسي الذي تجلس عليه أنت، وتحت إلحاحي الشديد أخبرني بالسر الذي طلبتك من أجله! ولكن بعد فوات الأوان!!

تعصب قسطنطين وقال:

- لقد زدت من قلقي، قُلْ يا لاكتانتيوس!

أكمل لاكتانتيوس بصوتٍ خفيضٍ مُهترئ:

- قال لي كريسيوس: ذات يومٍ أرسلت لي فوستا تستدعيني إلى غرفتها لأمر مهم، وأفهمتني أن والدي الإمبراطور قد ترك شيئًا معها يخصني، فدلقت للتو تجاه الغرفة وطرقت الباب، فسألتني: من الطارق؟ فأجبتها أنني أنا كريسيوس، فأذنت بالدخول، حينها وجدت ما لا يجب عليّ أن أقوله.. سكت كريسيوس وطأطأ وجهه إلى الأرض، فاستحلفته أن يكمل حتى أستطيع أن أساعده.

أكمل كريسيوس على مضض، قائلًا:

- وجدت فوستا نائمةً على السرير وهي شبه عارية مسندةً رأسها على ساعدها، اضطربتُ قليلًا، وجزمتُ بأنها قد أثقلت في الشراب، حتى إنها لا تدري ما تفعل.

اضطربت وأغلقت الباب بشدة، فهبَّت هي إلى الباب لتفتحه، وجذبتني بالداخل ثم أغلقت الباب بقوة.

فقلتُ لها في حزم:

- ما هو الشيء الذي تركه لي الإمبراطور، وقد أرسلت لي من أجله؟! تمايلت فوستا تمايل الحية في جُحرها.. وهي تجذب أطراف ثوبي ناحية السرير، فنزعت ثوبي منها بقوة، وخرجت من عندها، ولم آبه بصراخها من خلفي..

أخذ لاكتانتيوس يسعل من المرض، ثم أخذ هنيهة لكي يلتقط أنفاسه.

تسمّرت عينا قسطنطين وهو يستمع إلى هذه القصة الحزينة، ودمعة تنساب من عينيه كأنما ورقة شجر تنساب في فصل الخريف، ثم قال له:

- لِمَ لَمْ تُخبرني بهذا السر منذ البداية؟

زاد سعال لاكتانتيوس، ثم قال ببطء وهو في هذه الحال:

- لقد ائتمني كريسبوس ألا أفشو هذا السر حتى لا يسيء إلى شخصك المعظم، فهو يرى أن الإساءة إلى زوج الإمبراطور تمثّل إساءة للإمبراطور ذاته.

عصّ قسطنطين على شَقَّتِهِ بقوة، ثم ضرب المنضدة الخشبية لتهوي على الأرض مهشمةً من جراء قوة يده، قائلاً:

- كم أنا غبيّ!

دلف الإمبراطور مسرعًا ناحية الباب، وقام لاكتانتيوس من فراشه، وهو في هذه الحالة من السعال، محاولًا أن يهدئ من ثورته العارمة، وقد فقد توازنه مترنخًا خلفه، وملاحقًا إياه إلى باب المنزل حتى هوى لاكتانتيوس على الأرض ولم يلحق به.

خرج قسطنطين كالثور الهائج يشق طريقه إلى القصر الإمبراطوري بالعربة الملكية التي تجرها الخيول، وعقله شارذ طوال الطريق، في حين كانت فوستا بين وصيفاتها في الحمام المملوء بالبخار ما بين مصففة لشعرها، ومدلّكة لخصرها.

كان حمام فوستا ساخنًا دائمًا، لا يكفُّ البخار عن التصاعد من مائه، مُشيد فوق ينابيع ساخنة طبيعية والجدران المحيطة بها دافئة الملمس، تتدفق مياه تغلي بين جدرانها وغرفها كالدماء في عروق إنسان، لتنزلق المياه بعدها لتملأ خزانات تغلي فيها المياه، كان البخار يتصاعد بشكلٍ يجعل الرؤية ضبابية.

دخل قسطنطين على حين غِرَّة وأمر الوصيفات بالمغادرة، فغادرن الحمام على الفور، ظل ينظر إلى فوستا في حين نهضت قائمة من حمامها، وهي تلبس الرداء وتُجفّف شعرها، متعجبةً من نظراته، وراحت تختلس النظر إلى وجهه المُتجهم الذي يُنبئ بالثورة الهائلة المُندلعة النيران.

فقال لها وهي كذلك:

- كان يجب عليّ أن أعلم أنك مجرد عاهرة! لقد عرفتُ كل شيء فيما

يخص اللعبة القذرة التي دبرتموها ضد كريسبوس.  
هُرعت فوستا تتشبث بردائه، وقالت مذعورة:  
- لا.. لا.. إنني بريئة.

صفعها قسطنطين فتكوّمت على الأرض.. ثم رفعت نظرها إليه، وقالت  
بقوة وعيناها تبرقان:

- نعم! إنني فعلت ذلك من أجل بقاء العرش في أولادنا.. إنني فعلت كل  
هذا حتى لا يذهب عرشك إلى ابن الجارية!".

سرعان ما تبدّلت نظراتها إلى نظرة حانية حاملة، وقالت:

- إنني أحبك.. نعم إنني أحبك.. أفهمت! إنني أحبك.

جاءت جملتها الأخيرة مهترئة باكية.. لكنّ ما قاساه قسطنطين من الآلام  
كان قد جعل قلبه أكثر قسوة من الحجارة، فانتهرها ودفعها عنه بقوة، اختلّ  
توازنها تمامًا حتى وقعت في خزان المياه المغلي، أطلقت صرخات بشعة،  
وظلت على حالها وقسطنطين ينظر إليها متشفياً.  
وتركها تلقى مصرعها في الحال!

\*\*\*

مرّت الأيام مترعةً بالحزن والآلام، وزادت الصدمات على قسطنطين شيئاً  
فشيئاً، كانت تلك السنة من أشد السنوات عليه؛ فقد ماتت أخته، وقُتل ابنه،  
وسرعان ما مات صديقه لاكتانتيوس في نفس العام، وكانت القاصمة الكبرى  
بموت أمه "هيلانة"، التي لم يهنأ بها وبحنانها لانشغاله بأمور الملّك!

ذاك الكرسي البشع الذي لا يعرف الإنسانية أو حياة القلب.. استقبل خبر  
وفاة أمه وكأن روحه تنسلخ من جسده.. وودّ أن لو يرجع طفلاً صغيراً في  
كنف أمه ليجلس معها طوال الوقت بلا همومٍ أو تفكير.. لكنه -ويا للأسف-  
تحوّل فجأة إلى قرصان سيطرت عليه رؤية الأصداف اللامعة.

وفي مكانٍ ما في متاهة القصر الحجرية الضخمة أطلق ذئب عواءه، وظل  
الصوت مُعلقاً فوق القلعة.. رفع قسطنطين عينيه وارتجف. ثمة شيء في  
عواء الذئب ينتزعك من حاضرك يا قسطنطين، ويُلقي بك في غياهب الغابات  
المظلمة في أعماق عقلك، فتجد نفسك تحاول الفرار من قطيعٍ كامل بلا  
شيء يسترك!

مُلكك يا قسطنطين ينبسط على إمبراطورية مترامية الأطراف بفضل سيفك الصقيل، بيد أنك لم تستطع أن تجد السعادة الحقيقية، المصائب تتوالى ولا تستطيع الفرار منها.. ما العمل؟ أين المفر؟

آه يا كريسبوس، أيها الأمير الجميل.. عند زوايا الصبح، ومن غير موعد، أرى عينيك تمطران مسدولة على حُلمٍ غافٍ.. بعيداً أنت الآن والرحيل خناجر وجعٍ تحاصر اتجاهاتي. كيف ألوذ بك منها، وأنت تواصل السفر بعيداً.

علمني كيف أوطنٌ روعي على الدخول لمدن مزحومة بألغام الوجع؟ كيف أدفع صخرة بحجم الكون تجثم على صدري؟ كيف أتوقف عن مزاوله الوقوف في محطاتك رجاء لُقياك أيها الولد الهادئ الطيب؟

إنه مُستلقٍ الآن في حجرته والأنوار مُطفأة؛ وعيناه محمرتان من الأرق. وعلى يساره إبريق الخمر وكأس فضية يتناولها بين الفينة والفينة بيد كليله ليعبّ منها جرعات طويلة ساهمة متقرزة، وشفتاه في حوار مع نفسه.

في هذه الأيام ودّ قسطنطين لو يتخلى عن عرشه.. ثم يهرب وحده ليتمكن من العيش بهدوء، على ضفة ساقية صافية حالمة، تحت شجرة موز تتدلى أثمارها اللذيذة بصورة دائمة، وداعبت مخيلته فكرة الطمانينة والهدوء والانصراف إلى البحث والتمحيص، فتمنى لنفسه حياة الرهبان الخالية من الآلام والشهوات، حيث يجلس في غرفة يتأمل من نافذتها الوحيدة المروج والغابات وكروم العنب.

نعم، لقد تعقّد الموقف وزادت الصدمات، وتراكمت المحن على رأسه فأحنى هامته، وأحنى كاهله، وتلبّث ينتظر مُستسلماً للضربات التالية، وما أكثر ما استغرق في الفكر بعد أن عاد إليه رشده! وما أكثر ما عجب من شذوذه! فكيف يُؤوّل صفحه ونقمتة؟ كيف تُؤوّل شفقتة وقسوته؟ ألا يتهكم عليه الناس؟ ألا يحتقرونه؟

\*\*\*

في ظهيرة اليوم التالي دخل يوسايبوس القيصري عليه وهو يتأمل في تمثال لامرأة جميلة نادرة الجمال، حاول أن يُنبهه بمجيئه فلم يفلح، وعرف أن الإمبراطور سافر بوجدانه إلى بلاد بعيدة.. بلاد مثالية صافية مثل صفحة السماء، ولذلك لا يريد أن يعود أبدًا.. ولم يُرد يوسايبوس أن يعيده من المثالية إلى مرارة الواقع.

انتبه قسطنطين إلى مجيء يوسايبوس بعد حين.

- منذ متى وأنت هنا؟

تبسم يوسايبوس، وقال:

- منذ وقتٍ ليس بالقليل سيدي، يبدو أن هذه المرأة لها مقام عالٍ عند

فخامتكم.

- إيه يا يوساب! أجل! إنه تمثال منرفينا أم كريسبوس المقتول.

سكت قسطنطين وطأطأ رأسه مُتأسفًا على فردوس شبابه، ثم قال: - كم

من الصعب أن تخذل إنسانًا صادقًا، وتثق في مجموعة من الأندال!

شعر يوسايبوس بأن قَسَمَات هذه الفتاة قد سكنت ولسنوات عديدة قلب

قسطنطين، لعله قبل زمن بعيد قد خيَّب آمالها، ثم هو الآن أحس بتأنيب

الضمير، لكنه ظل يحمل صورتها في قلبه، وصانها، كأصدق ما يفعله أفضل

الأزواج إلى أن عمل في آخر الأمر، وبعد مرور سنوات عديدة لم يرها قط في

خلالها، عمل على صنع تمثال هذه الفتاة الغصّة الرقيقة السمحة.. التمثال كان

جميلًا وحقيقيًا ومُفعمًا بالحب النابض.

- هذا التمثال يُذكرني بالأيام الخوالي في أنطاكية.. حينما كنتُ أودعها كان

ناظرها إلى بعيد في هذه المرة، وكانت تمنحني جانب وجهها كي أتأمله،

وجلدها الملوَّح الصافي الأديم، لو كان للعدوِّبة لون لكان لونها، ولو كان للسر

وميض لكان وميضها.

- يا سيدي، أرى أن نفسك تذهب حسرات! علينا أن ننسى أحزان الماضي..

لماذا لا نتذكر إلا الآلام فحسب؟ في غياهب الماضي مرَّت بنا لحظات كنا

نطير مُحلِّقين في السماء من فرط سعادتنا، كما مرَّت لحظات يوَدُّ فيها أحدنا

أن تنشقَّ الأرض ولا يعود إليها أبدًا.. هذه هي الحياة يا سيدي... لذلك أقول: "لا

يجب أن نركن إلى ذلك الماضي البعيد، بل علينا أن نتعلم من ذاك الماضي".  
- ذاك التعليم كان قاسيًا جدًّا يا يوساب، لقد خذلتها، كما خذلتُ كونستانيا  
أختي تلك الطاهرة القديسة.. التي ما استطعت حتى أن أنفذ وصيتها.  
- قدَّسَ الربُّ روح مولاتي الأميرة كونستانيا، لقد كانت مثالاً للمرأة الكاملة  
التي أرادها الله ومسيحه.. الحق أقول يا مولاي، وفاءً لتلك القديسة، علينا  
إنفاذ وصيتها، والقيام بما يُمليه علينا ضمائرنا، غير آبهين برضاء الناس أو  
سخطهم.

نظر قسطنطين متعجبًا إلى يوسابيروس، ثم قال:  
- يا قيصري! من الصعب الرجوع عن قانون الإيمان.. ماذا عن كل هؤلاء  
الأساقفة الذين حضروا نيقية؟ هل يقولون إن الإمبراطور يعدل عن قراره؟!  
- الأمر يسير يا سيدي، نكتب إليهم أن آريوس قد رجع إلى قانون الإيمان  
وانتهى الأمر.  
- كيف ذلك؟

- إن الإيمان يا سيدي هو ما استقر في قلوب الناس دون صيغ وقوانين  
بشرية.. لا واسطة بين العبد وربّه.. وأما الكلام البشري فهو كمثل قطعة  
العجين في كفِّ اليد، يُمكن أن تُشكِّله نحن كما نشاء، وكلام آريوس لا يخالف  
روح هذا القانون.. دع هذا الأمر عليّ، وسوف أرتب كل شيء!  
ارتاحت قسمات قسطنطين لكلام القيصري، ووجد فيه مخرجًا جيدًا للعفو  
عن آريوس.

أمر قسطنطين للتوّ بقرطاسٍ وقلم، وقال للقيصري اكتب ما سأمليه  
عليك: - "إلى الأخ الحبيب آريوس. لزمينٍ مضى، بلغني عن نيافتكم أن في  
مقدوركم الوفود إلى مقامنا بغية الحصول على لقاء، وعليه، إذًا بادروا  
بالارتحال مسرعين إلى بلاطنا، وستشعرون برحمتنا بكم وتقديرنا إياكم،  
وتضمنون العودة إلى دياركم.. دعائي إلى الله أن يحفظكم عزيزي آريوس"

(25).

\*\*\*

كانت شجرة الجوز قد أزهرت، واخضرت براعمها الصافية الوديعة، وثمرات التين قد تقسّمت وأضحت سمراء داكنة منذ ربح بعيد، وكانت طيور اللقلاق الجاثمة فوق أسوار الإسكندرية قد أخرجت صغارها وعلمتهم الطيران.

أما آريوس فقد عاد من منفاه وهو يُراقب تلك الطيور القابعة فوق الأسوار تغمض أعينها في سكينٍ وجلال، مُسبِّحَةً بحمد لله، نائيةً بنفسها عن ظلم وعدوان بني البشر إلى صفاء الملكوت.. كان آريوس يُقدّم قدمًا ويؤخر أخرى في الذهاب إلى حي بوكاليا، هل يعود إلى كنيسة أصبح رئيسها من هو غريمه بالأمس.. بل كان شماسًا صغيرًا وقت أن كان هو قسًّا أعلى منه رتبة؟! وبعد أن تدافعت الأفكار لسويغات قليلة، فضّل البقاء في المدرسة الإكليريكية إلى أجلٍ غير مسمى.

ومن شدة إجهاده نام آريوس في أول ليلة قرير العين تاركًا هموم الدنيا وراءه ظهرًا، ووجد في النوم لذة، وكان في نشوة من جرّاء تلك الفلتات والنومات اليسيرة مصحوبةً بهوائٍ عليل يأتي من النافذة التي تطل على أشجارٍ وزروع.. رأى آريوس رؤى كثيرة لعلها رؤى غير منتظمة.. لكنه رأى في إحدى الوسنات أن غرفته تحولت إلى جنة كبيرة، والآب لوسيان الأنطاكي يقف في وسطها يقول له:

- تحمل يا آريوس ما تحملناه في سبيل الرب.. تحمل يا آريوس.. تحمل يا آريوس..

استفاق آريوس والكلمة تتردد في مسامعه..

لا يعرف كم استغرق من ساعات في النوم، لكنه حين استيقظ وجد راحة نفسية لم يشعر بمثلها قبل ذلك، لكنه ومع هذا تعجّب من كلام القديس لوسيان، لماذا أمره بالتحمل مع أن الأمور قد استقرت وعاد إلى منصبه! اغتسل وغيّر ملابسه، ونزل لتناول العشاء في غرفة شبه مظلمة بالطابق الأرضي، وجد يوحنا أركاف رئيس أساقفة الجنوب ينتظره، ليخبره أن أثناسيوس رفض قرار الإمبراطور بشأن رجوعه إلى الكنيسة، وقال:

- "إن الذي عزله مجمع مسكوني، والذي يُعيده مجمع مسكوني مثله".

ولما خاطبه يوحنا لم يُراعِ شعوره، بل فاتحه دون موارد بما عرفه من الجميع، وقطب آريوس حاجبيه، ورمقه بنظرة قاسية، وقال في نفسه:  
- ليتني لم أغانر أنطاكية، لقد كان بإمكانني أن أهرب مع يوسايبوس إلى نيقوميديا يوم أن هربنا من الدهليز السري، إلى أي مدى يفيد الندم؟ إلى أي مدى؟

وقع الخبر موقعًا عظيمًا، كما يُغرز نصل خنجر في صدر، وعلم آريوس أنه سيواجه صعوبات جديدة، وأدرك حينها تفسير الرؤيا التي رآها في منامه؛ إذ جاءه القديس لوسيان يأمره بتحمُّل الآلام في سبيل الرب! وعزم للتوّ على مقاومة التيار، وعلى العمل كرجل له ألف نفس.

ما كان لأحدٍ أن يُدرك كم عملت هذه الأشهر الأخيرة على إنضاجه وتغييره، على جعله أكبر سنًا من عمره الحقيقي، لعل حياة الترحال الدائم المحفوفة بالمخاطر وأوقات الشدة قد بدأت تستنفد قواه.. قد أهيئ وحده.. وعانى من تجربة المنفى وحده.. لقد هزّت هذه التجارب كيانه من الأعماق، وما زال الكثير من دلالات معاناته باقيًا، كالشَّعر الشائب في لحيته الصهباء، والتجاعيد الرقيقة المرتسمة على وجهه، والليالي التي يضطرب فيها نومه، وأحيانًا ينتاب قلبه إرهاق معين، وتراخي الرغبة عنده.. ولكن الشباب كان يُعاوده إذا أتت ليندا ليسمع صوتها الرقراق كالعصافير تُنشد أشعار ثاليا.

في هذه الأثناء المُلتهبة.. كان القس أسخيراس، أسقف مريوط، قد عرض عليه أن يأتي إلى كنيسة جديدة قد بناها في قرية إيرين بمريوط، بدلًا من استنفاد وقته وجهده في الصراع مع أثناسيوس، تململ آريوس في صمت، وتفهم مشاعره النبيلة، إلا أنه كان دائمًا يرفض الهروب من ساحة المعركة، ووعد أسخيراس بالمجيء لمباركتهم والاحتفال معهم، ثم أرسل ليندا تساعدهم ولتخدمهم في القديس..

\*\*\*

اقترب وقت الفيضان، ولم تجد الأرض من يضع في أعماقها البذور، وعندما غمرتها المياه وانحسرت لم تُثبت إلا الحشائش والمزروعات البرية، كان يجب أن يعود القساوسة باكراً قبل أن يحين موعد الفيضان ويلوح شبح الجوع، تكاثر عدد رسل الكنائس الذين يتوافدون من الجنوب لشهود بناء كنيسة جديدة وإضفاء البركة عليها، حتى وصل أعداد الوافدين للآلاف من شتى بقاع مصر.. وهم يشهدون بناء كنيسة مريوط.

بينما كانت ليندا مشغولة مع النساء في وضع عجين في صوانٍ من الصاج وإدخاله إلى الكانون "الفرن الطيني"، الذي صنعه للتوّ ليقوم على خدمة كل هذه الجموع، ظل العجين يدخل الكانون لينتفخ كالكرات الذهبية، ثم لينخفض مرةً أخرى فور إخراجها، ثم يوضع في سلالٍ مصنوعة من الجريد، ليوزع بعدها على الأساقفة الذين يجلسون حلقاتٍ في الهواء الطلق تغمرهم شمس العصاري الدافئة.

كان مكاروريوس وأبيس -مُساعدًا أثناسيوس- قد وصلا أيضًا ليتلصبا على الكنيسة المزمع افتتاحها، يختبئان خلف الخوص والعشب الطويل القابع في الملاحات البحرية الضحلة.

ظل مكاروريوس يجول ببصره عبر فتحات الخوص الضيقة بعينين مشدوهتين، لا يصدق ما يراه من تدفق الأعداد الكبيرة من الموحّدين، لحظات وأطلق أبيس بصره هو الآخر، وظل يفرك عينيه، ثم تسربت ابتسامة خفيفة بلهاء من بين شفثيه بعدما عجز عقله عن استيعاب الموقف.

لم يمض وقت طويل حتى عزم مكاروريوس وأبينوس على المغادرة لئلا يشعر بهما أحد.

\*\*\*

هُرِعَ مكاروريوس إلى أثناسيوس منزعجًا، وقد بدت على ملامحه الاضطراب وهو يتمتم بكلمات ضجرٍ وغضب، وهو يعضُّ شفثيه قابضًا على أصابعه بقوة.. كان أثناسيوس يعلم ما في نفس مكاروريوس من إرادة الانتقام من المليتين أعداء الرب يسوع -هكذا يسميهم- وبدأ يُهدئ من روعه، محذّرًا له من مغبة أي فعلٍ قد يُضعف من موقف الكنيسة أمام الإمبراطور قسطنطين.

لكن مكاريوس خرج من الإبراشية غاضبًا، وجمع ما يقدر عليه من ماجورين بسلاحٍ وعُصي، واتجه إلى كنيسة إيرين بمربوط، حيث يقطن الأب أسخيراس الميليتي..

في الليل، وبعد ساعتين تقريبًا من انصراف الناس، نهضت ليندا مفزوعة بعدما كانت نائمة متعبة من الخدمة طوال النهار، كان هناك كابوس يرقد على قلبها، وأصوات ضربات مكتومة تبعث من أسفل، كأنها استمرار للكابوس، نهضت من فراشها، ومسحت العرق الذي يغمر وجهها، سارت حافية القدمين، كان صوت تنفس أسخيراس يتناهى إليها رتيبًا ومنتظمًا، وقفت خلف الباب المغلق وتنصت قليلًا، كان الصوت قادمًا من أسفل، دقات عنيفة، أصوات تهشُّم، شظايا تتساقط، كانت الأصوات قادمة من البدروم الخالي، ماذا يحدث؟ هل ثمة هجوم؟ أم إن هناك لصوصًا يعبثون؟ وأي شيء يسرقون إن الكنيسة ليس فيها شيء ذو قيمة، وأصحاب الكنيسة فقراء!

لم تكن هناك ثمة فائدة من إيقاظ السيد أسخيراس، لن تستطيع أن تفعل شيئًا، حملت مصباحًا صغيرًا، وفتحت الباب، هبطت السلم فوق درج بارد يبعث في داخلها رجفة متواصلة، اهتز المصباح في يدها وأوشك على الانطفاء.

وارتفعت أصوات التحطيم، هبطت الدرجات القليلة المؤدية إلى باب البدروم، وهي ترتجف خوفًا، فالوقت متأخر ولا يوجد من تستنجد به، ليس أمامها إلا مواجهة من في الداخل أيًّا كان نوعه، لم يكن الباب مغلقًا، ترددت قليلًا قبل أن تدفعه، رفعت المصباح وخطت للداخل!

كان الرجال يتدفقون داخلين من البوابة الخارجية للكنيسة يتجهون مباشرة إلى المذبح وهم يحملون العُصيّ والسلاسل، كان عددهم أكبر من أن تستطيع الباحة المتواضعة استيعابهم، أساقفة ذوو لحي مسترسلة وعباءات فضفاضة، قلبوا المائدة وكسروا كأس الأفخاريس<sup>(26)</sup> وأحرقوا الكتب، تعالت أصوات الصياح والضرب، شهق القس أسخيراس في رعبٍ وهرب سريعًا، أما مكاريوس فقد كان واقفًا في منتصف الغرفة ممسكًا بمطرقة، بعد أن هوى بها على كأس الأفخاريس المقدس!

هرعت ليندا مسرعة يملؤها الذعر هاربة إلى كنيسة الإسكندرية، في حين

تناهت أصوات النجع الذي استيقظ من الضوضاء، شعر مكاريوس بثغاء البهائم، وحثيث الفلاحين، ونداءات الأطفال، ولكنها كانت في بدايتها نداءات نائية.. ظل الصوت يقترب أكثر فأكثر إلى أن دخلوا الكنيسة.

عندما شعر باقتراب الفلاحين، توقفت يده بالمطرقة واستدار إليهم، كان طويلًا نحيفًا ووجهه غاضب وقاسٍ، تحيط بوجنتيه لحية كثة، وعيناه تبرقان بشدة، فتح المعتدون من أصحابه سلاحهم وظلوا يخيفون بها الفلاحين حتى يفسحوا لهم طريقًا للخروج.

وخرج أرسانيوس وهرب بعيدًا عن الأنظار. للتو تجمّع الفلاحون ليلاً وهم غير قادرين على استيعاب ما يحدث.

بعدما تعالت الأصوات، خرج يوحنا أركاف من بيته في ظلمة الغيطان، وراح يزعق في الناس:

- سوف ينزل المُخَلِّص ويحكم الدنيا ويزول الظلم عن العالم.  
أخذ الجميع في البكاء والنشيج، واهتاجت النفوس، بسط أركاف ذراعيه بطولهما، وخرج من الدرب إلى الساحة كوطواط يخترق الأجواء وخلفه الناس رافعين فوانيس تضيء لهم الطريق، متجهين إلى كنيسة إيرين بمربوط، وحينما وصل إلى هناك أخذه الحماس مرةً أخرى فراح يصيح في الفراغ المحيط:

- أبشروا يا أبناء الرب.. أبشروا يا أبناء الرب.  
أهل النجع داخلهم أملٌ عظيم، وتضاحك بعضهم من فرحته وهو يمسح آثار دموعه.

وقف يوحنا أركاف يهتف بوصت عالٍ:  
- لقد بلغني أن الراهب أرسانيوس قد اختفى.. لا بد أنهم قتلوه وأخفوا جثته.. أثناسيوس قد قتله.. صدقوني يا أبناء الرب!

\*\*\*

أما مكاريوس وأبيس، فلم يجيئا إلا عند منتصف الليل، كانا يحملان تحت إبطيهما العديد من الأسلحة، اتجها نحو أثناسيوس في جذل كأنهما يعيشان لحظة انتصار خاصة، كان أثناسيوس يراقبهما بعينين غائرتين، وعيناه بحيرتان من الحمم البركانية.

وقف أمامهما في تحدٍّ ثم قال:

- هل هذه تعاليم الكتاب المقدس الذي تعلمتماها؟ تهجمان على كنيسة أيها الحمقى!

نعم، إنني لم أستطع طرد شبح آريوس من مُخيلتي، هذا الرجل الذي سبّب لي متاعب كثيرة.. لكنني حاربت آريوس بالفكر وبالقلم، ولم أحاربه بالقتل والقهر.. لقد آليت على نفسي أن أردّ على ثرّهاته، وأنهاي أعمالِي المتراكمة، وأن أنتهي من مؤلفاتي، وبقيت خمسة عشر يومًا مُلازمًا غرفتي، غارقًا في الدرس والبحث. تاركًا نفسي إلى ملكة الإلهام تهيم بي في سبحات الملكوت، في حين أنتما الآن بحماقتكما تُفسدان عليّ كل ما فعلته من أجل يسوع المسيح!

ثم أخرج جام غضبه عليهما، قائلاً:

- حمقى، أوباش، مغفلون! تهجمان على كنيسة؟! أين أنتما من قول الرب "أحبوا أعداءكم باركوا لاعينكم"؟!

قال مكاربيوس بصوتٍ مكتوم:

- لكنها كنيسة غير قانونية سيدي.

سكت أثناسيوس هنيهة، ثم قال:

- قبل الإقدام على فعلٍ طائش يجب أن تعرف تبعاته وعواقبه، لا سيما أنكما قتلتما أرسانيوس.. وها هو الفاجر يوحنا أركاف يتهمني بقتله، وأنني أستخدم أعضائه في السحرا!

قالا في ذهول:

- لم نقتل أحدًا سيدي! أرسانيوس لا أثر له على الإطلاق.

- لا تكذبا عليّ.

- صدقنا لم نقتل أحدًا، يبدو أن أرسانيوس فرّ وهرب.

- إذًا فلتأتوا به فورًا، هاتوه ولو كان في شق الأرض!

ضرب أثناسيوس المتعلقات التي على المكتب، فوقعت بعض الأوراق على

الأرض، ثم قال في قوة:

- اغربا عن وجهي الساعة!

تدشين كنيسة القيامة

في قيصرية كانت الشمس توّرع أشعتها يمينًا وشمالًا فتجعل ألوان النباتات تتألق بهاءً، وتظهر بسحر الأضواء، كان الضجيج مرتفعًا، في حفل تدشين كبير داخل الكنيسة وخارجها، احتفال لعله سيمتد حتى تختفي الخيوط الأخيرة لأشعة الشمس.

جاء الأساقفة من كل حدبٍ وصوب للمرة الثانية، ولكن هذه المرة لم تكن ثمة مناكفة ولا مجادلة كما كان في نيقية، إنما أتوا للاحتفال بتدشين (كنيسة القيامة) التي بُنيت على روح القديسة المُتنيّحة هيلانة أم الإمبراطور. أساقفة الشام ومصر وروما وبلاد الأناضول، منهم من أتى مع القوافل التجارية عن طريق ما يُعرّف بطريق الحرير، ومنهم من أتى في رحلة بحرية من البحر المتوسط، حتى هؤلاء العرب لم يتوانوا في أن يأتوا راكبين جَمّالهم من أجذاب الجزيرة العربية؛ استجابةً لنداء الإمبراطور.

توقّف الكلام للحظات في الكنيسة التي تضم بين جدرانها خليطًا عجيبًا من رجال الفكر الكنسي، وشعر قسطنطين بأنه لم يبق له شيء من الدنيا يفخر به إلا بناء تلك الكنيسة فوق القبر المقدس، هذا العمل المقدس الذي طلبته منه أمه هيلانة منذ عشر سنين، ولم يتم بناؤه إلا في هذا التوقيت! أحس بآلامه تنجلي شيئًا فشيئًا ببركة يسوع المسيح وبركة أمه القديسة هيلانة، الذي ما فتى الناس يهتفون باسمها.. ارتفعت الهمسات واستدارت الرؤوس وتعلقت الأنظار إلى الإمبراطور، وحدثت ضجة تصفيق عارمة اشترك فيها الشيوخ والشباب والبنات، ثم بدأت الحماسة تخفت تدريجيًا، وصدحت القيثارات على الأجواء، وارتفع الغناء والترانيم، والشموع ذوات الفتائل المنيرة.

غامت الدنيا أمام أنظار قسطنطين، وعدّ الشموع، وسمع ترانيم الكهنة روحانية مُبهجة، وتراءت له صورة أمه هيلانة التي لم تغب عن أنظاره طيلة وجوده في القاعة، لم يعد يرى هذه المناظر الطبيعية البهيجة التي يعتقد أنه وجد الحياة في أحضانها إلا من خلال أمه هيلانة التي تعلم منها قيم الصبر والإخلاص والوفاء.

وفي وسط هذا الاحتفال المهيّب، وقف القيصري والنيقوميدي وثيوجينس وباولينوس وجميع أساقفة الشام والأناضول، وراح القيصري يُبشّرهم بأن ثمة

خبيرًا سعيدًا ينتظرهم.. إن الإمبراطور عزم على أن يستعيد كرامة آريوس أمام الناس أجمع، فاستبشر الأساقفة بتلك البشرية، وانتظروا على أحرّ من الجمر صعود الإمبراطور، لحظات قليلة، وصعد قسطنطين المنصة، وشكر لجميع الحضور مجيئهم ومعاناتهم استجابةً لندائه، وأسبغ عليهم وابلًا من كلمات الشكر والثناء، متذكرًا معهم أمه هيلانة التي كانت سببًا في إنشاء هذه الكنيسة المباركة.

ثم قال:

- "أيا رجال الله.. أيا أصدقائي.. إنني أعتقد أننا كنا على وشك التحول إلى أنذال.. لقد طغى الكفر علينا ونحن نجرع كؤوس الظلم وحب الدنيا ورحنا نفرح بالحياة، في حين السكر يعتقدنا بأوهامنا وضلالنا وغرورنا، كنا أقوياء بالكلام وحسب، أما الآن والسياسة توشك أن تسمنا بميسمها الحامي، وتدخلنا إلى سجنها الضيق بسبب النزاعات الكنسية، فأشعر بأننا سنفقد أخلاقنا وعواطفنا وإنسانيتنا، نعم، سنفقد إنسانيتنا حين لا نؤمن بحق الاختلاف، حين لا نؤمن بمن دفعوا الثمن غاليًا بسبب الرأي.

حين لا نعود نؤمن بوجود الشيطان! حينما ندّعي أن معنا مفاتيح الجنة والنار يحق لنا التأسف على فردوس شبابنا، وأوان الطهارة والبراءة التي كنا نحياها ونحن صغار.

آه يا أصدقائي الأعزاء! إذا كنا تَمَنُّعْنَا باللذة ونحن نقترف خطايانا الأولى، فذلك لأن الندم كان يُسبغ عليها جمالًا، ويكسبها روعة، ويجعل لها طعمًا.. في حين الآن علينا أن نُكفِّر عن خطيئتنا.. أو إن شئتم عن خطيئتي! لذلك أفصح لكم وأقول: ليعدُّ أخ لنا عزيز على نفوسنا جميعًا.. كان بإمكانه أن يعيش منعماً.. لكنه آمن بفكرته، وضحّى بزهره شبابيه بالغالي والنفيس من أجلها.. ألا وهو الأب "آريوس بن أمونيوس".

انفجرت الجموع بالبكاء والتصفيق، وتهللت الوجوه الطاهرة، واحتضن الآباء بعضهم بعضًا، وانسكبت الدموع فرحًا من أجل ذلك القرار الذي قد تأخر كثيرًا.. ولسان حالهم يقول:

- ليس مهمًّا أن الإمبراطور أدرك متأخرًا.. المهم أنه أدرك!

ظلت الوجوه ترتسم على مٌحيها معالم الفرحة، في حين اخترق القيصري

الصفوف عندما جاءه خبرُ محزن! اقترب من المنصة، وقال:  
- "المجد ليسوع المسيح".

وحطَّ مصباحه على الطاولة، أطرق يوسايبوس القيصري رأسه هنيهة،  
وتلقَّظ في أذن قسطنطين، بقوله:

- لم أَرِد أن أعكر صفو مزاجك سيدي، فقد جاءنا للتوّ مبعوثنا من  
الإسكندرية، يبلغنا أن أثناسيوس رفض رجوع آريوس، وقال:

- إن الذي عزل آريوس مجمع مسكوني، ولا يُعيدُه إلا مجمع مسكوني، كما  
هجموا على كنيسة للمليتين في مريوط.

استشاط قسطنطين غضبًا لتلك الكلمات، وغمغم قائلاً:

- كانت الشائعات صحيحة إِدًّا؟! كنت أشعر أن أثناسيوس هو سبب  
المشكلة.. إنه يتحداني!

كانت عيناه في أثناء كلامه عن ذلك الحادث تحمران وتدوران في  
محجريهما في حرارةٍ وشدة، وتتهوَّجان كسراجٍ مُتقد، ويظل مدة على تلك  
الحال دون أن يستطيع كظم الغيظ أو الهدوء:

- أين الكونت دينيسيوس؟

صرخ قسطنطين في مستشاره القانوني.

- نعم سيدي!

- عليك بالسفر فورًا إلى الإسكندرية للتحقيق في هذه القضية.

أما أنت يا قيصري فأرسل إلى أثناسيوس بالمجيء للاجتماع العاجل إلى  
قيصرية فلسطين للتحقيق معه، وليُدافع عن نفسه بحضرة رجال الله  
القديسين.

\*\*\*

أثناسيوس يعترض!

علم أثناسيوس أن لجنة التحقيق في طريقها إلى الإسكندرية، فأبان عن اعتراضه وثارث ثورته وخرج متخفيًا في الظلام الدامس (27) وضافت عليه الأرض بما رحبت، وزامت الريح وهي تندفع من فوق التلال، وجد نفسه يبكي، أحس بمدى مهانته، لم يصبح مطارّدًا فقط، ولكن شعر أن المليتين يتعقبونه ولن يأتي عليه النهار إلا وهو جثة هامدة، لا بد أن كهنة المليتين يُعدّون فرق المطاردة الآن! راقب الشاطئ الآخر من نهر النيل، وحركة المشاعل تتحرك فوقه بجنون، هل يعدون القوارب للعبور إليه، ألن يردعهم سكون العالم وحرمته!!

سار مترنحًا يتخبط بين الصخور ويتعثر في الحفر. سمع من بعيد عواء الذئاب، لا بد أنها تنتظر هي الأخرى لحظة سقوطه أيضًا، هُرِع إلى المقابر واختبأ في أحد الأركان، كانت الدنيا مظلمة ولا ينيرها إلا ضوء القمر الخفيف، سمع حركة من خلفه، صوت أقدام.. نظر يَمَنَة وَيَسْرَة فلم ير شيئًا، انحنى على الأرض وأمسك حجرًا، رفعه عاليًا، ووقف متأهبًا يدور حول نفسه.

- هل استيقظت الأرواح بالفعل؟

بدا شبح نحيف من بين المقابر لا يرتدي إلا خرقة ممزقة من الكتان، ثم سمعه يقول: - لا بد أنك ارتكبت إثْمًا كبيرًا، وإلا لما طاردوك!  
تقافز هاربًا من فوق الصخور، وظل يجري إلى أن وصل إلى الشارع الكانوبي الرئيسي، فخفضت نبضات قلبه المتسارعة شيئًا فشيئًا.. ثم توجه إلى الكنيسة بعدما انفضَّ عنها المليتيون.

وفي الصباح الباكر، كان الأمر مفاجأة بالنسبة إليه، فقد جاءت تقارير الكونت دينيسيوس من مريوط، وقد فقد توازنه تمامًا، حينما وجد مبعوث الإمبراطور ينتظره بداخل الكنيسة، رأى شبح الخوف على وجهه وغشيه الهم، وهو يضرب من الحيرة أخماسًا لأسداس.

وهتف في أعماق نفسه: - "أين المفر؟"

- "وما العمل حتى أصون نفسي من الانهيار؟"

إلا أنه في الأخير كان مضطرًا إلى أن يجيب مبعوث الإمبراطور بجواب عاجل.

فقال له: - اكتب على ظهر الرسالة ما يلي: "يا سيادة الإمبراطور، إنني لن  
آتي إلى قيصرية، ولن أقبل آريوس أبدًا".  
توقيع: أثناسيوس!

\*\*\*

الليل ينجلي شيئًا فشيئًا ليتكشَّف ضوء الصبح والغمامة تنجلي أمام قسطنطين، كما ينجلي وشي الثوب عن بياضه، لتظهر الحقيقة البيضاء، وصل قيصرية تباشير العناد.. الأمر الذي اعتبره قسطنطين تحديًا سافرًا لأوامره، فقسطنطين لم يعتقد أن يعترض أحد على قراراته، أو يحول دون رغباته، فاعتبر هذا الرفض من جانب أسقف الإسكندرية تحديًا لسلطاته، أما الأساقفة فأيقنوا أن أثناسيوس يسخر منهم ولا يعيرهم أي اهتمام.

عُقدَ المجمع في قيصرية في الوقت الذي حدده الإمبراطور، جميع الأساقفة الآن حاضرون متأهبون لما سوف يحدث! يوسابيوس القيصري ويوسابيوس النيقوميدي اللذين فرقهما مجمع نيقية بالأمس؛ قد أصبحا بين ليلةٍ وضحاها صديقين اليوم!

حضر جميع القساوسة في ألفةٍ وتوادٍ، ولكن كان الغائب الوحيد، الذي عُقد المجمع من أجله هو "أثناسيوس".. مما زاد التعقيد أكثر، وثارَت ثائرة قسطنطين ولم تنطفئ.

صمم الإمبراطور على أن يسير في الشوط حتى منتهاه، فوجَّه الدعوة من جديد لعقد مجمع للأساقفة في صور، وراح يقول للقيصري:

- أبلغ هذا العنيد أنني مسافر إلى القسطنطينية، وسيعاد التحقيق في مدينة صور، وإن لم يأت فسيخرج من الإسكندرية بالقوة الجبرية.

تنامت الأخبار إلى أثناسيوس، فقبل على مضض، إذ لم يجد بدًّا من طاعة الأوامر.. لكن كيف سيخرج من مأزق أرسانيوس الذي لم يقتله!

انقطع أثناسيوس إلى التنسُّك والدرس في قاعة الدرس الفسيحة التي يُغطي الديباج جدرانها وفي طرفها كَوَّةٌ مُدَبَّبةٌ غير نافذة تحجبها ستارة، وبعد مرور أسبوع تقريبًا، إذ كان يجلس يكتب كعادته، سمع صوت الباب الخلفي مُحدثًا صوتًا ناعمًا، ومَرَّت دقيقة انتظار وحيرة، ثم سُمع صوت مكاربيوس وشخص آخر ولم يُميزه، فالصوت كان خافتًا والكلام مُحتدمًا، ولم يكن يطفو منه سوى بعض كلمات بعيدة.

دخل مكاربيوس وقال:

- سيدي! أخبارٌ سارة! لقد وجدنا أرسانيوس مختبئًا عند أهله بالصعيد، وقد جنُّتُ به معي للتوّ.  
- أدخله فورًا.

دخل أرسانيوس يرتعش من الخوف والبرد معًا، كان الخوف قد فصل كل كلمة من كلامه فبات متقطعًا.. كان يبادلُه أثناسيوس بالسكوت وبنظراتٍ حادة..

قال أثناسيوس:

- أرسانيوس! لقد تألمتُ كثيرًا مثلك، ولكنني لم أتذمر قط، إن هربك مني لا يعني سوى أنك توذُّ أن تجني مزيدًا من العذاب، وقد تقتلني في يومٍ ما، ولكنك -وأنت الطيب الودود- لا تسمح لنفسك بأن تعذبني، ولكن كان يجب ألا تهرب!

كان أثناسيوس الذي يُخفي خوفه وربته بثباتٍ عميق، يتفحص أرسانيوس بنظراته الثاقبة.

ثم أفصح عن دفين غضبه: - لماذا؟ لماذا لا تأتي إليّ بدل العيش عيش الهارين؟ ستكون هنا في مأمن محوَّطًا بالرعاية والاحترام، ولن يكون في مقدور جميع أمراء الدنيا مس شعرة من مفركك.

امتقع وجه أرسانيوس، وارتعدت فرائصه، وعندما سمع نبرات صوته المؤلمة وقرأ في تقاطيع وجهه الشاحب الموت المرعب الذي أخافه، رقَّ قلب أثناسيوس، وسرعان ما تبدلت نظراته إلى نظرات وداعة، وقال: - لا تخف يا أرسانيوس، على الرغم من تلك الخلافات التي كانت بيننا، تأكد أنني

لن أضرك.. أنت تعلم أنهم اتهموني بقتلك، وتعلم -أيضًا- أنني بريء من تلك التهمة، وإن كلمة حق تقولها في حقي يرتفع مجدك بها في الملكوت.. فهل أنت مستعد للسفر معي لتشهد على ذلك؟!

- يا سيدي إنني حي أُرزق كما ترى، ولست على استعداد للإضرار بأحد، فإن كان ثمة كلمة حق في حقك فسوف أقولها.

- كنت متأكدًا أن قلبك يمتلأ بمحبة يسوع، تأكد يا أرسانيوس أنني سأحمل جميلك هذا، ولن أعاديك ما حييت.

ثم تبسم وقال:

- هل لديك مانع في أن تمكث معنا ههنا إلى حين سفرنا للمحاكمة؟

أجاب أرسانيوس:

- كما ترى يا سيدي!

جعل أرسانيوس يرتعش من البرد، فأمر أثناسيوس أن يؤتى بدثار يتدثر به،

ثم صعد إلى الطابق العلوي ليستريح.

اتجه أثناسيوس وقال لمكاربيوس: - يجب ألا يظهر أرسانيوس الآن،

وسيُسافر معنا مُثلثًا، حتى إذا جاءت اللحظة الحاسمة، وأشاروا إليَّ بأصابع

الالتهام خرج إليهم أرسانيوس ليكشف كذبهم على رؤوس الأشهاد، وسينتصر

الحق، ويرتفع مجد يسوع المسيح.

هتف مكار:

- المجد ليسوع.. المجد ليسوع!

\*\*\*

هكذا مضى شهر وبعده آخر، وقبل حلول العام الجديد مباشرةً سافر أثناسيوس مدينة صور في مواعده ومعه أرسانيوس ومجموعة من أعوانه. الكل مُتأهب لظهور أثناسيوس، الذي صعد سلالم كنيسة صور ببطء، محاولاً ألا يفكر أن هذه قد تكون الفرصة الأخيرة له على الإطلاق ليُبرئ نفسه من تلك الاتهامات المزوّرة، حاول ترتيب أنفاسه شهيقاً وزفيراً حتى لا يرتبك، كان أرسانيوس بصحبته مثلثماً، وانتظر بالخارج إلى حين أن يأمره بالدخول، وضجت القاعة بالفوضى حين دخول أثناسيوس.

حكمة أهل الأرض كانت مُجمعة على وجه أثناسيوس المشوب بروحانية القسيسين النورانية، وإنك تستطيع أن تقرأ على هذا الوجه هدوء ملاك يرى كل شيء، أو تعجرف رجل حاذق في كل شيء، ترى عليه آثار المسيح كقديس تقي من الأدران، أو آثار شيطان مريد هازئ من شأنه.. لا تدري أيهما، ولكن أنت بكل تأكيد أمام صنفٍ فريد من البشر.

رفع القيصريّ -رئيس المحاكمة- رأسه حين سمع خطوات أثناسيوس، ونظر إليه هنيهة وعيناه تبرقان، لم ينطق بكلمة، قالت نظراته كل شيء! فالتحدي كان واضحاً في عينيه.

في تلك اللحظة نظر أثناسيوس إلى نفسه متأسفاً لوهلة، وقال كلمته الشهيرة: - "العالم كله ضد أثناسيوس وأثناسيوس ضد العالم!"

استطاع أثناسيوس رؤية وجوه الرجال الملتقنين حوله بدقة، تطلع كل منهم فيه من أخمص قدميه حتى منبت شعره، حدقوا في كل جزء منه جيداً، وزاد هرج المليتين مطالبين بالثأر منه، والقيصري يحاول تهدئتهم: - هدوء.. هدوء أيها الآباء..

كان الصوت للقيصري الذي وجه كلامه إلى أثناسيوس، قائلاً: - يا سيد أثناسيوس، لقد اتهموك بتحطيم كنيسة إيرين، وقتل أرسانيوس، ويقول يوحنا إنك قطعت يديه لتستخدمهما في السحر؛ حيث إن الأعضاء البشرية تُمثل أيقونات ممتازة للأعمال السحرية، هل لديك شيء لتدافع به عن نفسك إزاء تلك الاتهامات؟!

اندفع أثناسيوس بقوة:

- هل لديّ شيء؟

نعم، لديّ الكثير يا سيد يوسايبوس. يجب أن أوضح لكم كل شيء الآن، ثم اثنقوني أو اتركوني بعدها، فأنا لا أهتم إطلاقًا، إنه لم يغمض لي جفن منذ اتهمتموني بتلك الافتراءات، ولا أظن أنني سأنام ثانية حتى أموت.

ثم أي سحرٍ تتحدثون عنه!

هل يوجد في العالم رجل مهما بلغت سذاجته يؤمن بهذا الوهم؟ ألا تعلم أن الخرافات الشرقية قد قدّست هذه الرموز التي تُمثل قوة خارقة؟ لا أظنني أوسم بالغباء في هذه اللحظة، إلا إذا تكلمت عن الغول والعنقاء اللذين تعترف بوجودهما قصص الوثنيين وأساطيرهم.

لكن وعلى أية حال، دعني أصارك بمفاجأة!

أشار أثناسيوس بيديه إلى حارس الباب، فدخل أرسانيوس على مهلٍ مُلثمًا، ثم وقف شامخًا في مُنتصف القاعة كمسماٍرٍ مُنتصب، وما أن فك اللثام وأبان عن وجهه، حتى أصيب الجميع بذهول رهيب..

تبسم أثناسيوس نصف ابتسامة، ووضع كلتا كفيه في جيبه، وقال في ثقة: - ها هو أرسانيوس مائل أمامكم، وهاتان هما يداه اللتان اتهمتموني بقطعهما، فهل كانت له أربعة أيادٍ فقطعت اثنتين، وأبقيت اثنتين؟!

هتف أتباع أثناسيوس بصوت عالٍ:

- "أثناسيوس.. أثناسيوس"، وانطلقت الترنيمات وضجّت القاعة بالفوضى.. في حين أيقن القيصري -في تلك اللحظة- أن هذا الرجل ليس سهلًا أبدًا...

وسط ضجيج تلك الفرحة كان أثناسيوس يستنشق عبق النصر على أعدائه؛ إذ برأ نفسه من جريمة قتل أرسانيوس، في حين لم يحالفه القدر بشأن كنيسة مريوط، فقد كانت التقارير التي أعدتها لجنة تقصي الحقائق جاهزة أمام القيصري، وشهد فلاحو القرية بوقوع الهجوم، كانت التقارير هي سيدة الموقف إذًا!

أصدر المجمع قراراته بالإجماع بإدانة أثناسيوس، وحرّم عليه الإقامة في الإسكندرية؛ خشية أن يؤدي وجوده فيها إلى إشعال نيران الفوضى والانقسام من جديد، كما أعيد آريوس إلى منصبه بالإسكندرية.

قال القيصري في لهجة صارمة:

- "قررت المحكمة استبعاد أثناسيوس من الإسكندرية وإرجاع آريوس إلى منصبه "

وقعت الكلمات كصاعقة حارقة على أثناسيوس، وبدت على أثناسيوس سيماء التعب والإرهاق النفسي من الصدمة، ولم يعد له طاقة على الكلام.. وقال في نفسه: - هل عليّ أن أندم؟ هل انتهى كل شيء بعدما كدّ أنتصر! ترؤى قليلاً، ثم قال للقيصري:

- يا سيدي، أنت لن تفهم موقفي قط، أنتم الخصوم فكيف تحاكمونني؟ أشعر بشيء من الانزعاج، اسمح لي أن أسافر إلى الإمبراطور في القسطنطينية لأشرح له الموقف.

- لا بأس تفضل يا سيد أثناسيوس، ولكن تأكد أنك لو هربت ثانية، فلتعتبر نفسك معزولاً.. ليس من كنيسة الإسكندرية فحسب، بل من شركة الكنيسة رأساً.

تنهّد أثناسيوس ونظر إلى الأرض، وترك القاعة وهو يجر أذيال الخيبة آملاً أن يجد عند قسطنطين شيئاً من الإنصاف.

\*\*\*

بعد مرور يومين من السفر وصل أثناسيوس -أخيراً- إلى أسوار القسطنطينية ساعة العصاري، والعالم لا يزال ساكناً غائماً، سأل عن الإمبراطور ليجده في رحلة خلوية، صمم أثناسيوس أن ينتظره عند بوابات المدينة.

مضى وقتٌ قليل خفّت فيه وطأة الشمس إلى لون ذهبي باهت، ليجد جياداً من بعيد، ومن حواليتها الطيور كأنها الملائكة فوق السُّحب آتيةً من بين الروابي الخضراء، يتقدمهم قسطنطين على جواده القرمزي الذي ربما هو أسرع من الريح.

كان قسطنطين يرتدي زوجاً بنياً سميكاً من القفازات ومعطفاً ثقيلاً من الفرو ذا قلنسوة غطت أذنيه، وبدا كأنه دبُّ على صهوة جواد، وكان سيفه المصقول خلف ظهره بارزاً. صاح أثناسيوس من بعيد:

- أريد لقاء الإمبراطور، أريد لقاء الإمبراطور.  
تقدّم خمسة من الصناديد طوال القامة يقفون كحائل صدّ بين أثناسيوس  
وقسطنطين.

كان قسطنطين منشغلاً بخلع قفازاته وأغراضه، وأمامه الجندي الذي يناوله  
الأغراض، أخذ جرعة من الماء، وتمضمض وقذفها، ثم قال وهو ينظر إلى  
الشغب الحاصل: - من هذا الرجل؟ وماذا يريد؟!

انعطف عليه الكونت دينيسوس قائلاً:  
- يبدو أنه الأسقف أثناسيوس، فقد رأيته بالإسكندرية ليلة التحقيق في  
قضية مريوط.

قال قسطنطين:

- اللعنة يا دينيسو، ليس ورائي إلا هؤلاء!  
- ماذا تريد يا أثناسيوس؟ أليس كان جديراً بك أن تكون ماثلاً في صور، أم  
إنك لم تحضر المجمع كما لم تحضر قيصرية؟!

- جئتك للتوّ من صور سيدي، وقد وقع ظلمٌ عليّ في المجمع المنعقد هناك.  
نظر إليه قسطنطين نظرة المتعالي مع نوع تهكُّمٍ وهو يجفّف يديه  
المُبَلَّلَتَيْنِ، ثم قال: - إن رئيس المجمع هو يوسابيوس القيصري، وهو ممن  
وَقَّعُوا على قانون الإيمان النيقاوي، فأى مصلحةٍ في أن يدينك!

وهذا الذي بجواري هو الكونت دينيسوس صاحب التحقيق في قضية  
مريوط، وليكن في علمك أن دينيسوس رجل وثني، ليس له أي مصلحةٍ أن  
يكون في صف المليتين ولا في صفك، هو رجل محايد بكل ما تحتمله الكلمة  
من معنى، قام هو وفريقه بتقصّي الحقائق وجمع المعلومات فحسب، فأى  
ظلم تتحدث عنه؟!

- ثمة تفاصيل أخرى أريد أن أخبرك بها سيدي.

قال قسطنطين:

- على كل حال، سأرسل إلى من كانوا في مجمع صور ليمثّلوا إليّ جميعاً،  
وتأكد إذا كان لك حق سوف تأخذه بموجب العدالة.  
يا سيادة الإمبراطور، أريد أن أتكلم معك بانفراد.  
أجاب قسطنطين باستنكار:

- بل سوف تتكلم أمام الجمع الذي سيمثل أمامي!  
هم قسطنطين بالرحيل وقد تقدم بضع خطواتٍ، إلا أنه توقّف كمن تذكر شيئاً مهمّاً، ورجع إلى أثناسيوس ثانيةً، واضعاً كلتا كفيه على خصره، وقال مبتسمًا: - الحق أقول لك إنك قد اختصرت علينا المسافات سيد أثناسيوس، جميلٌ أنك حضرت بقدميك إلينا؛ كي لا تهرب ثانيةً كما هربت من حضور قيصرية.

ثم قال للجنود في حزم:  
- تحفظوا على هذا الرجل فورًا.  
مضى قسطنطين مسرعًا، وأمسك الجنود بأثناسيوس، في حين هو يقاوم وظل يردد: - الرب يحكم بيني وبينك... الرب يحكم بيني وبينك!

\*\*\*

لحظات الوداع الأخيرة!

في تلك الأثناء الملتهبة عاد آريوس بقرار مجمع صور، وعلى الرغم أنه كان يائسًا ولا يكثرث بالرجوع، فإنه وصل حي بوكاليا ليلقى إخوانه وأحابه ممن يمتلئ قلبه فرحةً لرؤيتهم، وطمّن أن هذا نهاية المطاف ليرتاح أخيرًا، لكنه لم يصدق عينيه من هول الفاجعة التي رآها حينما دخل الكنيسة! لقد رأى الكهنة قد أطعموا كُتبه للنيران، وقف مشدوّهًا للحظات من الصدمة ورماد الكتب يتناثر أمام عينيه، كما يتناثر الهاموش على ضوء النيران أيضًا، ووجد ليندا تقف مع الراهبات وهي تبكي، ولا تتكلم بشيء. لم تستطع أن تضع عينها في عينه.. كأنها كانت تقول له: انتهى كل شيء، وهو يقول في نفسه: حتى أنتِ يا ليندا؟!!

شعر حينها بالدموع تتجمّع في عينيه، ولم يجد أحدًا مِمَّن كان يعرفه في الكنيسة، فقط وجد وجوهًا خشبية، تسمّرت الأعين إليه، ولاحظ فجأة أن جميع الجالسين قد لاذوا بالصمت، فقط يُحدقون فيه، حاول أن يدخل مكتبه الخاص، لكن سرعان ما وجد أعوان أثناسيوس يقفون له بالمرصاد؛ ليمنعوه من الدخول، فأدرك أنهم قد أعدّوا للأمر عُدَّتَه، شعر حينها بالهبوط والدوار المفاجئ، تماسك نفسه حتى لا يبدو ضعيفًا.

- "أستاذنكم".

قالها بما تبقى لديه من كرامة، ودار على عقبيه، واندفع مغادرًا قبل أن يروه يبكي، وقد اشتبكت قدماه تحته وهو يحاول الانصراف، وترجّح جانبًا ليرتطم بواحدة من الخادمت، وسقطت آنية الطعام التي تحملها وتحطمت على الأرض، دوّت الضحكات من حوله، شعر آريوس بالدموع الساخنة تسيل على وجنتيه، وتحركت ليندا في أعقابه؛ لتخرج معه إلى الظلام الدامس.

رمى أبيس خلفه الإبريق ليتهشم على الأرض، قائلاً:

- لا مكان لك عندنا أيها المهرطق!

ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأظلمت الدنيا عليه، ظل أيامًا عديدة لا يأكل حتى شحب وجهه.

جاءه للتو بصيص نورٍ وأملٍ من بعيد.. فلقد جاء مبعوث الإمبراطور يطالبه بالرحيل إلى القسطنطينية ليتقلد منصبًا رفيعًا في كنيستها، حينها أيقن أن لا

مكان له بالإسكندرية..

دارت طاحونة من التساؤلات في عقله:

هل يجب عليه أن يرحل عن كل شيء؟

عن الناس الذين أحبهم وأحبوه؟

هل يرحل عن سنواتٍ عاشها بحلوها ومرها؟

هل يرحل عن سعادته وآلامه.. عن عطشه وجوعه، عن الحب وعزف

القيثارة؟!

غداً سوف ينساب كعصفور يشقُّ الهواء برشاقة، ولن تكون له عينان ليرى

بهما ليندا لتشدو بالترانيم، ولن تكون له أذنان ليسمع أغنياتها كما يسمع عنادل

الطير الشادي، سيمر كل شيء كأن آريوس لم يكن موجوداً في زمنٍ ما،

لعلهم يذكرونه في غياهب التاريخ، ويقولون إن رجلاً بالإسكندرية كان يُناضل.

قد يحزن الشباب والفتيات الذين جعلوه قدوةً لهم، لكن وعلى كل حال،

الأيام سوف تمر وسينسونه يوماً ما.. وسيخرجون للهو والفرح، وسيأتي

الفيضان وينصرم كل عام.. وستبيض تباشير ثلوج التلال البعيدة ثم تنقضي،

ستظل كل شجرة تنشر ظلها.. كل الأشياء ستبقى إلى الأبد، وسيظل هناك

رجال فرحون بعيون تشع حيوية، وكلهم دونه!

لن ينال هو من كل هذا أي شيء! سيكونون قد انتزعوا جسده بعيداً عنه،

أما روحه فقد غدت في الإسكندرية التي عرف فيها أطيب الناس من إخوته؛

عرف فيها الفقراء.. البسطاء.. الأطفال.. العذارى.. كل الناس الذين أحبهم.

جهز آريوس كل شيء بالليل من متعلقاته، مُتأهباً ليلحق بإحدى السفن

الليلية.. أما ليندا فقد تطوعت أن تساعد وقلبها يعتصر ألماً، كان لسان حاله

يقول: إنني أصبحت غريباً ها هنا.

تكوّم آريوس على الأرض والليل يجثم مُطبّقاً على آخر ضوءٍ للنهار

والسكون الرهيب حوله، لعله لم يكن ثمة صوت إلا صوت كروان من بعيد

يُسبح بحمد ربه، وأصوات هواء وعواصف سمعها آريوس كأصوات أشباح

تتصارع.

-هل سأراك مرة أخرى؟!

سألته ليندا وهي ترتعش، لاذ آريوس بالصمت شارداً في تيه أفكاره

واضطرابه ، واحتضنته ليندا لأول مرة وهي تجهش بالبكاء وضمَّها آريوس إلى صدره الحاني في صمت الليل البهيم..  
ونجمتان تتلألآن في السماء على المدى البعيد.. لتخبراهما بمصيرٍ مجهول..

\*\*\*

كانت السماء لا تزال مُرصعة بالنجوم عندما وصل آريوس إلى القسطنطينية، كان يوسابيوس هناك؛ لاستقباله على أحرّ من الجمر، وما أن دخل عليه حتى هتف: - الحمد لله! الحمد لله! إن سعادتي غامرة، لقد أخبروني بأنك عدت بقرارٍ مَلَكِي!

اقترب منه، وانتصب آريوس قائمًا، وبشَّ في وجهه، وقال في فتور:

- مرحبًا يا يوساب!

وعلى رغم أنه في هذه المرة أتى ليتقلد منصبًا رفيعًا يحلم به كل قسٍّ في ذلك الوقت، فإنه لم يكن سعيدًا قط، أصبح لا يهتم بأي شيءٍ سوى راحة البال.

نظر يوسابيوس في عينيه وأدرك ما بدا على هذا الوجه من إرهاقٍ مُهلك يبعث على الشفقة، ورأى تلك النظرة الهادئة بشكلٍ غريب.

هل هو شعور بالاستسلام؟ أم شعور بالرضا والسكينة وعدم المبالاة؟!

أدرك يوسابيوس على الفور أن هذا الرجل لم يعد صديقه الذي يعرفه، فإما أن روحه قد انفصلت عن الواقع، وراحت تهيم على وجهها على درب أحلامٍ نائية، وإما أنها وقفت على البوابة التي تؤدي إلى خارج الحياة منتظرة الموت! سأله برقة:

- هل أنت مريض؟!

أجاب صاحبه بنبراتٍ مترددة، واستحضر الكلمات العسيرة من أغوار نفسه، ولم يجرؤ على أن يبوح بما يختلج به صدره لأحد، حتى ليوسابيوس النيقوميدي صديق عمره، إن آريوس غمرته فجأة أحزان خفية طافية من باطنه، وأخذته مما حوله، فظلَّ شارِدًا، فما عاد مهتمًّا بهذا الحطام الدنيوي الزائل لا محالة.

حاول يوسابيوس أن يمزح كعادته؛ ليُخرجه مما هو فيه، قال يوسابيوس:

- يا رجل لم أعد آبه للسعي لتحصيل علمك، الآن بات شعوري نحو كل

علمك وذكائك هو نفسه ما كنت أحس به وأنا صغير نحو المُعلم لوسيان.

على الرغم من أنه قال هذا مازحًا، فإنه لم يتمكن من رسم أية ابتسامة

على وجه صديقه الحزين.

تفحصه يوسابيوس بصمت، وكانت نظرته أشبه بالمداعبة، ثم قال:

- يبدو أن الشيطان قايع في الإسكندرية لا يتركها منذ أن بناها الإسكندر المقدوني!

أجاب آريوس في حزن:

- لا تظلم الإسكندرية، إن الشر لا يقبع في الزمان ولا في المكان.. إن الشر فينا نحن يا يوسايبوس.. الشر في نفوس بني البشر.

كان يوسايبوس لا يزال يشعر بأن آريوس فوق كل ما يحدث، وأنه لن يخضع لأية تأثيراتٍ محبطة، فقال جادًا في هذه المرة: - ولماذا التشاؤم إددًا وقد انتصرنا؟! فلتعد إلى شركة الكنيسة سالمًا غانمًا، وفق إرادة الرب.

أما آريوس الذي عصفت به الأيام، واشتعل المشيب في رأسه ولحيته، أجاب في حزن: - أنت واهم يا يوسايبوس، فالمعركة بين الخير والشر قائمة حتى نزول المسيح ثانية قرب يوم الدينونة.

ثم إلى أين أعود؟

لستُ على كل حال معتقلًا بين هذه الجدران، ما معنى بقائي هنا؟ لقد بدأ المسيح بشارته العظمى بين الناس، لا وسط الجدران والرهبان والقسوس. لم يكن في وقته شيء يُسمى "شركة الكنيسة" التي يُدخلون بها من شاءوا في رحمة الله، ويمنعون بها من شاؤوا من رحمته!

لقد كانت حول المسيح حياة حقيقية.. الناس.. الفقراء.. البسطاء.. الشعب.. النساء.. الأطفال ممن يرجون رحمة الله، والخلص الحقيقي ليوم الدينونة.

صدقني يا يوسايبوس، إننا نموت خلف هذه الجدران المغلقة، فلماذا نموت نحن قبل أن نموت؟

إيه يا يوساب! كنتُ قد تعبتُ من الترحال الدائم، وآن لي أن أجد ملادًا بقية عمري، فأهنا بسكينتي حينًا، ثم أموت ميتة هادئةً تنسلُّ فيها روعي من صخب هذا العالم القاسي واضطرابه إلى صفاء السماوات..

\*\*\*

في صبيحة اليوم التالي، وصل الصديقان إلى أسقف كنيسة القسطنطينية ألكساندروس، جلس آريوس بالخارج، في حين دخل يوسايبوس ليلغه بقرار الإمبراطور، لم يُرَقْ للأسقف ألكساندر -أسقف المدينة- رجوع آريوس،

فعارض رجوعه، وكانت مشادة كلامية حادة بينهما، راحت الأصوات تتعالى، وراح يوسابيوس يهز يديه إثر تلك المشادة الساخنة مع ألكساندر.

خرج يوسابيوس وكاد الباب الخشبي يتهشم إثر إغلاقه الباب من خلفه، عبر الردهة وكادت عباته تراود نفسها لتقع، لولا أنه اجتذبا بيديه، أقبل القيصري مهرولاً لما سمع بالنزاع الحاصل، ووقف أمام ألكساندر يجادله.

كان الرجلان يقفان بشموخ صنمين متقابلين، حاول ألكساندر التملق للقيصري، قائلاً: - "أهلاً بشيخ مؤرخي الكنيسة ومستشار الإمبراطور".

قال ذلك ويديه تداعبان لحية القيصري للتودد إليه:

- أجبني يا ألكساندر، لماذا تُعارض رجوع آريوس؟

- نحن نتمسك بقرار مجمع نيقية المُقدس الذي حل فيه روح القدس<sup>(28)</sup>.

قال يوسابيوس:

- روح القدس حل بالمجمع؟!

إلى متى هذه الوصاية الدينية؟

إلى متى وأنتم تعتقدون أنكم أوصياء الرب؟!!

وقد عقدت مجامع كنيسية أخرى فلم تلقوا لها بالاً، وقسطنطين الذي أصدر

القرار هو نفسه الذي أمر برجوع آريوس.

قال ألكساندر:

- إنني على يقين أن روح القدس قد حلَّ في ذاك المجمع دون غيره من

المجامع.

تبسم القيصري بسمة الواثق، وزفر زفرة سخرية، ثم قال:

- هل أنت مقتنع في قرارة نفسك بما تقوله سيد ألكساندر؟! إن

قسطنطين لم يكن قد تعمّد بالمسيحية وقت انعقاد المجمع، فهل تظن أن

روح القدس سوف يحل في مجمع إمبراطوره كان لا يزال وثنيًا!

يا سيد ألكساندر، إنك تخاطب قسيسًا قد خبر أمركم، ولست تخاطب عاميًا

ساذجًا! إن روح القدس سرُّ علوي مُقدَّس وهبه الله لأنبيائه ورسله، فلننرّه

خلافاتنا الدنيوية عنه إداً.

- على أية حال يا سيدي، هذا أمر الإمبراطور، ولا مناص لي إلا التنفيذ!

- أحسنت الرأي، لم آت للنقاش معك، فمعنا قرار الإمبراطور، وهو واجب

التنفيذ.

\*\*\*

كان ألكساندر أسقف القسطنطينية قد أعدَّ للأمر عُذَّتَه، فاليوم استقبال الأسقف آريوس في كنيسة القسطنطينية.

استقبله ألكساندر بوجه بشوش، حاول أن يصطنع الابتسامة، وألحَّ عليه أن يشرب شيئًا، قبل أن يغمز للخادم أن يأتي بالفطور. أكل آريوس الطعام وشرب من الكأس الذي أعطاه إياه ألكساندر، وهو ينظر إليه وعيناه تلمعان! بعدها خرج آريوس إلى الكنيسة وسط تهليل الناس فرحين برجوعه، وانتصار التوحيد على الهوميسية، كان مطر خفيف كالبكاء يرشق الأرض الناعمة بعذوبة، وكأن السماء تعلم ماذا سيحدث لهذا الشيخ الحزين، فابتدرت بالبكاء عليه قبل حدوث الفاجعة!

ضوء الشمس الذهبي يميل بدلال، فيداعب تلك الفرش الممدودة على الأرض. كان الناس يصطفُّون صفين متقابلين مهللين برجوع آريوس، في حين هو قد بات لا يكثرث لشيء، وكان يوقن بأن الأمر كله بيد الله، وما مرَّت إلا لحظات، حتى تجمعت أصواتُ أهل المدينة.

وعلت جميعًا بالترنيمه المجيدة، بعد حين صار نحيب الترنيم بكاءً، ثم صار بكاء المُرْتلين نشيجًا، ثم صار عويلًا يكسر القلوب، لحظات وبدأ آريوس يشعر بساقيه متصلبتين على نحو مؤلم.. تحامل على نفسه وظل يترنح يَمَنَّةً وَيَسْرَةً.. في تلك اللحظات تذكَّر اليوم الذي جاء فيه بحثًا عن القديس لوسيان، والمناظرة الأولى التي خاضها كأمر واقع، والضجة التي أثارها حديثه بين الناس، تذكَّر أيامه الجميلة التي قضاها في أنطاكية... مناظرته لكاهن معبد أبوللو.. هروبه من الدهليز السيري مع صديق عمره يوساييوس... تذكر وقفته الفريدة يوم مجمع نيقية... تذكر البسطاء والفلاحين الذين أحبهم وأحبوه.. تذكر كل هذا في ثوانٍ معدودة!!

والأهم من ذلك أنه تذكر كلمة الأب لوسيان "إنك إن عرفت الحقيقة قد تعيش مرتاح البال، لكنك لن تعيش سعيدًا أبدًا"، تلك الكلمة التي تكرر معناها، وظلت تتأكد له بمرور الأيام.

بدا شاحب الوجه، مُغتمَّ النفس، لحظات وبدأ بالتقيؤ الفجائي، هُرِع إليه

القسوس يساعدونه، حملوه إلى الحمام العام، تقياً آريوس كل ما في بطنه، كان القيئ مصحوباً بالدم، نظر حينها إلى صديق عمره يوسابيوس وتبسّم له، وكأنه يعرف ما سيحدث لاحقاً، فشرد من جديد يفكر في رسالته في الحياة، إن كان قد قضى واجبه أم ستركها بدّين في رقبتة!

كانت أطرافه ترتعش، لكنه يحاول التماسك في كل مرة تخرج فيها عن السيطرة، في حين يراقبه صديقه في محاولة قراءة ما يجول في خاطره، حتى توقفت حركة يده تباغاً تلتها حركة قدميه ورمشة عينيه، فأطاعها جسده بالكامل، وانسلت روحه كعصفور يطير إلى السماء<sup>(29)</sup>.

مات آريوس وصعدت روحه إلى باربيها، وانتحبت كنائس الشام وآسيا الصغرى وأعلنوا الحداد شهراً، وأما قسطنطين فقد استقبل الخبر كالصاعقة التي اهتزت لها جميع أركانه، وظلت قواه تتضاءل شيئاً فشيئاً، وعلى رغم قوة جأشه وصلابة قلبه، فإنه شعر بشيء ما يؤرقه، ربما شعر بالذنب تجاهه، وأنه اشترك بشكلٍ أو بآخر في قتله.

كان يتذكره والأسى أخذ منه كل مأخذ، تصرفاته أصبحت رقيقة بعد تكشّف الحقيقة له، وتندّى جبينه من عرق الخجل والحياء، الخجل من أعمال نسبها الآن إلى الطيش والغفلة، والحياء من تصرفات ما كان ليُقدم عليها لو تأتّى وترتّب وأعمل الفكر.

بذل قسطنطين جهد الجبارة لكي يظهر أمام الجميع بمظهر اللامبالاة. ففي القصر كان يتصرف أمام الخدم بهدوء وثقة كأن شيئاً لم يحدث، وأمام الوزراء يتابع أعمالهم بجدّ ودقة، ولا يُظهر أي شيء مما يخالج نفسه من ألمٍ وشقاء، غير أن النفس البشرية لا تتحمّل أكثر من طاقتها، ومهما كان قسطنطين قوياً، فهو -مع ذلك- إنسانٌ كغيره من الناس، ذو طبيعةٍ بشرية لها طاقةٌ معينة.

فقد صبر وصابر، وتجلّد واحتمل، وكافح، إلا أن الشرارة قويت ثم اشتعلت فامتدت إلى مشاعره وأحاسيسه، وزاد حزنه وتحمّل في نفسه أكثر مما يحتمل إلى أن جاءت القاصمة!

\*\*\*

اعترافات قسطنطين

في صباح يوم من أيام آذار بعد مُضي بضعة أشهر على هذا المشهد المؤلم لآريوس، وجد قسطنطين نفسه نائمًا على سريرهِ، قرب النافذة، محاطًا بأربعة أطباء، يتنافسون في جسّ نبضه، ويوجهون إليه أسئلتهم بلهفة واهتمام، وكان قسطنطين يقرأ أفكارهم بدرس حركاتهم والتجاويد التي ترتسم على جباههم، كهذا الفحص الطبي أمله الأخير للنجاة..  
قال كبير الأطباء:

- الإمبراطور أرهاق جسمه بالإفراط في التفكير والحزن، وبإبتهاده عن طرق الوقاية، إن العمل العنيف للجسم والدماغ قد أفسد لعبة جميع الأعضاء، ومن السهل يا سادتي أن نعرف من الأدلة التي تظهر على الوجه والجسم ارتباك المعدة الخطير، وتوتر الأعصاب، والسويداء.. لقد لاحظتم دون شك تضخّم الكبد، وقد راقبنا أيها الزملاء هضم سيدي، فوجدناه مصابًا بعسر هضم دائم. وبكلمة واحدة لم يبقَ للمريض معدة صالحة!

لقد اختفى الرجل وتبلدت قوة ذهنه؛ لأن معدته لم تعد تقوى على الهضم، ومن هنا ينشأ اضطراب أعصاب، وقد أثر هذا الاضطراب على دماغه أيضًا.  
ومع خروج الوفد الطبي، كان زائر يقف على عتبة الباب، أحبه قسطنطين كثيرًا بعدما كان يكرهه يومًا ما، إنه يوسايبوس النيقوميدي صديق المُنتيح آريوس لا يدري لماذا ابتهج عند رؤيته! ربما كان يُذكره بآريوس، ووجد أن الوفاء لصديقه هو وفاءً له.

- سيدي أدام الرب عليك وافر الصحة والعافية.  
- إنك خير الصاحب والجليس يا يوسايبوس، لم تغب عني لحظة منذ رقدتُ في فراشي على رغم ما بدر مني تجاهك!  
إنه كان حب الذات يا يوسايبوس! حب الذات هو الذي كان يغلي بين ضلوعي. لقد أردتُ أن أظفر بالمجد مهما كان الثمن، حتى على حساب المظلومين!

قال يوساب:  
- فليغفر لك أبونا الذي في السماوات يا سيدي.  
- دعني إددًا أخبرك بقصص عودتي من طيشي وجنوني آه! يا لشيطاني! إنني بعد موت كونستانيا تفرّعت من نومتي التعسة مرات عديدة، وأفقت على

أحلامٍ مُفجعة، المرة الأخيرة، كانت ساعة الغروب.. ما زلت أتذكر ذلك جيدًا يا يوسابيوس، أردت أن أعاود نومي وغيبوتي، فتجافت عني أرضية القصر وجدرانه.. لم أعرف من شدة تعبي وأنا أفرك عينيَّ إذا ما كانت تلك بدايات نهار جديد، أم شمس تغرب مرة أخرى، تغلبت على نفسي وهُرعت إلى خارج القصر حيث الهواء الطلق، وددت لو أغفو، فلا أصحو.

تذكرت وصيتها لي قبيل موتها، وسألت نفسي: هل ظلمتكم حقًا؟! وكيف أعلم ذلك يا يوسابيوس وأنا لست مسيحيًا مثلكم، لا أعلم شيئًا عن اللاهوت؟ مرت بخاطري أوهام كثيرة، واجتاحتنى المخاوف.. كنت خائفًا مني، ومن أيامي الآتية، ليلتها امتلأ نومي بالأحلام، وامتلأت أحلامي بكونستانيا الحنون القاسية، الباكية الضاحكة، النقية القديسة.. وتذكرت الراهب تيودوس؛ لأنه يحمل نفسًا نقية أيضًا، كم هم الأنقياء قليلون في هذه الدنيا!

لم تتوقف برأسي ليلتها طاحونة الأفكار المتناقضات، بل كادت تطحن مع الأفكار قلبي وتتلف روعي. رحمت أقول في نفسي: - لو خرجت إلى القديس تيودوس فلعلي أعرف الحقيقة!

قال يوسابيوس:

- **ومن هو تيودوس سيدي؟!**

تنهد قسطنطين ثم تبسم قائلاً:

- تيودوس... ومن كمثّل تيودوس؟! ذاك الراهب الطبيب النبيل الذي غيّر كثيرًا من قناعاتي تجاه الألوهية! تلك قصة طويلة يا يوساب! لكنني سأقص لك ما حدث ليلتها..

في ليلةٍ من الليالي وبعد وفاة كونستانيا كان الليل قد ثقل على السماء، وبدت النجوم وكأنها تجاهد كي ترفع ظلمته.. بيوت روما لا تكثرث للمساء، تطل من نوافذها أنواعٌ كثيرة، وحركة الناس هناك لا يمنعها هبوط الليل، سألت ليلتها عن الطبيب تيودوس في البلاط الروماني، فأخبروني أن رجلًا طبيعيًا كان يُدعى بهذا الاسم، لكنه ترك قصره الفاره الذي كان يعيش فيه، واتجه إلى العبادة والتقشُّف في الأدغال.

قلت في نفسي:

- أظن أنني أعلم أين هو الآن!

فاتجهت أنا والجنود إلى ضواحي نهر الراين، حيث المغارة التي قابلته فيها أول مرة.

دخلت عليه المغارة فوجدته حَقًّا وقد صدق حدسي، رجل نحيف رث الهيئة وقد زادت التجاعيد في وجهه وبدا عليه كبر السن أكثر مما تركته، تعجب من هيئته الرثة وثوبه المتواضع المرقع.

حينها قال الجنود:

- ندخل معك.

قلت:

- لا.

تفحصت كل التفاصيل، لا شك أن هذا الكهف كان في حالةٍ مزرية وعلى الرغم من كل شيء، فقد كانت جاذبيته قوية تمامًا. كان حقيقياً وواقعياً، مترعاً بالروعة وبالمصير المحتوم، حتى إنني أشعر أن ثمة أرواحاً طيبة تحيط بالمكان.

تفاجأت بقول تيودوس:

- أهلاً بالزائر الذي زارنا منذ عشرين سنة.

حينها تعجبت من فراسته المدهشة.

همهم تيودوس متبسماً:

- لا تتعجب فأنا أعرف زواري من أنفاسهم وخطواتهم، لكن يبدو أنك في

ورطة!

الغريب أن تيودوس لم ينظر إليّ ولم يُعِرني أي اهتمام، الأمر الذي أثار

حفيظتي!

قلت له:

- الطيب تيودوس، ما الذي يجبرك على المكوث هنا؟

كان تيودوس منهمكاً في كتاب لأبقراط وهو بين مكتبته الحافلة المشحونة

بمخطوطات الأناجيل، غير مهتمٍّ بي وبمجيئي إليه!!

قلتُ مغضباً:

- رُدَّ عليّ.

ضربت المنضدة بقوة فوق أحد السوائل الطبية على الأرض.

صاح وقد عقد حاجبيه:

- أوقعت الترياق!

كما أوقعت نفسك في مغبة القول على الله بغير علم!  
انتابنتي رعشة في جسدي، تعجبت من خوفي منه مع أنني لم أخف من  
أحدٍ قط.. لكن يبدو أنه رفق بحالي، وسرعان ما تبسّم، وقال: - "كنت قد  
صنعتُه لأحد المرضى في القرى المجاورة، إن هذا الترياق المائل أمامك  
معجون مركب من عدة مواد نباتية وحيوانية منها لحوم الأفاعي، وكان يقصد  
منه القدماء مقاومة سم ذوات السموم.

تبسم تيودوس بسمة بائسة، وقال:

- قد استفدته من كتب أبقراط وجالينوس.

صدقني لا يهمني هذا الترياق أن يقع؛ لأنني أستطيع أن أصنع مثله، لكن  
الأهم من ذلك ألا تقع أنت سيدي الإمبراطور!  
كيف؟!

وضّح لي المراد سيد تيودوس؟

- ألا تقع في القول على الله بغير علم!

كما أوقعت نفسك من قبل، وجئتني الآن تطلب المساعدة!  
تعجبتُ من فراسته المدهشة للمرة الثانية إذ قد كاشفني بما يختلج به  
صدري، وتذكرتُ لما كاشفني منذ عشرين سنة بشأن عاهرة الحانة!  
فاجأني بصوتٍ أجشّ:  
- تريد مساعدتي؟!!

هل القديسون الذين أيّدوك في المجمع لم تجد منهم مساعدة؟

لم يابه وظل يسترسل قائلاً:

- إن هناك علمًا يا قسطنطين يجب عليك أن تعرفه، هو أهم من علم  
أفلاطون وسقراط، وأهم أيضًا من علم جالينوس وأبقراط.. ذلك العلم هو  
علم الوحداية!

ليلتها يا يوسابيوس جلسنا متقابلين، صامتين، هو جالس على الأريكة  
الخشبية يحدق فيّ بعين ملؤها القلق والشفقة، وأنا مطرق شارّد بأفكاري،  
وما زالت كلمات كونستانيا تتردد صداها في أنحاء روحي..

لا أذكر تحديدًا ماذا حصل في تلك الليلة، إلا أنني أذكر أن تيودوس أغلق اللقافة المخطوطة التي كانت بين يديه.

ثم مشى بضع خطوات قابضًا على لحيته وهو يقول:  
- يبدو أن الدرس الذي علمته إياك منذ عشرين سنة لم يدخل قلبك سيد قسطنطين!

الحق أقول لك:

- إنه لم يكن لك غرض من ذاك المجمع سوى الحفاظ على وحدة الإمبراطورية، وحسم أي انشقاقاتٍ سياسية محتملة. أليس الأمر كذلك؟  
أجبتَه على الفور:  
- بلى، هو كذلك.

- ظننت يا قسطنطين أنك تستطيع حسم كل خلاف بسيفك؟  
هكذا قال لي، والحق أن كلماته هي التي كانت تطعنني بالسيف.  
أخذ يحدِّثني يا يوساب، وكأنه يعلم كل شيءٍ عني، وليس في مغارة بعيدة نائية عن الأنظار.

ليلتها طلبتُ منه أن آخذه معي ليعمل رئيسًا للأطباء في البلاط الملكي.  
وقلت له:

- في مقدورك أن تعيش عندي عيشة الملوك!  
أغمض تيودوس عينيه ورفع ذراعيه ببطء يَمَنَّةً وَيَسْرَةً، وكأنه يستقبل شعاع نور من السماء ودخل في نشوةٍ عميقة، وظل يجوب الكهف ببطء شديد، قائلاً: - أصدقك القول إنه قد خطر لي أن أظل بالمغارة بقية عمري؛ أتفرغ تمامًا للعبادة وأهجر الطب والأطباء متوغلًا بقلب صلواتي وسُبُحاتي في الملكوت، أردتُ أن أضرب في التقشُّف المثل الأروع؛ لن آكل في اليوم والليلة إلا ثمرة واحدة، وإذا عطشت سأبلل شفتيَّ بالماء وأعود لخلوتي وكل ما كنت أرغبُ فيه، فأصير إذا أخلصت النية قديسًا.. لن أشغل نفسي بشيء من حطام هذه الدنيا الفانية.. لن يشغلني إلا تسبيح الرب، ومشاهدة الحقائق... حقائق الوجود المتجلية على باطني الذي سوف أجلوه فيصير كالمرأة... باختصار عزمت أن أصفو عن كدر هذا العالم!  
خرج من نشوته وفتح عينيه ببطء ثم ارتسمت ابتسامة على شفتيه،

وأضاف في تودة: - أما اشتغالي بالطب الذي تراه، فذلك لَمَّا رأيت فقراء أهل القرى المجاورة يحتاجون إلى من يخفف عنهم آلامهم؛ فكنت في هذه المغارة لخدمتهم، ولخدمة الرب، عاملاً بقول سيدي يسوع: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم؛ لأن هذا هو الناموس والأنبياء". (30)

لا أدري يا يوساب لماذا انفجرت وقتها بالبكاء، لم أصدق أن هناك أرواحاً بهذه الطهارة.. لا أذكر أنني بكيت قط في حياتي، ربما انتحيت يوم رحيل أمي، لكنني بكيت هذه المرة أكثر مما بكيت يوم رحيل أمي، ظللت أبكي وأبكي بشكلٍ غير عادي، وتيودوس يقول لي: - ابكِ يا قسطنطين.. هذه هي البداية! هذه هي البداية!

وراح يقول لي:

- في الحقيقة، أنت لا تحتاج إلى مساعدتي! إنما تحتاج إلى أن تكتشف نفسك التي بين جنبيك، ففي نفسك طاقات كامنة، واعلم أن الله أقامك للتمكين لدين مولانا يسوع المسيح، فكن كما أقامك.

أشاح وجهه عني برفق، وجلس يقرأ الكتاب مجدداً، ساد الصمت المكان هنيهة كأنني لست موجوداً، ففهمت أنه قد حان وقت الرحيل! الرحيل من تلك الروحانية السامية إلى مرارة الواقع الأليم.

فانجليت من سمو هذه الحكمة السامية إلى رحاب السماوات صفاء غير عادي، روحانية غير عادية، فأطرقْتُ مفكراً، واعتمدت رأسي بين يدي، وناجيتُ ضميري، قائلاً: - الآن بدأتُ أستجلي غوامض الحقائق، وأشعر بحلاوة المعرفة عن رب الكائنات، فيا ليت شعري أية جناية كنتُ قد ارتطمت بحماتها، لو لم أصل إلى تلك الحقائق، ولم أسمع هذا اللسان العذب الراوي عن ينبوع الحكمة!

بل هذا العقل الحاوي كنز الحياة، ثم رفعت رأسي، وقلت له:

- صدقت أيها الحبيب، إن الإله الحقيقي واحدٌ، ولا يكون إلا واحداً؛ فإياه أسأل أن يشملنا بحراسته.

ثم طويتُ يدي واحدة فوق الأخرى، وحيثه بملء الاحترام تحية الانصراف، ومشيت وكان وجه تيودوس بدرًا في ليلة تمامه.

كان يوسايبوس يستمع إلى قسطنطين وهو يعتصر ألمًا، فذرفت منه بضع  
عبرات، ثم أفصح قائلاً: - يا صاحب الفخامة إنني...  
- لا تناديني بهذا اللقب، لسْتُ بصاحب الفخامة!

صاح قسطنطين محتدًا، لكن غضبته كانت خالية من عنفوانها.  
أسند كوعه إلى الأريكة، ووضع كفيه على وجهه، ووجد نفسه يشعر بالذنب  
والخجل من أفعاله، فقال مرتبكًا: - إنني لم أقصد.. إنني لم أقصد!  
شعرت لوهلة أنني لم أقتل ابني.. حتى ظننت أنني لم أره قط.. وأن ما  
حدث كان حلمًا أو سرابًا، وأن مُخيلتي الواسعة هي من صنعت ذلك الفتى..  
ويومًا بعد يوم أقنعت عقلي بأن أنساه.. لكن كعادة حياتي تدبُّ الأمواج  
الساكنة فجأة.. آه يا يوسايبوس.

أبحث عن منرفينا بناظري طيلة حياتي، يا له من شعور بالطهارة، شعور  
محمّل بعبق الأزمان، لم أكن قد نسيتها قط، ما زلت أذكر خصلات شعرها  
الكستنائي المتموّج، لمحتها مرة في أحلامي، وأناملها الرقيقة كانت تعبت  
بأقحوانة حمراء أضناها المطر والبرد ثم قطفتها ورفعتها إلى أنفها الدقيق..  
أومات إليّ بإشارة، كأنما تقول لي: - "أخيرًا وجدتك!"

ورأيت وجهها الطيب الخجول يتسم، لكنني أحسست بقلبي منقبضًا، وما  
استطعت حتى أن أرد على ابتسامتها!

دموع يوسايبوس كانت تنهمر وهو يستمع، وقسطنطين ممسك بيديه!  
واستمر قائلاً:

- لقد أخطأت كثيرًا في حياتي يا يوساب.. أجل!  
لقد عشتُ بطريقة الأباطرة، وكان بالإمكان أن أعيش بطريقة القديسين،  
قمت بأفعالٍ شنيعة، ثم ماذا؟!  
ماذا بعد؟

كأنني انتظرت حياتي كلها كي أبلغ تلك الحقيقة، ما قدمت يداي في الدنيا..  
ذاك الفجر الذي سوف أنال فيه جزائي، لا شيء كان ذا أهمية في حياتي.  
إن صرخة واحدة من مارسيللوس وأنا أضربه بالسياط تُهتِّك روعي  
ونفسي.

يا ترى أين أنت الآن يا مارسيلوس؟  
أحقاً تعيش في الملكوت! وهل ستسامحني؟  
فمن أقاصي مستقبلي وطيلة هذه الحياة العبثية التي اضطلعتُ بها، كنت  
أشعر بأن ثمة هبةً مظلمة تتقدم نحوي، عبر سنوات لم تأتِ بعد، في تلك  
السنوات التي لم تكن أكثر واقعية من تلك التي أحيها.

\*\*\*

كانت الشمس مُشرقة ترسل أشعتها الباهتة في أحد صباحات شهر أيار الربيعية.. في حين كان قسطنطين في ذلك اليوم مزيجًا عجيبًا من المشاعر المتداخلة.. الاشتياق إلى الماضي بذكرياته وأشجانه وجراحاته، والتسامي في رحاب ملكوت السماوات حيث الصفاء والهدوء، وعلى رغم مرضه الشديد، تحامل على نفسه وقام من فراشه استعدادًا لحرب محتملة ضد الفرس، وانطلق برحلةٍ خلويةٍ مع قادة جيشه كعادته.

انطلاقًا ساحرًا كأنهم على بساطٍ سحري عابرين الأشجار والحشائش الخضرة، وصوت سهيل الخيول يتعالى في السماء، والإمبراطور يتقدمهم بجواده الحربي الأسود الضخم.

ولما صلوا إلى نهر الأردن بنيقوميديا، أحس قسطنطين بوخزاتٍ في جنبه، وبدأ السعال يتملّكه، كان يشعر بالضعف والدوّار، ثم تقيأ بعض قطرات الدم، ظل يترنج من فوق الفرس.. والجنود يسابقون الريح من خلفه، إلى أن هوى بعيدًا من فوق حصانه بين الأشجار..

ظهر مارسيللوس وهو يجهر بوحدانية الله أمام دقلديانوس.. ثم رأى نفسه في القبو المظلم وهو يضرب مارسيللوس بالسياط، فبدأ مارسيللوس بفك قيوده الحديدية واحدة تلو الأخرى وسط ذهول من قسطنطين! غير مستوعب ما يحدث..

- مارسيللوس! كيف فككت قيودك؟ أخبرني برب السماء ما الذي يحدث؟  
تداخلت الأفكار في عقل قسطنطين، وهو لا يفهم كيف عاد مارسيللوس الذي مات منذ ثلاثين سنة!

وما الذي جاء به بهذا القبو المظلم؟  
أخذ قسطنطين هنيهة إلى أن استجمع قواه.  
ثم اقترب منه وقد تملّكه الخوف، وسأله مرةً أخرى بصوتٍ مرتعش: -  
مارسيللوس.. ألم تمّت في عهد دقلديانوس؟!  
اقترب مارسيللوس نحوه ببطء، وكاد أن يلامسه، وقال: - من دخل في ملكوت الله لم يمت قط يا قسطنطين!

لحظات ورأى الجنود وهم يقتادون الأب لوسيان الأنطاكي، ثم يرى نفسه

وهو يطعن عزرا اليهودي بالخنجر.. شريط ذكريات يمر سريعًا أمام عينيه.  
ابنه كريسيوس الآن يناديه من بعيد قائلاً له: - أبي، أبي.  
وعروقه تنضح دمًا، أسرع إليه واحتضنه، لطخت دماؤه رداء قسطنطين.  
أجهش قسطنطين بالبكاء، ثم قال:  
- ابني، سامحني!  
قالها وعيناه تذرфан.

ظهر الحكيم تيودوس.. فحظت عينا قسطنطين! وجثا على ركبتيه..  
اقترب منه ببطء، وقال بصوتٍ تردد صداه: - ماذا تريد أكثر من هذا يا  
قسطنطين؟ أما زلت تحب الدنيا؟  
إنك آمنت بقلبك، ولم تؤمن بعمادك!

\*\*\*

خشخشة أرجل وهمهمات من بعيد، وصوت صياح:  
- قد أصيب الإمبراطور.. انصبوا الخيمة.. انصبوا الخيمة.  
بدأ قسطنطين يفيق من غيبوته، والرؤية تتضح له شيئًا فشيئًا. نظر إلى  
ثيابه فرأى بقعًا من الدم، فقال والدمع ينساب من مقلتيه: - إنها دماء  
كريسيوس ابني.. إنها دماء كريسيوس!  
قال هذا قبل أن يدرك أن هذه البقع كانت من جرّاء سعاله قبل أن يقع على  
الأرض.

السماء تعصف بالثلوج كأنها أزهاؤ بيضاء تتساقط بشكلٍ مائل، أرواح  
القديسين تخرج.. الجنود حول قسطنطين ينظرون إلى بعضهم بعضًا متعجبين  
من هلوساته، وأما الكونت دينيسوس فقد اقترب منه قائلاً: - استرح يا  
سيدي، أدام الرب عليك وافر الصحة.. لقد أرسلتُ إلى الطبيب، وهو في  
طريقه إلينا.

صاح قسطنطين في الكونت دينيسوس:

- أرسل لي الأسقف يوسابيوس النيقوميدي..

- أرجوك سيدي.. أرجوك استرح، لحظات وسيأتي الطبيب!

- تَبَّ لك يا دينيسو!!

قالها قسطنطين قبل أن يقول بصوتٍ متهدج كأنما يهمس: - لا أريد طبيبًا..

## أريد العماد.. أريد العماد من يوسابايوس النيقوميدي.

زادت الوخزات في جنب قسطنطين، وبدأ السعال يزداد، ظهر الحكيم تيودوس في الآفاق مجددًا، كأنه آتٍ من ربوةٍ عالية.. ابتدره قسطنطين وقال:  
- سيد تيودوس، لقد أخطأتُ كثيرًا في حياتي، هل لي من توبة؟!  
- باب الملكوت مفتوح لكل تائب، فهل تبتَّ حقًا يا قسطنطين؟  
- أجل.. أجل.. إنني... إنني الآن أحس بالماء الدافق على وجهي..  
تبسّم تيودوس ثم قال:

- إنه ماء العماد، يصبه عليك يوسابايوس.. قالها تيودوس بصوتٍ خفيض قبل أن يفتح قسطنطين عينيه ببطءٍ، ليرى نفسه بداخل خيمةٍ عسكريةٍ قد نصبوها!

ورأسه مُسجّى في جِجْر يوسابايوس الذي ينظر إليه بمزيدٍ من الشفقة، ممسكًا بكوز العماد يصبه عليه صبًّا، ويرى أحذية الجنود يقفون في شموخ من حوله بشكلٍ دائري.

كان ابنه "قسطنطيوس" قد جاء للتوّ، أدار قسطنطين وجهه إلى ابنه، وأمسك بيديه وتبسم، وأشرقت في مُحياه شمس الحياة.  
وفجأة زاد سعال قسطنطين، وبات تَفَسه ثقيلًا، وصوته متهدج وعيناه تدوران في عيني يوسابايوس، وهنا بكى قسطنطين للمرة الأخيرة، ورفع سبابته إلى السماء، ثم همس همسه الأخير: - اللهم إني بك آمنت، وبنبيك الذي أرسلت، يسوع المسيح المخلص!

\*\*\*

تَمَّت

على هامش الرواية

١- ظل أثناسيوس مطارَدًا من أبناء قسطنطين، وبموت قسطنطيوس (ابن قسطنطين)، وتولي يوليانوس الحكم عاد البابا أثناسيوس عام ٣٦٢، وكان أثناسيوس وقتها شيخًا كبيرًا.

٢- بموت البابا أثناسيوس جاء بعده تلميذه ثاوفيلس، وهو خال البابا كزلس عمود الدين، الذي حصل في زمانه مقتل عالمة الرياضيات هيباتيا، وحرّم الراهب نسطور.

أهم الشخصيات في هذه الرواية  
أباطرة وقيصرة الحكم الرباعي:

دقلديانوس	إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية.
جلاريوس	قيصر الشرق - القيصر الخاص بدقلديانوس وزوج ابنته (وسيكون إمبراطور الشرق بعد عزل دقلديانوس).
ماكسيمانوس	إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الغربية.
قسطنطيوس (والد قسطنطين)	قيصر الغرب - القيصر الخاص بماكسيمانوس (وسوف يكون إمبراطور الغرب بعد عزل ماكسيمانوس).
ماكسيمين دايا (شخصية ثانوية)	سيختره جلاريوس قيصرًا له.
سفيروس "ساويرس" (شخصية ثانوية)	سيختره جلاريوس قيصرًا للغرب.

القادة والجنود في نيقوميديا:

قسطنطين (بطل الرواية)	الأرطوبون الأعظم في عهد دقلديانوس، وهو ابن قسطنطيوس قيصر الغرب، وسوف يتولى الإمبراطورية في النهاية. وسيُعقد في عهده مجمع نيقية عام ٣٢٥م.
ليسينيوس	قائد كبير في عهد دقلديانوس، وسينفرد بإمبراطورية الشرق، في الوقت الذي سينفرد قسطنطين بإمبراطورية الغرب، وسيزوجه قسطنطين بأخته كونستانيا -فيما بعد- ويوقَّعان معًا مرسوم ميلانو عام ٣١٣م، الذي يتعهد بحرية العقيدة لجميع الأديان.
مارسيلوس	الشهيد مارسيلوس، قائد فرقة عسكرية في عهد

دقلديانوس، وتم إعدامه؛ لإيمانه بالمسيح، ورفضه السجود للآلهة.	(شخصية ثانوية)
قائد العمليات، سوف يؤمن بالمسيح، وسيكون صديقًا لمدرسة القديس لوسيان.	مارتينوس (شخصية ثانوية)
قائد في عهد دقلديانوس، كان يحيك المؤامرات ضد المسيحيين بإيعاز من القيصر جلاريوس.	يوليوس (شخصية ثانوية)

ديانات أخرى:

كان يُبلغ البلاط الروماني عن المسيحيين مقابل الحصول على المال.	عزرا اليهودي (شخصية ثانوية)
كاهن معبد وثني، ولا يُعرف اسمه.	كاهن معبد جوبيتير (شخصية ثانوية)
حاكم مدينة بثنية بنيقوميديا.	هيروكلس (شخصية ثانوية)

أسرة قسطنطين:

أم قسطنطين، وزوجة -أو جارية- إمبراطور الغرب قسطنطيوس.	القديسة هيلانة
أخت قسطنطين من أبيه، كانت مؤيدة لآراء آريوس.	الأميرة كونستانيا "قسطنطيا"
جارية قسطنطين في نيقوميديا (وهي أم ابنه كريسيوس).	منرفينا
زوجة قسطنطين، وهي ابنة الإمبراطور الأسبق ماكسيمانوس، زوّجها له ليقم معه تحالفًا ضد قياصرة	فوستا

الشرق، (وهي أم بقية أولاده).	
هو ابن قسطنطين ومنرفينا.	كريسبوس
هو ابن ماكسيمانوس وأخو فوستا، وسينتصر عليه قسطنطين في معركة جسر ميلفو بإيطاليا.	مكسنتيوس

فلاسفة:

فيلسوف مسيحي، صديق قسطنطين، وكان يعمل في بلاط دقلديانوس نيقوميديا، ثم هاجر إلى بلاده بالمغرب في عصر الاضطهاد، ليلتقي قسطنطين مرةً أخرى ويكون مُعلمًا لأولاده فيما بعد.	لاكتانتوس
فيلسوف بالإسكندرية، وكان مُحايدًا تجاه الخلاف المسيحي.	سقراطيس

الآباء والبطاركة المسيحيون:

صاحب مدرسة لوسيان في أنطاكية، وهو أستاذ آريوس.	القديس لوسيان الأنطاكي (لوكيانوس)
قس مسيحي مشهور، تعلم على يد القديس لوسيان، وبسببه عُقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م.	آريوس (البطل الثاني للرواية)
زميل دراسة مع آريوس عند القديس لوسيان، وصديقه الوفي، والمدافع عن آرائه بشدة.	يوسابيوس النيقوميدي
شيخ مؤرخي الكنيسة ومستشار قسطنطين، وله دور رئيسي في مجمع نيقية (ويُصنفه المؤرخون بأنه نصف آريوسي) بمعنى أنه كان محايدًا إلى حدٍ كبير.	يوسابيوس القيصري
بابا الإسكندرية، عزل آريوس من شركة الكنيسة.	البابا بطرس "آخر"

	الشهداء"
سيتولى بعد بطرس، وسوف يعيد آريوس إلى الكنيسة، ويرقيه إلى درجة "قس".	البابا أرشيلالوس (أرخيلاس)
بطريرك الإسكندرية، سيتولى بعد أرشيلالوس، وسوف يكون مخالفًا لآريوس وسيعزله عن الكنيسة.	البابا ألكساندروس
كان شماسًا، ثم تولى كنيسة الإسكندرية بعد موت ألكساندروس. وله دور كبير في مجمع نيقية.	أثناسيوس
أسقف القسطنطينية.	ألكساندروس
أسقف إسبانيا، ومستشار قسطنطين، أرسله قسطنطين لحل المشكلة بين آريوس وبين بابا الإسكندرية، وله دور فاعل في عقد مجمع نيقية.	هوسيوس
أسقف مدينة روما.	سيلفستر (شخصية ثانوية)
أسقف أسيوط، كان على خلاف مع كنيسة الإسكندرية، وكان متعاطفًا مع آريوس.	ميليتوس
أتباع ميليتوس أسقف أسيوط، ومنهم "يوحنا أركاف، أرسانيوس، أسخيراس..." وكانوا متعاطفين مع قضية آريوس.	المليتيون
الأسقف الذي تولى تعليم عائلة قسطنطين (كونستانيا وهيلانة) "وكان مناصرًا لآراء آريوس".	يوستانيوس

شخصيات لها تأثير:

كان طبيبًا بالبلاط الروماني، وزهد في الدنيا، ثم	الطبيب تيودوس
---	---------------

تعبّد لله في الأدغال.	
ستكون ملهمة لقسطنطين للتفكير في الانفراد بالإمبراطورية.	جلاكسا "عاهرة الحانة" (شخصية ثانوية)
مستشار قانوني لقسطنطين، وهو المُحقق العسكري في قضية مريوط.	الكونت دينيسوس "دينيسيو"
إحدى الراهبات المُكرسات بالإسكندرية	ليندا

## بعض الصور التاريخية للشخصيات الحقيقية



جلاريوس - غاليريوس



دقديانوس



فوستا - فوستا



قسطنطين



كونستانتيا - قسطنطيا



لوسيان الأنطاكي

- ١- حياة قسطنطين - يوسايبوس القيصري.
- ٢- عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة د. كولوتون، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم.
- ٣- أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير - جلانفيل، ترجمة د. ألبرت بطرس.
- ٤- مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية - عبد اللطيف أحمد علي.
- ٥- المسيحية عبر تاريخها في المشرق - مجلس كنائس الشرق الأوسط.
- ٦- الآريوسية في مصر البيزنطية - د. عبدالباقي السيد هادي.
- ٧- مدخل في علم الآبائيات الباترولوجي - فهمي جورج.
- ٨- الحضارة البيزنطية - ستيفن رنسيما.
- ٩- موت المضطهدين - للفيلسوف لاكتانتوس.
- ١٠- كنيسة أنطاكية، مدينة الله العظمى - د. أسد رستم.
- ١١- الترجمة اليسوعية للكتاب المقدس - الآباء اليسوعيون.
- ١٢- كتاب ضد الآريوسيين - البابا أثناسيوس الرسولي.
- ١٣- أثناسيوس الرسولي - الأب متى المسكين.
- ١٤- القديس أثناسيوس الرسولي حامي الإيمان - الأنبا غريغوريوس.
- ١٥- الدولة والكنيسة - د. رأفت عبد الحميد.
- ١٦- الصراع الكنسي - رانيا محمد إبراهيم.
- ١٧- التاريخ الكنسي - سقراط.
- ١٨- التاريخ الكنسي - سوزومين.
- ١٩- عالم العصور الوسطى - كولوتون.
- ٢٠- "الدفاع عن المسيحية في الإنجيل بحسب متّى" للأرشمندريت يوسف درّة الحدّاد.
- ٢١- النقد الكتابي.. مدارس النقد والرد عليها - حلمي القمص يعقوب.
- ٢٢- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية - إدوارد جيبون.
- ٢٣- الآريوسية دراسة لاهوتية - جون إدوارد.

- (1) مدينة سورية تقع على نهر العاصي.
- (2) قورينا : هي ليبيا حاليًا.
- (3) قائد الجيوش.
- (4) متى ٤٤:٥.
- (5) لآكتانتينوس: فيلسوف مسيحي استدعاه دقلديانوس من المغرب؛ لتدريس الفلسفة في نيقوميديا، وخرج من نيقوميديا بعد عصر الاضطهاد.
- (6) نقل كواليس الانقلاب، إدوارد جيبون في تاريخه ١/ ٤٢٧.
- (7) أعمال الرسل ٧/ ٦٠.
- (8) غلاطية ٧:٢.
- (9) جاء في الموسوعة اليسوعية للكتاب المقدس ما نصه : (أغلب الطن أنهم -أي قدماء الآباء- جمعوا في بدء أمرهم رسائل بولس واستخدموها في حياتهم الكنيسية، ولم تكن غايتهم قط أن يؤلفوا ملحقًا بالكتاب المقدس.. ومع ما كان لتلك الرسائل من شأن، فليس هناك قبل أول القرن الثاني أي شهادة تثبت أن هذه النصوص كانت تُعد أسفارًا مقدسة! ويظهر هذا نشوء مبدأ قانون جديد لأسفار مقدسة، غير أن هذا المبدأ لم يناقش قط. ويرجح كثيرًا أن الذي زاد في سرعة هذه الحركة هو تدخل مرقيون الهرطوقي الذي نبذ سلطة العهد القديم نبدًا تامًا، فاحتاج أشد الحاجة إلى تزويد كنيسته بأسفار مقدسة.. وقد عدّه في أواخر القرن الثاني إيريناوس أسقف مدينة ليون سفرًا مقدسًا) أه انتهى مختصرًا من الموسوعة اليسوعية/ مدخل إلى العهد الجديد ص ٨، ٩، ١٠.
- (10) كانوب: أبوقير حاليًا.
- (11) جمع شماس.
- (12) ليكوبولس: أسيوط حاليًا.
- (13) فرنسا حاليًا.
- (14) ✠ اللّبرومة أو راية الصليب هي راية رومانية عسكرية استعملت للمرة الأولى في بدايات القرن الرابع الميلادي، حيث وضع عليها الإمبراطور قسطنطين الكبير الصليب وأول حرفين من اسم المسيح بالإغريقية، حرف خي وحرف رو - (ΧΡΙΣΤΟΣ خريستوس). مع العبارة اللاتينية in hoc signo vinces (سنتصر بهذه العلامة)، فالبرومة إذاً هي النسخة المسيحية من الراية العسكرية التي كان يستعملها الجيش الروماني.
- (15) يُنسبون إلى دوناتوس، قام أتباعه بثورة ضد الرومان، واستطاع قسطنطين القضاء عليهم.
- (16) أثاناسيوس الرسولي للأب متى المسكين.
- (17) مز ١:٢٩.
- (18) الكرازة هي التبشير والوعظ.
- (19) نص الرسالة كاملاً عند جون إدوارد، الأريوسية دراسة لاهوتية - باريس - ص ١٧٦.
- (20) الاتحاد اللوكياني: هم تلامذة القديس لوسيان الأنطاكي (لوكيانوس).
- (21) متى ٥: ٢٩.
- (22) يعتقد الأسينيون والأبيونيون ببعثة ثلاثة مسحاء: مسيح إسرائيلي وهو يسوع، ومسيح هاروني وهو يوحنا المعمدان، ومسيح العالم الذي يسمونه النبي الموعود.
- يقول الأسقف الأرشمندريت يوسف درّة الحدّاد: (جماعة قمران ينتظرون النبي الموعود، وإيليا بصفة المسيح الهاروني، والمسيح بن داود!) أه. انظر كتاب: الدفاع عن المسيحية في الإنجيل بحسب متى " للأرشمندريت يوسف درّة الحدّاد.
- (23) الهوموسية "الهومسيوس": (أو هوموسيوس، أموسيوس، هوموسيوس) باليونانية هو ὁμοούσιος أي consubstantial هو اصطلاح لاهوتي في مجمع نيقية المسكوني الأول سنة ٣٢٥ م، واستقر هذا المصطلح ضمن قانون الإيمان النيقاوي في كل كنائس المسكونة بعد أن جاز تاريخًا طويلًا من الصدام والصراع والقبول والرفض بين الكنائس بعضها بعضًا.
- (24) يقول القمص أناسيوس فهمي جورج في كتابه "مدخل في علم الآبائيات الباترولوجي": (قسطنطيا "كونستانيا" أخت الإمبراطور: استغل إشيبيها الكاهن يوستانيوس علاقته بها، وهو أربوسي، وأقنعها بأن تطلب من أخيها أن يُفرج عن الأريوسيين، ونجحت بالفعل في التأثير عليه؛

لأنها كانت على فراش الموت (٣٢٥ م) أهـ.

(25) انظر تاريخ سقراط ١/٢٥.

(26) الأفخاريسثا: هي الأواني المقدسة لدى الكنيسة.

(27) يُعلق المؤرخ الكاثوليكي (جونز) بأن اعتراض الأسقف السكندري على إرسال اللجنة يشير إلى احتمالية صحة هذه الأحداث، يعني تحطيم الأواني المقدسة.

(28) هناك اعتقاد كنيسي سائد بأن المجمع المسكونية قد حلَّ فيها روح القدس.

(29) يقول إدوارد جيبون: (نستمد القصة الأصلية من أثناسيوس الذي يتورع بعض الشيء عن الإساءة

إلى ذكرى الميت وقد يكون مبالغًا.. غير أن الاتصال الدائم بين الإسكندرية والقسطنطينية كان كفيلاً

بأن يجعل اختراع هذه القصة أمرًا خطيرًا، وأولئك الذين يؤكدون هذه القصة الخرافية لموت أريوس

يجب أن يختاروا أمرًا من اثنين: السم أو المعجزة!" أهـ -إدوارد جيبون- "اضمحلال الإمبراطورية

الرومانية" ص ٤٤١.

(30) إنجيل متى ٧:١٢.